الدكتور عدنان علي رضا النحوي



تقويم نظرية الحداثة

وموقف الأدب الإسلامي منها

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ ١٩٩٤م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

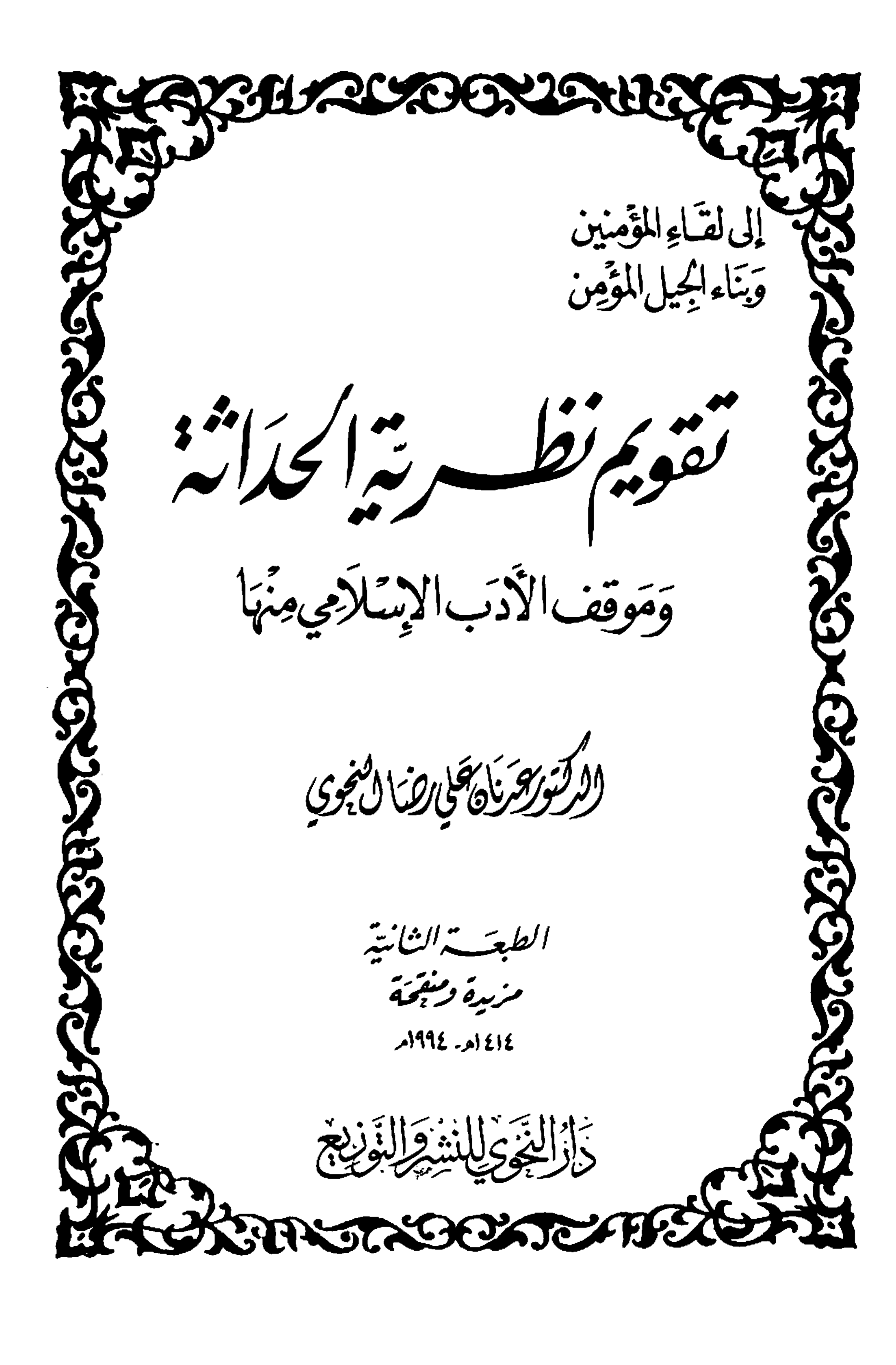
مع هذا الكتاب

إذا كنّا نأخذ على "الحداثة" من خلال تقويمنا لها مآخذ شتى عرضنا بعض نماذجها في هذا الكتاب، وإذا كانت "الحداثة" في صورتها الأخيرة انطلقت من فتنة الحضارة الغربية وفسادها، مزوّدة بخبرة آلاف السنين الماضية وتجارب المجرمين السابقين في الأرض، فإننا في الوقت نفسه نعترف بأن من أهم أسباب امتدادها في الأرض، وفي عدد من ديار المسلمين أو فيها كلها، هو هوان المسلمين أنفسهم وانحرافهم عن نهج الإيمان والتوحيد، وعدم ارتفاعهم إلى مستوى رسالة الإسلام ليقدِّموا لأنفسهم، ولأمتهم، وللعالم كله، الصورة المشرقة والحلول العلميّة التطبيقية لمشكلات الإنسان اليوم.

لقد غلبت العصبيات الجاهلية اليوم على كثير من مرافق حياة المسلمين، وأمتدّ التحاسد والتناجش والتباغض إلى أعماق النفوس، في حياة الأفراد والجماعات والشعوب، حتى تمزّقت الأمة المسلمة فرقاً شتى ومذاهب متنافرة، وحتى فُتِحتْ ثغرات، ثم أبواب واسعة، يدخل منها شياطين الجنّ والإنس، يفسدون في أمة الإسلام الواحدة، يقطعون الأرحام والوشائج الإيمانية كلها، ثم يصوغون ذلك في زخارف تثير الهوى وتحرّك الشهوات، يغوص الناس في وحولها، ثم يُسمُّون ذلك تطوراً وتجديداً وحداثة.

إنها مسئولية الأمة المسلمة أن تقدم لعالم اليوم الصورة التطبيقية لنمو حياة الإنسان في الأرض، وللمعاني الصادقة للحرّية والعدالة على أساس من منهاج اللّه والواقع البشري ومشكلاته.

ومن مسئولية الأمة المسلمة أن تقدّم للعالم النظرية والتطبيق لأدب الإسلام المتميز، الأدب الذي ينبع من منهاج اللّه ـ قرآناً وسنة ولغة عربية ـ والذي يلبي حاجات واقع الإنسان. إنه الأدب الذي يحمل رسالة الإيمان والتوحيد إلى النّاس جميعاً، والذي يخوض بذلك ميادين الحياة كلها على طهارة وقوة وخير، والذي تمتد ميادينه الواسعة من الحياة الدنيا إلى الآخرة، ويطوف أجواء الكون خاشعاً لله عابداً له، في جلال الخشوع، وجمال الكلمة والتعبير والصورة والمعنى، والحركة والحياة. إنه أدب الإسلام!



إلى لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

تقويم نظرية الحداثة

وموقف الأدب الإسلامي منها

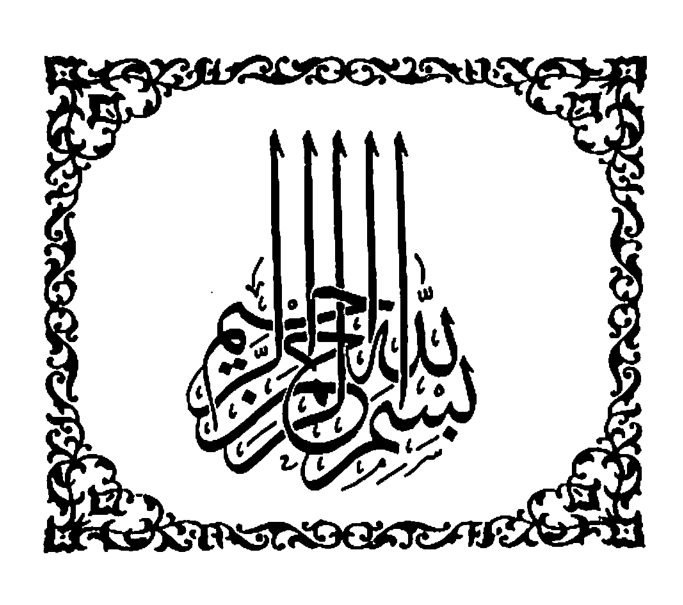
الدكتور عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار النحوي للنشر والتوزيع

٢١٦
٢٣٧ ن
النحوي، عدنان علي
تقويم نظرية الحداثة/ عدنان علي رضا النحوي. -
ط٢. - الرياض: دار النحوي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م
٢١٢ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك ٠-٠٩-٦٨٧-٩٩٦٠
١ - الحداثة ٢ - الإسلام - دفع مطاعن
٣ - الادب العربي - نقد - العصر الحديث أ - العنوان

رقم الإيداع ١٤/٠٦٣٥
ردمك ٠-٠٩-٦٨٧-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م
الطبعة الثانية
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



دار النحوي للنشر والتوزيع
(١٨٩١) - الرياض (١١٤٤١)
هاتف وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧
المملكة العربية السعودية



الإهداء

* إلى المؤمنين العاملين والدعاة الصادقين ،
* وإلى المؤمنين المتفكرين المتدبرين ،
لينظروا في الواقع فيجدوا العبرة والعظة ،
فيزدادوا إيماناً وعلماً .
* وإلى أهل الحداثة لينظروا في الواقع كذلك ،
وليروا ، ولنرى جميعنا ، أن في الإسلام بياناً
لكل طالب حق ،
وغناءً لكل طالب حاجة ،
وبلاغاً للعاملين .

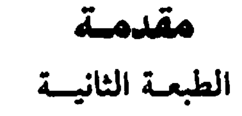
الافتتاح

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ (الأحزاب: ٧١)

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الحشر: ١٨ ، ١٩)

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» . [رواه مسلم]

كتاب البر (٤٥)، باب (١٠) حديث ٢٥٦٤/ ٣٤

مقدمة
الطبعة الثانية

مع هذه الطبعة الثانية لكتاب «تقويم نظرية الحداثة» تدخل تعديلات على الكتاب. وأول هذه التعديلات تغيير في الاسم ليصبح :

تقويم نظرية الحداثة
وموقف الأدب الإسلاميّ منها

وسبب هذا التعديل إدخال باب جديد هو «موقف الأدب الإسلامي من الحداثة» وكان هذا الباب في أصله بحثاً قدمته «لمؤتمر الأدب الإسلامي» الذي قام على إعداده: رابطة الجامعات الإسلامية ورابطة الأدب الإسلامي وجامعة عين شمس في القاهرة. وقد تمت جلسة الافتتاح وجلسة الاختتام في قصر الزعفران ـ جامعة عين شمس، وسائر الجلسات في دار الهيئة الهندسية في مدينة نصر بالقاهرة. وامتد المؤتمر من (٢٣ ـ ٢٥) ربيع الثاني ١٤١٣هـ الموافق (٢٠ ـ ٢٢) تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٢هـ.

لذلك كان لابد من إدخال بعض التعديلات في الأبواب والفصول الأخرى لتلافي التداخل والتكرار في موضوعات واحدة ضرورية للتقويم وضرورية لتحديد موقف الأدب الإسلامي. ويظل كتابي « الحداثة في منظور إيماني» في طبعته الثالثة هو الكتاب الأول والمرجع لهذا الكتاب «تقويم نظرية الحداثة» ولبحث «موقف الأدب الإسلامي من الحداثة، ولقضية الحداثة بصورة عامة.

وقضية الحداثة تستحق، كما أعتقد، دراسات ومتابعة. فقد تسللت إلى العالم الإسلامي عن طريق الأدب لتقلب كل التصورات عن الحياة والموت والكون، ولتحمل تصورات العالم الغربي بتاريخها المضطرب المتحير التائه فتطرحها في أرض الإسلام،

بأساليب مختلفة كان الأدب أحد أبوابها الواسعة.

وقد استيقظت في السنوات العشر الآخيرة عزمة الأدب الإسلامي بصورة نشيطة بعد غفوة استغرقت زمناً ليس بالقصير. ولكنني أعتقد أن بوادر هذه اليقظة للأدب الإسلامي ظهرت قبل ذلك بزمن، مع اختلاف ظهور هذه البوادر من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر، حين أخذ المسلمون يشعرون بفداحة النكبات التي حملها لهم العدوان الغربي متخفياً حينا خلف الحركات التنصيرية، أو خلف الشركات التجارية، أو مجاهراً بعدوانه بالجيوش الزاحفة والسلاح الكاسح، ليمتد به الإجرام في الأرض والظلم والطغيان على صورة مذهلة. وكذلك حين أحس الأدب بهول التحدي الذي يلقاه مع انتشار القومية والاشتراكية والعلمانية والديمقراطية، متزينة بأجمل حُلاها وأغلى زخارفها، لتخدع فريقاً من الناس ويفيق فريق آخر.

وسيظل هذا الكتاب في طبعته الجديدة محتفظاً بقاعدته العظيمة الغنية، ألا وهي رد الأمور إلى منهاج الله رداً أميناً، حتى نحتفظ بأمانة الكلمة وعدالتها، ونبتعد عن الظلم والافتراء، ولنتحرى الحق الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، ولنترفع بذلك عن السفاسف ونرقى إلى وضاءة الفكر وشرف النهج.

الرياض ١١/١/١٤١٤هـ
١ /٧/١٩٩٣م

عدنان علي رضا النحوي




مقدمة الطبعة الأولى

أعد هذا البحث أولا للملتقى الدولي الأول للفن الإسلامي الذي عقد بقسنطينة في الجزائر، والذي دعت إليه «جامعة عبد القادر الإسلامية» في مدينة قسنطينة، وأشرف عليه «نادي ابن النفيس» في الجامعة خلال الفترة (٨-١٣) جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ الموافق (٢٥-٣٠) تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٩٠م.

وقد حدَّد الملتقى عنوان البحث: «تقويم نظرية الحداثة». ولقد كنت أعتبر أن كتابي: «الحداثة في منظور إيماني» في طبعته الثالثة المزيدة والمنقحة يجيب على جوانب من هذا الموضوع، تقويم نظرية الحداثة، وإن كان لايطرقه مباشرة.

وأثناء إعداد البحث وجدت أن هنالك جوانب أخرى تحتاج إلى توضيح حتى تتكامل قواعد التقويم. فهنالك الأسس التي يجب أن يقوم عليها التقويم، وهنالك توضيح منطلق الحداثة وأسس نظريتها إن كان لها نظرية، وهنالك معنى النمو والتطور في التصور الإسلامي ومقارنته مع التطور والتغيير الذي تدعو إليه « الحداثة »، وغير ذلك.

لانستطيع أن ننكر أن «الحداثة» بكل أسسها ومفهوماتها العربية تسللت إلى واقع المسلمين خلال عشرات السنين تسللا خفياً مدروساً. ثم نمت وترعرعت كما ترعرعت سائر الأفكار الوافدة من شيوعية وديمقراطية وغيرهما، حتى احتلت مراكز وتصدرت مواقف في العالم الإسلامي .

لذلك أصبح من الضروري دراستها دراسة أمينة عادلة، حماية لأمتنا وديارنا من أي أفكار مضطربة تزحف مع زخارفها ومغرياتها. وإن أقوى حماية وصون هو الصدق والحق، وعرض الأمور على حقيقتها دون مغالاة يدفع إليها الهوى والحب أو البغض.

والحداثة ومصادرها الأصلية ونصوصها الثابتة لاتدع حاجة لأحد أن يفترى عليها. فقد

تحمل بعض النُصوص غموضاً يوحي بأهمية النص، أو يثير الالتباس لدى بعض الناس، حتى تحسب أن وراء ذلك شيئاً. ولكنك إذا دققت وتمعنت يختلف الحال.

ولانفتري على أحدٍ من رجال الحداثة بظلم أبداً. ولكننا ندرس الحداثة ونقومها من نصوصها الثابتة ومصادرها الحقيقية، ونبذل الجهد الصادق الأمين، ونتحرى الحق لنقول الكلمة الأمينة الناصحة، لننصح أنفسنا فتتحرى الحق، ولننصح رجال الحداثة ليراجعوا فكرهم ونهجهم، أو كلمتهم ونصهم، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، كما يقول رسول الله ﷺ. ولايستنكف عن مراجعة نفسه إلا كل مستكبر من الناس. ولكن المسلم لايستكبر، ويعود إلى جوهر الفطرة وجلال الإيمان، وعظمة القرآن والسنة، فيرد إلى ذلك كله كلمته ورأيه وموقفه، فيرجع عن الخطأ أو الباطل، ويلتزم الحق واليقين. فالمسلم يتعلم من دعاء الرسول ﷺ مايعينه على بلوغ الحق إن شاء الله :

«اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه»

وفي كتاب الله آيات بينات تذكّر وتوقظ :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ ﴾ (الزمر: ١٧، ١٨)

إننـا كلنـا مدعوون إلى أن نراجع كلماتنا وآراءنا ومواقفنا، لنردها إلى منهاج الله قرآنا وسنة، إلى الحق الذي نزل من عند الله، وحياً على نبيه وعبده محمد ﷺ، إلى الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليكون هو نبعنا الغني الذي يمد الإنسان دائماً بالنور والهدى، وليكون فيه غناؤنا، ونقدم به، نحن المسلمين، للغرب وللشرق، وللبشرية كلها، عظمة الفكر الإنساني في جمال الحق وجلال الإيمان ولنقدم عبقرية النصح، حتى يجد الإنسان حقيقة العزة والكرامة باليقين الحق والعبودية لله رب العالمين.

إننا نقدم بهذه الدراسة بحثاً علمياً بعيداً عن الظنون والأوهام، يعتمد النص الثابت

والمصدر الواضح . فلا نتهم أحداً بظلم إلا أن يدين الرجل نفسه بصريح نصه وبيانه، أو أن يقوم على ذلك من الله برهان .

لقد أعددت هذه الدراسة للملتقى الدولي الأول للفن الإسلامي الذي عقد في مدينة قسنطينة في الجزائر، كما ذكرت سابقاً . . ولقد قدمت لهذا البحث عند إلقائه بكلمة أضمها لهذا لكتاب تحت عنوان الافتتاح والتمهيد. وكان من عون الله تعالى أن لاقى هذا البحث تقدير الملتقى ورجال الفكر والأدب الذين حضروه من مختلف أنحاء العالم العربي، وأشارت الصحف بعد ذلك إلى هذا التقدير.

وأغتنم هذه المناسبة مع هذه المقدمة لأشير إلى قضية لغوية اختلط أمرها عند بعض الناس، حتى حاروا أي اللفظين أصح : التقويم أم التقييم. فالصحيح هو التقويم. حسب ماتثبته معاجم اللغة العربية.

ففي معجم مقاييس اللغة : «قَوَّمْتُ الشيء تقويماً، وأصل القيمة الواو. وبلغنا أن أهل مكة يقولون استقمت المتاع أي قومته». وفي الصحاح : «والقيمة واحدة القيم. وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء . يُقال قوّمت السلعة. وأهل مكة يقولون استقمتُ السلعة وهما بمعنى. وقومت الشيء فهو قويم أي مستقيم. » وكذلك في القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس .

ندعو الله خاشعين له أن يتقبل منا عملنا نقياً من شوائب الدنيا وغرروها، وأن يهدينا سبيل الرشاد وكلمة السداد، والعمل الطيب والكلمة الطيبة. ونسأله سبحانه وتعالى أن يجنبنا مزالق الزلل، وأن يهبنا عزائم القوة، وأن يغفر لنا ويثبتنا على الحق، إنه هو السّميع المجيب.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١٥/٦/١٤١١هـ
١/١/١٩٩١م




الافتتاح والتمهيد

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونسأله السداد والرشاد، والثبات على الحق، والمضي على الدرب، على الصراط المستقيم.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، علم آدم الأسماء كلها، وعلم القرآن، وعلم البيان، وهدى عباده المؤمنين إلى الطيب من القول وهداهم إلى صراط الحميد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ على عبدك ونبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك، ترك الناس على منهاج الله ـ قرآنا وسنة ـ حكماً عربياً، بلسان عربي مبين، حتى يتأدب المؤمنون به، وهو ذروة الأدب والبيان، وجوهر الحجة والبرهان، على مدى العصور والأجيال، نوراً للمؤمنين، وهدى للعالمين، ونهجاً للصادقين.

من هنا، من هذا النبع الغني ينطلق الأدب الإسلامي، غير معزول عن ميادين الدعوة الإسلامية، غير مفصول عن مصادره التي تغنيه، ممتداً في حياة الإنسان في جميع ميادينها لتتكامل وتتناسق، ولتدفع الأدب الحق يحمل النية الصادقة والنهج الصادق، ويجلو الأهداف المشرقة في حياة الإنسان، كل ذلك في ساحة الإيمان والتوحيد، فلا شيء سواهما يجمع هذا الجمع ويدفع هذا الدفع .

لايعتبر الإسلام الأدب ميدان لهو واسترخاء ولاساحة تسلية وخدر، ولاباب تنافس على الدنيا وشهواتها. إنه ميدان جهاد وساحة ابتلاء وتمحيص، وباب قوة وعتاد، في ملحمة الإنسان، في ملحمة ماضية أبد الدهر. فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» [1]

هكذا حدد رسول الله ﷺ مهمة الأدب ودوره في الحياة ـ وتبرز مهمة الأدب في واقعنا اليوم، وأمتنا تحيط بها الأخطار من كل جانب، ويموج المكر والكيد في كل ساح، حتى كأن اعداء الله يريدون اجتثاث دين الله من جذوره إن استطاعوا ولن يستطيعوا. فمنذ أن بعث الله محمداً ﷺ وحرب المشركين ممتدة، تبدأ من عندهم وتمتدُ بهم، وتجمع في ساحها أعداء الله كلهم: المشركين والمنافقين وأهل الكتاب. ولكن دين الله ماض في غزة الحق وإشراقته:

كيف تُخفى إشراقةُ الحق مهمَا : أطبقت فوقَها يد الطغيان
سَرَقُوا الوَمْضَةَ الغنية لكن : أشرقَت رُغم ذاك منها اليدان
سَرَقوا العطرَ ثُمَ وَلَّوْا ولكن : نَثَرَته الخُطى بكلٍّ مكان
كُلما أوغل الجبانُ بظُلمٍ : جَعَل الله فرُجَةً من أمان[2]

من هنا ينطلق الأدب في الإسلام ويتحدد دوره، دور الكلمة الطاهرة الغنية، ليساهم الأدب في أعظم مهمة إنسانية، مهمة بناء أمة التوحيد في الأرض، ليكون أدباً عزيزاً في أمة عزيزة، يحمل الحق والخير للناس جميعاً:

عزة فيـه إنـه أدب الإســلام، غرس الإيـمان، ري الـعـهـود
شرف القول من هدى الحـــ : ـق وسحر البيـان بالتوحيـد
أدب يرتوي البيان لديه : من حديث، من الكتاب المجيد
رف بالطيب عوده فتمنى : كل روض نداوة من عـود
هو رف الندى على الورق اليا : بس يهتز في ربيع جديد
هو في الكون آية حوّم المجـ : ـد عليها فعادت روائعاً من نشيد
أدب شع في الليالي مع العز : م زكا عطره دما من شهيد
كم جلاه على الميادين فرسا : نُ وغنته وثبة من صيد

---

(١) رواه أبو داود في سننه. كتاب الجهاد (٩) باب (١٨) حديث (٤ . ٢٥).

(٢) د. عدنان علي رضا النحوي ـ مجلة القافلة ـ العدد (٩) المجلد (٣٧).

فانهضي ياروائع الشعر هذي : ساحة زغردي لها واعيدي
أنت في ذروة البيان عطاء : زاخر بالهدى وأبحر جودِ[1]

أحاول في هذه الدراسة الموجزة أن أوضح موقف «الأدب الإسلامي» من «الحداثة». وبيان موقف الأدب الإسلامي يحتاج إلى أضعاف هذه الدراسة، مما لايتسع له المجال في هذه العجالة. فقد طرحت الحداثة قضايا عديدة في تاريخها، وأثارت جدلاً وخلافاً مازال محتدماً حتى اليوم، وإن خف أواره. لذلك أناقش ما أعتقد أنه الأولى والأهم، سواء في ذلك النظرات النقدية والفكرية وغيرهما.

وكل قضية أطرحها تستحق هي نفسها دراسة مفصلة واسعة. لذلك أرسم أولاً نهجاً للدراسة أوضحه مع الصحفات الأولى التالية. وأحدد قضايا رئيسة، أعرضها بإيجاز لايخل بالوضوح إن شاء الله.

ولابأس أن أشير هنا إلى أنني سبق أن فصلت في بعض القضايا في كتاب سابق لي حول الحداثة هو «الحداثة في منظور إيماني»، لذلك قد يتكرر عرض بعض القضايا هنا، على تفاوت في الإيجاز أو التفصيل.

أعرض في هذه الدراسة أولا قضية الحداثة بين المصطلح والدلالة، لكثرة مادخل ذلك من غموض وتناقض واضطراب. وأعرض بعد ذلك نظرة حول جذور الحداثة في تاريخ الإنسان للاختلاف الواسع بين الباحثين حول بدايتها. وأعرض من خلال ذلك وجهة نظر في هذه القضية بعد ردّها إلى منهاج الله، لنرى منذ البداية كيف ينظر الإسلام إلى قضية النمو والتطور والسعي إلى الجديد، وكيف تتحدد معالم النهج للأدب الإسلامي في هذا الصدد. وفي الوقت نفسه يسوق لنا البحث بين هذه القضايا معالم رئيسة في الفكر الحداثي ونهجه وأدبه.

ثم أتناول أهم القضايا الأخرى للدراسة والمقارنة وتحديد الموقف. وأول هذه القضايا التي تفرض نفسها هي النظرة للكون والحياة والإنسان. وينتج من هذه القضية مباشرة

---

(١) د. عدنان علي رضا النحوي ـ كتاب الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ـ دار النحوي للنشر والتوزيع. (ص: ٣٣٢ ـ ٣٣٦).

قضية أخرى مرتبطة بها، اخذت مساحة واسعة في الفكر الإنساني ومذاهبه، ألا وهي مصادر المعرفة للإنسان، وهاتان القضيتان الرئيستان في الفكر والأدب تطرحان قضية ثالثة هي الموقف من الماضي والتراث والأسطورة.

ولقد كانت «اللغة» من أخطر القضايا التي تناولتها الحداثة في مذاهبها المختلفة، فكان لابد من عرض موقف الحداثة وموقف الإسلام والأدب الإسلامي من هذه القضية الواسعة المتشعبة. وكان لا بد أيضاً أن نشير إلى أهم المذاهب والحركات الحداثية. ولنقدم نماذج سريعة من النقد البنيوي، ولمحة سريعة عن الشعر ونظرية «الشاعرية» في الحداثة، ثم نسوق كذلك نماذج سريعة من نصوص الأدب الحداثي، ونعرض مقابلها نصوصاً سريعة من الأدب الإسلامي ندرك أن هذه النصوص قد لاتكون كافية لاستعراض مساحة الأدب هنا وهناك. فهذه مهمة متعذرة في هذا البحث المؤجز. ولكنها لمحات وإشارات تناسب القضايا المطروحة.

ومن القضايا المعروضة في هذا البحث، الجمال الفني وولادة النص الأدبي وانطلاقته ولقد عرضنا في سياق البحث كله بعض النظرات حول هذه القضية على ضوء ماتناولته المذاهب الفكرية والأدبية. أما في الباب الأخير فإننا نجمع موجز النظرة الجمالية في تاريخ الإنسان بإشارات سريعة لتكون تمهيداً لما نقدمة من رأى حول عناصر الجمال الفني، والحوافز المولدة للنبضة الفنية التي تولد النص الفني وتطلقه وتدفعه، على ضوء مانفهمه من طبيعة الإنسان والحياة كما يعرضها منهاج الله قرآناً وسنة، وعلى ضوء الدراسات الأدبية، على ضوء المعاناة والتجربة الفنية الخاصة، لأقدم بعد ذلك تعريفاً خاصاً بالأدب الإسلامي، ولأشير إلى أهمية مايلقاه الأدب الإسلامي من تحديات في واقعنا اليوم.

أحمد الله سبحانه وتعالى وأستغفره وأتوب اليه، وماأصبت فيه فهو من فضل الله وحده، ونعمته ورحمته، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١٤١٢/٨/٢٢هـ



الباب الأول

أسس التقويم ونهجه والمصطلح والدلالة



الفصل الأول

أسس التقويم ونهجه

انتشرت كلمة «الحداثة» في واقعنا اليوم بين بريق لها عند بعض الناس، وعتمة عند آخرين، وبين نفور أو إقبال، وتأييد أو إنكار. ربما كان هنالك عدة أسباب لتناقض المواقف. فالتأييد ينشأ من التقاء النهج والأهداف، والمعارضة تنبع من تضارب في ذلك، هذا هو الأساس. ولكن تناقض المواقف امتد إلى الارض الواحدة، والجبهة الواحدة والفكر الواحد. هذه هي الظاهرة الجديدة البارزة في واقعنا. ولهذه الظاهرة نفسها أسباب مختلفة: أحدها أن فريقاً تأثر بالمعنى اللغوي لكلمة الحداثة، ومايرافقها من ظلال مشرقة، جعلت بعض الناس يحسبونها السعي الى الجديد المفيد للأمة في واقعها ومسيرتها. ورأى فريق آخر انفصال هذه اللفظة اليوم واقعياً عن معناها الموضح في المعاجم، بعد أن حددته حركاتٌ أدبية، وفكرية وفلسفية، ظهرت في واقع الإنسان، وسمي عطاؤها «بالحداثة». وسبب آخر للتضارب بين وجهتي النظر هو اضطراب الميزان أو اختلافه بين الفريقين. ولابأس في أن نضيف سبباً ثالثاً قد لايظهر أحياناً وقد تخفى آثاره أحياناً أخرى، ذلك هو ضغط الواقع في هذا المجتمع أو ذلك، ضغطاً تتنوع ألوانه، وتتبدل معالمه، وقد يكون من معالم هذا الضغط تسلل الفكر الحداثي نفسه أو بعض زخارفه إلى قلوب كانت منكرة له قبل حين.

أما نحن هنا فنتحدث منطلقين من اربع قواعد أساسية نعتقد أنها ضرورية للوصول الي تقويم أمين وحكم عادل. هذه القواعد هي:

أولا: محاولة فهم الحداثة - إن أمكن ذلك - من دعاتها وجنودها وقادتها، من مذاهبها واتجاهاتها، حتى لاتُظلمَ او يُفْتَرَى عليها، فحسبُها أنها ظلمت نفسها.

ثانياً : اتخاذ ميزان واحد ثابت في تقويم الأمور وتحديد الأحكام، حتى لايقع تناقض واضطراب. هذا الميزان الثابت هو رد الأمور إلى منهاج الله، قرآناً وسنةً ولغةً عربيةً، فذلك هو ميزان الإيمان والتوحيد.

ثالثاً: إن الدراسة والتقويم يتناولان «الحداثة» من واقعها العملي، ومن تاريخها الحقيقي، ولايعالجان «الحداثة» من آمال وأحلام، ولا أماني وأوهام.

رابعاً : إننا لاندرس بيتاً من الشعر ولاعدداً من الأبيات ولاعدداً من القصائد أو الروايات، ولاموقفاً محدداً أو عدداً من المواقف. إننا، في هذه الدراسة والتقويم، نبحث عن نهج ممتد. لذلك ندرس الخصائص الغالبة التي لايعطلها مخالفة هنا أو هناك، مخالفة لاتلغي روح النهج والامتداد. فلكل قاعدة شواذ، ولكل نظرية استثناء.

وإذا ذكرنا في القاعدة الأولى : « . . . . . محاولة فهم الحداثة إن أمكن ذلك، . . . » فلأن الحداثة حملت معها الشيء الكثير من الاضطراب والغموض، والحيرة والشك، كما سيظهر معنا من خلال الدراسة، لدى دعاتها أنفسهم ولدى الناس عامة كذلك.

هذه هي الأسس الأربعة التي سيقوم عليها تقويم ما يُسمَّى نظرية الحداثة.

أما منهج التقويم فإنه يبدأ بالمصطلح ذاته، باللغة الأجنبية التي صدر عنها، ثم بترجمته إلى اللغة العربية، لنرى من المصطلح وترجمته ابتداء التضارب والغموض. ثم ننتقل إلى تعريف الحداثة بين رجالها وخصومها، لنرى شدة التضارب والغموض عند أهل الحداثة أنفسهم. ولو أن المصطلح والتعريف حملا مفهوماً واضحاً محدداً لأمكن أن نتوقع شيئاً من الخير ولو قليلاً من أمر واضح ولكن الخطر يكمن في هذا الغموض ومحاولة الاختفاء .

وإذا كانت الحداثة تنطلق من رغبة النمو والتطور والتغيير فهل للنمو والتطور والتغيير منهج واحد في حياة الإنسان؟! وهل النمو والتطور هما شران دائما؟! وهل التغيير لايكون تغييراً إلا إذا تبنى الانفصال والانفصام والانقطاع عن الماضي؟! فالتغيير الذي تحاول الحداثة أن تدعيه لنفسها لابد من أن نزنه بميزان الإسلام، ونرده إلى منهاج الله، لنرى سُبُل النمو والتطور كلها في حياة الإنسان على الارض ولنرى أيها أنفع وأبقى.

وحتى تتضح الصورة على نحو جليّ قويٍّ نعرض منهج الإسلام، ونهج الإيمان في التغيير

والنمو والتطور في الجهد البشري، حتى تسهل المقارنة بعد ذلك ويسهل التقويم.

نعتقد أن هذه القضايا الأولى التي تنطلق منها الحداثة إلى عالم الظلام والشك بعد ذلك. هذه القضايا الأولى التي سنعرضها كما ذكرنا هي: المصطلح، التعريف، التغيير، فهي تلقي الضوء على منطلق الحداثة واتجاهها، وتوفر لنا الاطمئنان إلى سلامة الأسس التي وضعناها للتقويم وعدالة النهج الذي نتبعه. ومع كل خطوة نخطوها ستكون الأسس كلها تعمل معاً على النهج المقرر. وبمقدار ماتكون هذه الأسس مألوفة للقارئ الكريم، ستكون في الوقت نفسه أقرب إلى تقديره وأيسر على المتابعة والمحاكمة.

فإذا خطونا هذه الخطوات يصبح من الواجب أن نتتبع الحداثة في ميادينها المختلفة من فكر وعلوم إنسانية وعلوم تطبيقية، وفنون وأدب، وسياسة واقتصاد، وفكر وأخلاق. وسيكون هذا التتبع موجزاً، ولكن نرجو أن يكون واضحاً. وسيكون موجزاً لأن تفصيلات أوسع ترد في كتابنا «الحداثة في منظور إيماني»، إلا أننا نطرق هذه الميادين هنا من منطلق التقويم لا مجرد الدراسة والبحث. وسنجد من خلال هذا العرض امتداد الحداثة بين أقطار أوربا المختلفة وأمريكا والاتحاد السوفياتي، ليموج دعاتها ومذاهبها في قلب العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي، على صورة تدعو للتأمل والتدبر، ولتجد فرصتها للنمو هنا وهناك، ولتلتقي على نقاط محددة في كلا الميدانين، على اتساع الخلاف بين العالمين: المادي الرأسمالي والمادي الشيوعي.

وإن كانت النقاط التي تلتقي عليها الحداثة في هذين العالمين تثير الدهشة والتأمل، فإن الدهشة تزداد حين نرى الحداثة تنتقل إلى الأقطار الإسلامية، وحين يمتد تأثيرها إلى الواقع الإسلامي اليوم، ولتأخذ مكانة فيه، وتصبح قضية تثير الدراسة والبحث. وأثناء دراستنا هنا سنمضي على نفس الأسس التي عرضناها للتقويم، حتى نظل أقرب للتقوى وأبعد عن الافتراء. ونخلص بعد ذلك إلى تعريف «الحداثة» تعريفاً ينسجم مع النهج الإيماني في الدراسة والتحليل، وينسجم مع الأسس التي يقوم عليها النهج، ومع الحقائق التي نعرضها.

ومن أكثر القضايا التي يدور حولها الخلاف هو قضية بداية الحداثة. متى بدأت ؟! وعلى

هذا السؤال إجابات كثيرة مختلفة. فمنهم من يعيدها إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، ومنهم من يعيدها إلى القرن التاسع عشر، نصفه الأول أو نصفه الثاني، ومنهم من يعتقد أنها ابتدأت في أوائل القرن العشرين.

ولكننا نجيب في دراستنا هذه عن هذا السؤال بأن الحداثة بخصائصها الأساسية ابتدأت منذ عهد بعيد جداً. أما تسميتها «بالحداثة» فهي التي يمكن أن يختلف على بدايتها لأنها تمثل هذه الخصائص في حركتها في العصور الحديثة. وسنبين في الفصل المقبل متى بدأت الحداثة بخصائصها لابتسميتها.

كما نحب أن نبين هنا أن من خصائص نهجنا في هذه الدراسة الإيجاز الذي لايخل بالوضوح، حتى نقدم للقارئ الكريم صورة يسهل متابعتها.

وهذه الدراسة في أصلها بحث أُعِد لمؤتمر، فلا يعقل أن تمتد به التفصيلات الواسعة والدقيقة. ونحن ندرك أن بعض القضايا التي نعرضها هنا بإيجاز تستحق بحثاً مستقلاً مفصلاً، وبعضها الآخر سبق دراسته في كتابنا السابق الذكر: «الحداثة في منظور إيماني».




الفصل الثاني

الحداثة بين المصطلح والدلالة

لم تكن لفظة «الحداثة» هي الكلمة التي رافقت هذه الظاهرة الفكرية والأدبية منذ بدايتها القديمة التي نعتقدها، والتي سنعرض لها بعد قليل. ولكن هذه الكلمة ظهرت حديثاً في عالمنا الإسلامي ترجمة لكلمتين أجنبيتين رافقتا هذه الظاهرة الفكرية الأدبية في انطلاقتها الحديثة في أوروبا فالمصطلح في أساسه أجنبي عن اللغة العربية، أوروبي المنشأ، ظهر في معظم لغاتها كالانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها، ففي اللغة الإنكليزية عرف مصطلحان هما : (Modernism) و (Modernity) ، وفي اللغة الفرنسية عرف المصطلحان المرادفان القريبان من هاتين اللفظتين.

أما المصطلح العربي وهو «الحداثة» فقد امتد حتى أنه لم يعد ينحصر في المعاني المقررة في معاجم اللغة العربية. فالكلمة في أصلها تحمل معاني وظلالاً تتعلق بالشباب والجدة مما فصلنا في كتابنا «الحداثة في منظور إيماني» فالمعنى الاصطلاحي، كما حدده رجال الحداثة أنفسهم، حسب النصوص التي نوردها بعد قليل، امتد في ظلاله ومعانيه ليدل على مذاهب فكرية وأدبية جديدة، لها خصائصها المحددة في كتب رجالها ودعاتها. فحين تبين المعاجم أن معنى الحداثة : أول الأمر، الشباب وأول العمر ونقيض القديم، فقد انطلق المصطلح في آفاق فكرية وأدبية، تمثلها حركات ومذاهب امتدت بين فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا وروسيا، حسب ماستوضحة هذه الدراسة.

لقد عانينا كثيراً في واقعنا اليوم من اضطراب المصطلحات المترجمة عن اللغات الأجنبية في كثير من شئون حياتنا، وبخاصة في الأدب والفكر. ونضرب مثلاً على ذلك بكلمة «الملحمة» المترجمة عن كلمة «EPIC » الانجليزية أو «EPICUS» اليونانية. وإذا كانت كلمة

«EPIC» تحمل مفهوماً واضحاً محدداً بالنسبة لليونان والغرب عامة، فإن كلمة «ملحمة» العـربية الإسلامية لم تحمل في الأدب العربي معنى محدداً معترفاً به بعد. ولقد عرضت تصوراً للملحمة الإسلامية في كتاب «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته» وفي «ملحمة الجهاد الأفغاني» في طبعته الثالثة، وناقشت الموضوع في بعض المجلات والصحف المحلية والخارجية.

وكذلك كلمة «الاستعمار» فهي ترجمة لكلمة « Colonisation » الانجليزية. وهناك فرق كبير في المعنى والظلال بين الكلمة العربية والأجنبية. ففي العربية هي لفظة غنية قرآنية تحمل أجمل المعاني. إنها إحدى ظلال الأمانة التي يحملها الإنسان على الأرض والعمارة في الأرض، لاعمل العدوان والاحتلال والظلم. ففي سورة هود:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

(هود: ٦١)

«واستعمركم فيها» أي طلب منكم عمارتها بحضارة الإيمان والخير والصلاح، ثم تعود بعد ذلك إلى ربها وخالقها.

وكلمات أخرى ومصطلحات عديدة ماتزال تحتاج إلى تحديد وتعريف واضح يرفع اللبس والغموض. إلا «الحداثة» فإنها معجونة بالغموض والاضطراب مصطلحاً ومعنى وحركة. لذلك نبدأ بدراسة المصطلح وترجمته.

١ـ الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته:

وأول مايجب أن تتناوله الدراسة والتقويم هو المصطلح نفسه، وعلاقته بالمصطلح الأجنبي الذي هو الأساس. ففي اللغتين الانجليزية والفرنسية على الأقل انتشرت لفظتان (Modernism) و (Modernity) واختلفت الترجمة العربية بين: الحداثة، والعصرية، والمعاصرة. أما في المعاجم فيكاد يكون الفرق ضيقاً في الترجمة. ففي المعجم نجد ترجمة

كلمة (Modernism) بـ تعبير أو استعمال عصري، العصرانية، و (Modernity) بالعصرية أو كون الشيء عصرياً. إلا أن المعجم يضيف على معنى كلمة (Modernism) بأنها حركة الفكر الكاثوليكي لتأويل تعاليم الكنيسة على ضوء المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكذلك بأنها نزعة لاهوتية تحررية «البروتستنتية»، وأيضا بأنها نزعة في الفن الحديث تهدف إلى قطع الصلة بالماضي[1].

إلا أن الدكتور محمد مصطفى هدارة يترجم كلمة (Modernity) بالمعاصرة في مقالة له نشرتها مجلة الحرس الوطني[2]، وبالعصرية في محاضرة له عن «الحداثة والتراث». ويعتبر أن هذه الكلمة تعني إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. أما كلمة (Modernism) فيترجمها «بالحداثة» ويقول إنها مذهب أدبي، بل نظرية فكرية لاتستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ولكن محمد برادة يعكس الترجمة ويختلف في المفهوم، حين عبر عن ذلك في مقالته التي نشرتها مجلة «فصول» والتي خصصت عددين كاملين للحداثة، حيث يقول: «... تأخر ظهور «الحداثة» (La Modernite) إلى منتصف القرن التاسع عشر، مع أن العصرية (La Modernisme بدأت ممهداتها في أوروبا منذ القرن السادس عشر» .[3]

أما الدكتور كمال أبو ديب فيختلف عن ذلك حين يقول في مقالته في مجلة فصول: « ولقد اقترحت في عمل سابق ترجمة المصطلح (Modernism) بـ «الحداثية» ولأن Modernism

---

(١) قاموس «Wedbster» (ص: ٧٦٣). قاموس المورد (ص: ٥٨٦). طبعة ١٩٨٥م.

(٢) مجلة الحرس الوطني العدد (٨٦). السنة (١٠) ربيع الآخر ١٤١٠هـ، نوفمبر ١٩٨٩م. (ص: ١٠٣).

د. محمد مصطفى هدارة. دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق. طبعة ١٩٨٩م الدار الأندلسية للأوفست. (ص: ٦٢).

(٣) مجلة فصول المجلد (٤). العدد (٣) سنة ١٩٨٤م، (ص: ١٢).

حركة مميزة، بل مذهب أو مدرسة . . . أما (Modernity) فإني سأستخدمها استخداماً عاماً بوصفها إشارة إلى سمات حضارية معينة. ويبدو لي أن «الحداثة» هي المصطلح الأقرب إلى تحديد مفهومها» [1]

ويمتد الاختلاف الى «فردوس عبد الحميد البهنساوي» وهي تتحدث عن كلمة Modern ومشتقاتها في مقالة لها عن عناصر الحداثة في الرواية المصرية حيث تقول: «تكرار استخدام أحد مشتقاتها وهو Modernism للدلالة على حب الجديد ونزعة التحديث والنزعة العصرية، ثم استعملت مصطلحاً نقدياً دالاً على هذا المذهب. . . . أما كلمة Modrnity فهي تصف الزمن التالي لهذه الحقبة كما تصف حداثة الأدب وكونه عصرياً» [2]

ولو استطردنا في هذه القضية لطال بنا الحديث، لشدة الاختلاف في ترجمة هذين المصطلحين الغربيين. ولكننا نكتفي بأن نشير إلى كتاب Discovering Modernism. T. S. Eliot and his Context لمؤلفه Louis Menand حيث استخدم كلمة Modernism في دراسة نقدية لـ تي. إس. اليوت وللدلالة على ملامح هذا الأدب وخصائصه . بينما استخدم Join F. Rundell كلمة Modernity في كتابة Origins of Modernity حيث تحدث عن: The Origins of Modern Social Theory from Kant to Hegel to Marx جذور النظرية الاجتماعية الحديثة من «كانت» إلى «هيجل» إلى «ماركس». ومن هنا نرى شدة الاختلاف في المصطلح واستخدامه، مما ينعكس على الرؤية ذاتها من ناحية، ومما يشير إلى طبيعة الاضطراب والغموض الذي يلف الحداثة كلها، كما سنرى.

والكلمة في أصلها الأوربي مشتقة من كلمة Modern ولقد أخذت هذه الكلمة في أوروبا رواجاً تفاوت في الشدة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتفاوت بين بلد وبلد في أوروبا. فمن مقالات الناقد النرويجي «جورج براندر» سنة ١٨٨٣م تحت عنوان «رجال الاختراق الحديث» إلى المختارات الشعرية التي نشرت في ألمانيا سنة ١٨٨٥م تحت عنوان: « شخصيات شعرية محدثة» تدعو إلى تحطيم كل ماهو قديم وتقليدي، إلى مقالة

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٦).

(٢) المرجع السابق. المجلد (٤). العدد (٤). (ص: ١٣).

«فرجينيا ولف» سنة ١٨٨٨م تحت عنوان: «أحدث التيارات الأدبية ومبدأ الحداثة».

ثم انطلقت لفظة الحداثة ومشتقاتها، وأقبل الناس عليها من خلال نزاع شديد حول مفهومها، حتى صدر كتاب «رحيل الحداثة» سنة ١٩٠٩م «لصاموئيل لبلنسكي» في برلين. ولكن امتدت الحداثة بعد ذلك على أنماط مختلفة وحركات عدة، حتى كانت سنة ١٩٢٢م حين صدرت قصائد وروايات متعددة لشعراء وكتاب ارتبط اسمهم بالحداثة: قصيدة الأرض اليباب «لإليوت» ورواية يوليسيس «لجويس» وأناشيد «رلكة» ومسرحيات ومراث وغير ذلك، مما جعل الناقد «هاري لفين» يعتبر سنة ١٩٢٢ سنة المعجزات

وامتدت الحداثة بعد ذلك لتكتسب مع السنين معاني متعددة، ولتقوى في منطقة وتضعف في أخرى. ولكنها امتدت إلى العالم الاسلامي، واخذت تنمو وتقوى، وتسلل إلى الفكر والأدب والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ومهما اختلفت مصطلحات الحداثة وترجمتها، فقد بقي لها معالم مشتركة في الفكر والسلوك والأخلاق والأدب.

٢ - اضطراب دلالة المصطلح وامتداده:

ولابد أن نوضح مع أول هذه الدراسة أن «الحداثة» ليست موضوعاً أدبياً فحسب، ولاهي تصور خاص بالنثر والشعر واللغة. ولكن الحداثة في جميع دلالاتها تمتد إلى معظم ميادين الحياة المادية في هذه الدنيا، تحمل معها الفكر والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والأدب[1]. ولذلك لا نستطيع أن نحدد موقف الأدب الإسلامي وحده من الحداثة، فلعله من الأصح أن نحدد موقف الإسلام منها. وإذا أخذنا الميدان الأدبي للحداثة نجد أنه يتعذر فصله عن التصور العام الذي تحمله الحداثة في الفكر والفلسفة وسائر الميادين، ولا نستطيع كذلك أن نفصل عطاءها الادبي أبداً عن جذور نشأتها وتكوينها. وبغير هذا الارتباط يضطرب التحديد والموقف والرأي. وقد نبتعد عن دقة العدالة في الحكم. وبصورة عامة فإن الحركات الأدبية في أوروبا ارتبطت بالفلسفة والفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد وسائر ميادين الحياة على تفاوت في شدة الارتباط. وفي جميع

---

(١) مالكولم برادي، جيمس ماكفلرن وكتاب آخرون - «الحداثة ١٨٩٠ - ١٩٣٠» ترجمة مؤيد حسن فوزي دار المأمون للترجمة والنشر - ١٩٨٧ - (ص: ٣٤، ٣٨).

الحالات كان للأدب دائما جذوره الفكرية والفلسفية.

إن «الحداثة» تمتد في دلالتها حتى لاتكاد تجد لها حدوداً. وهذا التصور ضروري حتى نحاول بلوغ نتيجة في تحديد موقف أو تقديم رأي.[1] لانريد في هذه اللحظة ان نستعرض التعريفات المختلفة المتضاربة للحداثة، فهذا سينكشف بعضه من خلال الدراسة. ولكننا نحب أن نورد نماذج من التعريفات التي تعين على أن نتبين ما يريده رجال الحداثة أنفسهم من امتداد الدلالة وحدوده. ويجب أن نوضح كذلك أن الحداثة لفظة عامة يندرج تحتها أسماء شتى ومصطلحات متعددة لحركات حداثية متنوعة ومذاهب متباينة، كالرمزية والتعبيرية والبنيوية وغيرها. فعن البنيوية، ولعلها الصورة «الحداثية» للحداثة يقول الدكتور كمال أبو ديب في كتابة «جدلية الخفاء والتجلي»: «ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود» ثم يقول: «ولأنها كذلك تصبح ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه ـ كما يعبر روجية غارودي ـ أصبح محالا أن نرى كرسياً كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو. ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الانسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية». ثم يقول: «وبهذا التصور أيضاً، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه رفضي نقضي»[2] ارتباط واضح بالتصور المادي تشير إليه الثنائيات الضدية والعلاقات بين

---

(١) عوض بن محمد القرني ـ الحداثة في ميزان الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م دار هجر ـ القاهرة ـ (ص: ٤٧ ـ ٦٥).

د. عدنان علي رضا النحوي ـ الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤١٠هـ ١٩٨٩م ـ دار النحوي للنشر والتوزيع (ص: ١٢٩ ـ ١٣٢).

(٢) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٣) سنة ١٩٨٤م. (ص: ١٢).

العلامات لا العلامات نفسها.

ثم ينقلنا كمال أبو ديب إلى عالم الغموض والحيرة والشك من خلال تعريفه للحداثة. فاسمعه يقول: «الحداثة إذن هي وعي الزمن بوصفه حركة تغيير.. والحداثة اختراق لهذا السلام مع النفس ومع العالم، وطرح للأسئلة القلقة التي لاتطمح إلى الحصول على إجابات نهائية، بقدر مايفتنها قلق التساؤل وحمى البحث. الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوتر. إنها حمى الانفتاح!».

لاننكر براعة اختيار الألفاظ واحتمال تأثيرها الغامض في بعض النفوس. ولكنها تعبيرات عائمة لاتجد معها غناء أبداً إلا الطنين! وهي تعبيرات تكشف عن نفسية قائلها وعن فكره: فتنة، قلق، حمى، توتر... الخ، ثم جرثومة. ولعل أدق كلمتين قالهما هنا كمال أبوديب عن الحداثة هما: «يفتنها» «جرثومة». نعم إنها فتنة للنفوس التي أظلمت بالشرك، وإنها جرثومة حقاً، وحمى مرضية حقاً. اعتراف من كمال أبو ديب حتى نقطع به المراء والجدل.

ويقول «كمال أبو ديب» أيضاً: «الحداثة انقطاع معرفي ذلك أن مصادرها المعرفية لاتكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتية، والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع، لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقاً لواقع جديد..»[1] وهذا كلام كمال أبو ديب المنشور في مجلة الفصول وليس استنتاجاً من أحد.

وعلى خطورة هذا الكلام وشدة ضلاله وبعده عن الحق، فإننا نسرع هنا لننقضه برده إلى منهاج الله الذي هو ميزاننا الذي نزن به الفكر والناس. فإذا كانت الحداثة انقطاعاً معرفياً، ففي الإسلام اتصال معرفي، اتصال الأزمان والأجيال، واتصال الشعوب،

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٧).

واتصال الأرحام، واتصال أمة الإسلام أمة واحدة مدى الدهر.

ومصادر المعرفة في نظر الإسلام تبتدئ حين علَّم الله سبحانه وتعالى آدم الاسماء كلها، وحين أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم: ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ [1] ثم تمتد المعرفة في حياة الإنسان بالوحي المتنزل على الانبياء والمرسلين الذين ختموا بمحمد ﷺ، فأنزل الله عليه القرآن مهيمناً على ماقبله من الكتب المنزلة. وهذا العلم الحق ظل يرعى جهد الإنسان المؤمن وهو يضرب في الآفاق في الحياة الدنيا، يتدبر آيات الله وسننه علماً نامياً وجهداً متطوراً، في افاق الكون وفي نفسه، وفي حياة الإنسان والمجتمعات، ومسيرة البشرية خلال أزمان غابرة طويلة بعيدة في قلب التاريخ، وحاضر تموج فيه الآيات البينات، ومستقبل يسعى إليه جهاداً في سبيل الله. فالله سبحانه وتعالى لايليق بجلاله أن نقول إنه مركز الوجود أو ليس مركز الوجود، إنه سبحانه وتعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن**﴾، ﴿**وهو الخلاق العليم**﴾، خلق كل شيء، ﴿ **وهو على كل شيء قدير**﴾، له الأسماء الحسنى كلها، ﴿ **وله الحمد في الاولى والآخرة**﴾، ﴿**وهو العلي العظيم**﴾ .

ألفاظ طنانة يسوقها كمال أبو ديب، لايعرف هو معناها، ولاهي تحمل أي معنى محدد: اللغة البكر! الإنسان مركز الوجود، الشعب مدار النشاط الفني، وغير ذلك. ماذا تعني هذه الكلمات؟! لقد نسي كمال أبو ديب عهده مع الله، عهده الذى أشهده الله عليه ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . .**﴾ لقد نسي عهده وشهادته وأصبح من الغافلين كما سماهم الله: ﴿. . . . **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . .**﴾ والفكر العلماني ما هو؟ إلاَّ أن يكون فكر الضياع والظلمات، فكر الحمّى والقلق، إلا أن يكون جرثومة تفتك بالبشرية حين تضل عن الحق! .

وتقول خالدة سعيد: . . . . «غير أن الحداثة أكثر من التجديد» ثم تقول: «ترتبط الحداثة بصورة عامة بالانزياح المتسارع في المعارف وأنماط العلاقات والإنتاج على نحو

---

(١) الاعراف: ١٧٢.

يستتبع صراعاً مع المعتقدات، أي المعارف القديمة التي تحولت بفعل ثباتها إلى معتقدات»[1] ثم تقول عن جبران مؤيدة له: «يجعل جبران الإنسان مصدراً للمعايير بدلاً من أن يكون خاضعاً لمعايير من الخارج.... كان (جبران) يستعيد للإنسان صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع وكشف الحقائق»[2]

ويورد محمد برادة في مقالته «اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة» نصاً عن «جان بودريار»: «ليست الحداثة مفهوماً سوسيولوجياً أو سياسياً أو تاريخياً يحصر المعنى وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقيد»[3] ويورد فيها كذلك التمييز - كما فعل «هنري لوفيفر» بين العصرية (Modernism) والحداثة (Modernite) فالعصرية هي الوعي الذي تكونه عن نفسها العصور والحقب والأجيال المتتالية..» بينما الحداثة: «تفكير بادىء وتخطيط أولي... إنها محاولة للمعرفة... إن الحداثة تختلف عن العصرية مثلما يختلف تفكير ما عن الوقائع»[4] ونلاحظ هنا تعارض ترجمة المصطلح مع غيره واختلاف المفهوم أيضا.

هذه تعريفات سريعة ولكنها تبين لنا امتداد الحداثة والعصرية. وتبين كذلك اضطراب الدلالة والمفهوم. ففي قول هي نظرة جديدة للكون كله من إنسان وثقافة وطبيعة، تنسف الرؤية السابقة للكون كلها. وفي قول آخر هي اكثر من التجديد، هي صراع مع المعتقدات، وهي كسر للشرائع، وهي إعطاء الإنسان، لا سواه الحق في وضع المعايير. وفي قول آخر هي صيغة للحضارة، هي وعي للزمن، هي محاولة للمعرفة. ولولا ضيق المجال لأوردنا نماذج أخرى من التعريفات تكشف لنا اتساع الامتداد والتناقض والاضطراب. ولكن عسى أن يكون في هذا القدر وضوح وبيان لما نهدف إليه هنا.

---

(١) د. كمال أبو ديب - جدلية الخفاء والتجلي - الطبعة الثالثة ١٩٨٤م - دار العلم للملايين بيروت - (ص: ٧ - ٨).

(٢) مجلة الفصول. مجلد (٤). عدد (٣). سنة ١٩٨٤م. (ص: ٢٥، ٣٦).

(٣) المصدر السابق. (ص: ١٢).

(٤) المصدر السابق: (ص: ١٣).

يتساءل Anthony Giddens في كتابه The Consequences of Modernity «نتائج الحداثة» فيقول: ماهي الحداثة Modernity ثم يضيف: «لعلنا نستطيع أن ندرك محتواها حين نقول إن الحداثة تشير إلى صيغ وأشكال اجتماعية أو تنظيمات ومؤسسات، برزت في أوروبا بحدود القرن السابع عشر وامتدت بعده، حتى أصبحت منتشرة عالمياً في تأثيرها. إن هذا التعريف يربط الحداثة بزمن ومكان ولكن يحتفظ بخصائصها مخزونة في صندوقها الأسود»(١)

إن هذا التعريف يربط الحداثة (Modernity) بالمجتمع ومؤسساته. ولكنه يعطي معالم لمظاهر الانقطاع التي تفصل المؤسسات الاجتماعية الحديثة عن النظم الإجتماعية القديمة. ثم يبين «جيدينز» في كتابة المذكور ثلاث معالم لحركة الحداثة: الخطوة الفاصلة للتغيير وسرعتها، مدى التغيير، الطبيعة الذاتية الجوهرية للمؤسسات الحديثة (٢) ويشير «جدينز Giddens » كذلك إلى مابعد الحداثة Post Modernity وكيف أصبح هذا المقطع Post مرتبطاً مع كلمات كثيرة مثل: Post Industrial Society و Post Modernism و Post Capitalism ..... الخ، لتشير هذه التعبيرات إلى حركة الانتقال الواضحة والتحولات التي تشعرك كأنك على أبواب عهد جديد في القرن العشرين. إن هذه التحولات والتناقضات تقوم أو تتركز على معطيات الفلسفة وعلم المعرفة Epistemology وهذه هي رؤية «جان فرانسوا ليونارد Jean-Francois Leonard الذي كان اول من أشاع مصطلح «مابعد الحداثة» ويعيد «جدينز» جذور هذه الحداثة إلى «ماركس» و«دوركهايم» و«ويبر»، كما يفعل «جون ف. رندل John F. Rundell » في كتابه «جذور الحداثة» حيث يعيدها «رندل» إلى «كانت» و«هجيل» و«ماركس»، كما سنرى بعد قليل. أما «هنري سوسمان Henry Sussman » في كتابه After images of modernity الصور البعدية للحداثة» فإنه يورد تعريف الحداثة كما يراها فريدريك نيتشه Friedrich Nietzche وكما نقله عنه بول دومان Paul de Man حيث يقول: «إن

---

(١) ص: ١ Anthony Giddens - The Concequences of Modernity Stanford University Press - Stanford - California - 1990

(٢) ص: ٦ Anthony Giddens - The Concequences of Modernity Stanford University Press - California 1990

الحداثة اليوم توجد على صورة رغبة في مسح كل شيء وصل من الماضي، على أمل أن تجد في النهاية لحظة تعتبرها الحاضر الحقيقي أو نقطة الأصل، لتنطلق منها من جديد. . .»[1]

فالحداثة، في جميع الحالات إذن مسح وإلغاء للماضي كله، لكل شيء فيه ووصل منه. ولندرك أهمية هذا التصور وخطورته نورد تعريفاً آخر للدكتور «كمال أبو ديب» يزيد الصورة في أذهاننا وضوحاً، ويبين لنا ارتباط الحداثة في بلادنا بالحداثة الأوربية، وبجذورها. يقول كمال أبـو ديب: «الحداثة انقطاع معرفي ذلك أن مصادرها المعرفية لاتكمن في المصادر المعـرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتيه، والفكر الديني وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعـالم الخارجي. الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر والفكر العلماني (اللاديني)، و كون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينيَّة - إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقاً لواقع جديد. . . .»[2]

إذن «الحداثة» هي مسح للماضي كله في جرأة تجاوزت جرأة الكتاب الأوروبيين. وهي إلغـاء للفكـر الـديني والتراث والمؤسسات الإيمانية، وإعلان لما يسميه خطأ «بالعلمانية» وهكذا تأخذ ملامح الحداثة تتضح شيئاً فشيئاً. وهنا يبرز الخلاف الرئيس الذي سنشير إليه في فصل مقبل حول مصادر المعرفة للإنسان.

ويتحـدث صالـح جواد طعمة في مقالته: «الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحـداثـة» في مجلة الفصـول عن مفهوم الحداثة، ثم يعدد خصائصها بالنقاط التالية: «الرؤية أي النظرة للعالم والحياة، التأكيد على الذات حيث تجسد الحداثة الداخل، والزمن الأفقي اللامعاد، أو الأفقي والعمودي، على وجهتي نظر واحدة «لكالنسكو» والأخرى لجبرا، والغموض ويقول: «إن الحداثة الغربية في جوهرها تعكس معارضة جدلية ثلاثية الأبعاد:

---

(١) Henry Sussman - Afterimages of Modernity - Structure and Indifference in Twentieth Century Litrature The Johns Hopkins University press – 1990 (ص: ٢٦)

(٢) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٣). (ص: ٣٧).

معارضة للتراث ، معارضة للثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانية والنفعية، وتصورها لفكرة التقدم، ومعارضتها لذاتها كتقليد أو شكل من أشكال السلطة أو الهيمنة. اي أنها لاتمثل انفصالاً عن الماضي ورفضاً لمقاييسه الثابتة أو ثورة على القيم البورجوازية السائدة فحسب، بل ثورة دائمة أبدية في تطلعها المستمر إلى قيم جديدة، واشكال أو أساليب تعبيرية جديدة. ومعضلتها تتجسد كما يقول «هاو» في أن عليها أن تكافح دائما دون أن تنتصر، إذ أن انتصارها معناه أن تفقد سمة الحداثة . . . »[1]

إذن هنالك صفات مجمع عليها بين حداثيي الغرب وحداثيِ بلادنا، أو أن حداثي العالم العربي كانوا ناقلين جيدين لحداثة الغرب بجذورها وفروعها.

انفصال عن الماضي، محاربة للتراث كله، لادينية واضحة، غموض، قلق، وشك وحيرة. فاسمع كمال أبوديب يؤكد هذه الصورة وهو يخترق السلام ويلعن الحرب: «الحداثة إذن وعي الزمن بصفته حركة تغيير. . . . ! والحداثة اختراق لهذا السلام مع النفس .. العالم، وطرح للاسئلة القلقة التي لاتطمح الى الحصول على إجابات نهائية ، بقدر مايفتنها قلق التساؤل وحمى البحث. الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوتر. إنها حمى الانفتاح».[2]

هنا صورة جديدة مع طنين الألفاظ وغياب المحتوى وضباب الغموض: الحداثة فتنة، جرثومة، حمى، قلق، تساؤل. . . . ! إن طنين الألفاظ وضباب الغموض قد يؤثر في بعض النفوس حتى تحسب أنها حصلت على شيء. ثم تكتشف أنها تعبيرات عائمة لاغناء فيها، إلا أنها واضحة وصريحة في حربها على الماضي والتراث كله، وصريحة في امتداد دلالتها .

أما «مالكولم برادبري» في كتاب «الحداثة» فيرى : «أن الحداثة في الثمانينات من القرن التاسع عشر تعنى الإيمان الراسخ بالتطور الاجتماعي . . . والتنكر للتقاليد الماضية. . . . . »[3]

---

(١) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٤). (ص: ١٤).

(٢) المصدر السابق. العدد (٣). (ص: ٣٥).

(٣) مالكوم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة ـ (ص: ٤٢).

وسنرى في الفصل المقبل، ونحن نعرض جذور الحداثة، مدى الاختلاف في دلالة اللفظة عند «جون. إف. رندل» وهو يعود بها إلى «كانت» و«هيجل» و«ماركس» في كتابة Origin of Modernity الذي سبق أن ذكرناه قبل صفحات. وسنرى من خلال ذلك شدة الانحراف عن التصور الإيماني.

أما في ميدان الأدب فإن «لويس ميناند Louis Menand في كتابه الذي ذكرناه قبل قليل «اكتشاف الحداثة Discovering Modernism يحاول أن يعطي للحداثة معنى جديداً وقيماً جديدة. إنه يقول: «يمكن أن نفهم الحداثة من بعض الوجوه بأنها محاولة استخدام المصطلحات التي تعرف الأدب وتختص به لنعممها على الأساليب المتغيرة المتحولة التي تستخدم في وزن القيم الاجتماعية وفي تحديد قيمة الأعمال المختلفة، دون أن نفقد بهذا العمل ماتمتع به الأدب كساحة تقليدية للنشاط»[1]

لقد احتاط «ميناند» حين قال: «من بعض الوجوه». ذلك لأن وجهة نظره لاتصح من وجوه أخرى، وهو يحاول أن يربط الأدب بسائر أنشطة الإنسان من خلال استخدام «التعبيرات الأدبية أو المعجم الأدبي Vocabulary أما أن لانفقد ماتمتع به الأدب في ميدانه التقليدي، فقد حالت دون ذلك الحركات الحداثية كلها من خلال ثورتها على القديم كله والتراث كله، كما سنعرض بعد قليل.

ويقول «ميناند» كذلك: «لقد اعتاد بعض الناس أن يتناول الحداثة على أساس نظرية شكلانية Formalist يمكن تفسير ملامحها الرئيسة على انها ردود فعل للحياة العصرية أكثر مما هي انعكاس لها»[2]

ومع أن ميناند لايوافق كثيراً على هذا الرأي، إلا أن الحركة الشكلانية حركة حقيقية تمثل إحدى حركات الحداثة، وأما أنها ردود فعل، فقد كانت كل حركة من حركات الحداثة التي سنذكرها بعد قليل تمثل حقيقة رد فعل للحركة السابقة، دون أن يعني رد الفعل أن الماضي لايَتْرُك أثراً في الحاضر، ولايكون سبباً للكثير من مظاهره. فالأجيال والعصور

---

(١) كتاب «Discovering Modernism» (ص: ٧).

(٢) المرجع السابق. (ص: ٨).

متواصلة على سنن ربانية لايمكن عزل بعضها عن بعض، ولكن ردود الفعل كذلك هي أحد مظاهر هذه السنن.

وحين حاول «ميناند» أن يكوِّن رأياً عن الحداثة، لم ينصف في دراسته حين حصرها أو جعل محورها «إليوت» معطلاً بذلك حجماً كبيراً من إنتاج الحداثة قبل إليوت وبعده. وردود الفعل التي يحاول ميناند إنكارها لاتظهر من خلال دراسة فرد واحد وفترة محدودة .

ويشير «ميناند» إلى ماشاع من سخريات لاذعة حول الحداثة، فيقول: «من خلال انتشار الأفكار الجديدة والمبادىء المتلاحقة مع الفترة الأولى للحداثة كانت تظهر بعض السخريات اللاذعة عن الحداثة وثقافتها، كأن يقال إن الحداثي يخترع لنفسه تقاليد خاصة تبعده عن مجتمعه وتقاليده التي كانت بدورها قد اخترعت لنفس السبب قبل عشر أو عشرين من السنين» (١)

وحتى نستكمل الصورة عن اضطراب معنى الحداثة وتناقضها وغموضها نرى أن نورد بعض التعريفات الأخرى لعدد من الكتاب والمفكرين والحداثيين. يقول «هربرت ريد» في كتابة «الفنّ الأن»: «إننا نلمس الآن ابتعاداً عن كل أنواع التراث. ولايمكن أن ندعو هذا الاتجاه بالتطور المنطقي لفن الرسم في أوروبا، لأنه ليس هناك مايوازيه تاريخياً. لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفني» (٢).

ويقول «فلوبير»: «كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتاباً جميلاً حول لا شيء، وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية» (٣)

نلاحظ هنا مدى التعارض بين هذا التصور للفن أو الأدب وبين التصور الذي عرضناه «لميناند» قبل قليل. فهنا تأكيد للانفصال عن الماضي وعن التراث. ولكن «جوس أورتيكا كاسيت» يكشف لنا عن الصورة المظلمة لهذا الانفصال ولتلك الحرب. فيقول في كتابه «النزعة اللاإنسانية في الفن» : «إن الحداثة هدم تقدمي لكل القيم الإنسانية التي كانت

---

(١) المرجع السابق. (ص: ١٣٢).

(٢) كتاب الحداثة لمالكولم برادبري وجيمس ماكفلرن. (ص: ٢٠).

(٣) المرجع السابق. (ص: ٢٥).

سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي. وإنها لاتعيد صياغة الشكل فقط بل تأخذ الفن إلى ظلمات الفوضى واليأس». [1] كلمات لاتحتاج إلى أي تعليق.

ويُعرف رولان بارت (١٩١٥م - ١٩٨١م) الحداثة «بأنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه».

وقائل يقول عن الحداثة إنها فن التحديث. وآخر يقول إنها فن الابتعاد الصارم عن المجتمع. وآخر يقول «إنها فن اللافن، كما يقول التعبيريون، الفن الذي يحطم الأطر التقليدية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لايحدها حد» [2].

وسنذكر في الفصل المقبل كيف أن أفكار «كانت» تمثل انفلات الأهواء والشهوات فجاء هنا التعريف للتعبيرين يؤكد هذه الصورة. ويزداد التأكيد بقولهم: «الفوضوية التي لايحدها حد» لتذكرنا بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٣)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٢٣)

«وكوتغريد بن» يسمي الحداثة «تكافو الضّديّن. فهي تحمل مساراً مزدوجا لأنواع كثيرة من التناقض». ويقول آخر «بأنها شغف بالمجهول يؤدي إلى تحطيم الواقع».

صور متتالية تؤكد معنى الغموض والتناقض والتضارب. ومهما حاولنا أن نخفف نحن من أثر هذا التصور، كما حاول «لويس ميناند» فإن رجال الحداثة يصرّون على تعميق هذا التصور والمعنى، الغموض والتناقض والاضطراب.

---

(١) المرجع السابق: (ص: ٢٦) ومحاضرة الدكتور محمد مصطفى هدارة في مؤسسة الملك فيصل الخيرية «الحداثة والتراث».

(٢) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني» للمؤلف.

ولقد رأينا جرأة من خالدة سعيد وهي تعلن رأيها بهذا الوضوح والحسم، لتعلن هي الصراع مع المعتقدات والمعارف القديمة، ولتعلن هي نفسها صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع. وخالدة سعيد هي زوجة «أدونيس» وكذلك كان سائر أبناء الحداثة ودعاتها.

الأدب قوة ضاربـة حقيقية. يمكن أن تتحول إلى قوة نارية تهاجم كل قديم. ونهج بعض الحـداثيين هذا النهـج لينطلقوا من الأدب، ثم يهاجموا كل ماكان يعتبر تقليدياً، يهاجمون المعتقدات والمؤسسات ويهاجمون اللغة والدين، ليهدموه، منطلقين من كوابيس المخـدرات والجنس في الشعر والرواية والسلوك الواقعي، ثم ينطلق أدب «اللامعقول» و«الـلاتخـطيط»، و«اللارواية»، و«اللاشعر» و«اللافن»، لينقل الإنسان إلى عالم مجهول مظلم، إلى عالم الشر. ألم ينطلق «بودلير» من أحضان «سارة» الزنجية ومن مرتع المخدرات والخمور لينفث شعره الشيطاني في ديوانه أزهار الشر؟! ألم يكن هو وجماعته في أول ظهورهم يسمون «بالمنحطين»؟! ذلك لشدة انحطاط الفكر والصورة والسلوك كما ظهرت يومها في فرنسا.

وتورد «هدى وصفي» في كلمتها : «حداثة الميلودراما» في مجلة الفصول تعريفاً أوردته الموسوعة العالمية الفرنسية تحت عنوان « الحداثة في العالم الثالث» ، فتقول، «إن الحداثة جدلية انفصال تتراجع امام دينامية دمج» وفي مكان آخر منها نقرأ: «إن الحداثة إجراء إيدلوجي موسع» أو أنها ـ أي الحداثة ـ «متناقضة وليست جدلية . . »

حيرة في التعريف، والفهم، وضباب كثيف يحجب الرؤية ويمد الظلام.

هذا الاختلاف الواسع في تعريف الحداثة عند رجالها في العالم الغربي وفي عالمنا العربي يوضح لنا طرفاً من خصائص الحداثة لتكون أساساً يساعد في تقويمها. ويمكن ان نوجز أهم الخصائص التي تكشفت لنا بالعرض السابق بما يلي:

١ـ الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته وفي تعريف الحداثة ذاتها.

٢ـ الغموض في الألفاظ والمعاني، واستخدام الألفاظ الطنانة التي لاتحمل معها شيئاً حين تتدبرها، والضبابية، والحيرة والقلق والحمى.

٣ـ الانقطاع عن الماضي والتراث ومحاربته.

٤ـ محاربة التصور الإيماني وقواعد التوحيد.
٥ـ صراع مع المعتقدات القديمة كلها والمعارف كلها.
٦ـ كسر الشرائع.

هذه الخصائص ليست اتهاماً نفتريه على الحداثة، ولكنها نصوص ثابتة تبناها رجال الحداثة كما رأينا، وكما سنرى في الفصول المقبلة.

فإذا كان هذا هو امتداد مصطلح الحداثة، وهذه بعض دلالاتها، فمن أين نشأت هذه المفاهيم، وكيف تولدت ونمت؟! إنها لم تكن حركة مفاجئة، ولكنها جاءت نتيجة لحركات سابقة وأوضاع متلاحقة، كل حركة تمهد للحركة التالية لها، على سنن الله ماضية وقدر غالب. جاءت هذه الخصائص بما كسبت أيدي الناس، من جذور تاريخية ممتدة في حياة الإنسان، وفي تاريخ أوروبا بالذات. فلابدّ إذن أن نتتبع هذه الجذور، لندرك حقيقة هذه التصورات وعلاقتها بالإنسان، حتى نستطيع أن نحدد موقفاً أمينا للأدب الإسلامي منها، وحتى نستطيع تقويمها.

ولتسهيل البحث فسنستخدم كلمة «الحداثة» في دراستنا لكلا المصطلحين Medernism وModernity وإن احتجنا إلى التفرقة بينهما فسنلحق لفظة أخرى لتعين على تحديد المقصد.




الفصل الثالث

جذور الحداثــة في تاريخ الإنسان

متى بدأت الحـداثـة؟ اختلف في ذلك. فمنهم من اعتبر بدايتها في القرن السادس عشر، ومنهم من اعتـبرها في القرن التاسع عشر على أقوال مختلفة، ومنهم من رأى أنها ابتدأت مع القرن العشرين. وكان من أسباب هذا الاختلاف اختلاف المفهوم للحداثة والعصرية ومـايقصد منها. ولكننا نعتبر أن هذه الفترات لاتمثل إلا «الحداثة» الحديثة، ونعتقد أن الحداثة ببعض مفهوماتها التي سبقت الإشارة إليها قديمة في تاريخ الإنسان .

فَـ «جون . إف. رندل John F. Rundell » في كتابه عن الحداثة :

« Origins of Modernity, the origins of modern social theory from kant to hegel to Marx » يعيد جذور الحداثة إلى هؤلاء الثلاثة «كانت» و «هيجل» و «ماركس». إنه يقول : «ليست الحداثة (Modernity) مجرد وجود تاريخي أو شيء يوفر الستارة الخلفية للمسرح لتاريخ الأفكار. ولكنها تأسيس للعلاقات الاجتماعية من خلال رأيين أو معنين»[1] ثم يبين «رندل» هذين الرأيين، بأن أحدهما مرتبط بالمؤسسات والنماذج التي يقيمها الاجتماعيون، والثاني مرتبط بسلسلة تبين كيف بنيت هذه النماذج. ويبين أن هذه النماذج تتطور من خلال الإصلاحات المميزة لحركة التنوير الفلسفية، على أساس العقلانية والحرية. ويورد رأي «إمـانيويل كانت» (١٧٢٤م - ١٨٠٤م) حول جذور هذا التصـور: «التنـوير هو تحرر

(1) John Frundell – Origins Of Modernity, The Origins of Modern Social Theory From Kant To Hegel To marx – Politv press – Cambridge – 1989 (ص : ١ ، ٢)

الإنسان من الوصاية القائمة بداخله. إن هذه الوصايا تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من غيره. والإنسان لم ترشده الغريزة ولم تغذه المعلومات الجاهزة. وإنما عليه هو أن يوفر كل شيء: مأواه وطعامه ودفاعه ومايلهو به ومايجعل الحياة ممتعة له، وعليه أن يؤمن هو نفسه البصيرة والذكاء، وأخيراً طيبة القلب».[1] انحراف واضح عن التصور الإيماني والتوحيد، دفع إلى ظلمة شديدة سموها «عصر التنوير» ظلماً وجهلاً.

ويقول «رندل»: «يمكن أن نفهم الحداثة Modernity على أنها عملية تجميع وتفاضل اجتماعي وثقافي، تدفعها سلسلة من الأحداث، وسلسلة من حركاتها ومنطقتها. وتشمل هذه الأحداث والحركات حركة التصنيع، وحركة استقلال الفن، وحركة التحول الديمقراطي، في ظل التحول الرأسمالي والمنازعات والمداولات الدائرة حول سيادة المجتمع على الدولة وسيادة الأشخاص واستقلالهم».[2] ثم يقول «وهذا الفهم للحداثة يرتبط بالقضية الأوسع، قضية فلسفة علم الإنسان وأصله - «الأنثروبولوجي - Anthropology» ومع امتداد الاتجاه العقلاني والثقافي الواسع، امتداداً ضم النهضة وعهد الإصلاح وعهد التنوير، فقد أخذت فلسفة علم الإنسان تعاد صياغتها لتدل على العلاقة الحديثة بين الإنسان، أو «الموضوع الإنساني»، وبين عالمه الخاص به، ليصبح هذا «الموضوع الإنساني» ذاتي التعريف مستغنياً عن مصادر خارجية عنه وعن علاقات معها، بينما كانت الرؤية السابقة تربط هذا «الموضوع الإنساني Human subject وتعرفه عن طريق علاقته بالنظام الكوني كله».[3] ومن هنا نرى كيف أن كلا النظريتين لم تكن تهتدي بنور الإيمان ورسالة التوحيد.

وهكذا يعود «رندل» بجذور الحداثة إلى عهد التنوير، وإلى عهد الإصلاح قبله وعهد النهضة قبل ذلك. لقد كان محور تفكير «كانت» و«هيجل» و«ماركس» يدور حول «الحرية»

---

(١) المرجع السابق.(ص: ١٦).

(٢) (ص: ٢) Origins Of Modernity

(٣) المرجع السابق. (ص:٣).

و «العقلانية» حسب مفهوم كل منهم لها. لقد أقام «كانت» عالمين للعقل: العقل المطلق « Pure reason » والعقل العملي الواقعي« Practical reason » واعتمدت فلسفة «كانت» التصور الذي يرى أن معرفة الحقيقة تتم بالفكر لا بالتجربة، أي على أساس «الفلسفة الفكرية المتعالية« Transcenderntalism » بينما اعتمد هيجل علم الوجود« Ontology ».

واعتبر «هيجل» ان العقل المطلق هو الإله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، والعقل المجرد هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها. أما ماركس فقد عارض كلاً من الفلسفتين من ناحية، واستفاد منهما من ناحية أخرى، واعتمد علم الإنسان «Anthropology » ليصوغ فكره صياغة تقوم على العمل وصراع الطبقات، والإنتاج الاجتماعي ورأس المال، وليضع نظرياته «الحداثية» في النقد، وليجعل الإنسان هو الإله الجديد في فكره ونهجه.[1]

وتابع «رندل» فلسفة كل من هؤلاء الثلاثة ليرسم مسيرة تطور الحداثة ونموها من جذورها هناك. ومن خلال هذه المسيرة حتى عصر «هيجل» ظل النشاط «العقلاني» يوجه البحث عن حقيقة التصور له من خلال نظريتين أو فلسفتين: أولا: «الذاتية» Subjecti-vity » وهي إقامة المعتقدات على أساس الخبرة الذاتية، وثانياً: «الموضوعية Objectivity » وهي اعتماد الموضوعية لا الخبرة الذاتية في البحث عن الحقيقة، وفي العمل الفني والأدبي. وطُرحت «العلوم الإنسانية Anthropology » على أنها تجسيد حقيقي للعقل «reason » ونشاطه. وأخذ هذا البحث عن حقيقة العالم بذلك مسارين: مساراً يمضي به إلى القرن العشرين ويجعل اللغة مركزاً لهذه العلوم، ومساراً يعود به إلى جذوره القديمة في الوثنية اليونانية وأساطيرها، مع بقاء دور اللغة فيه أيضا.[2] وفي جميع هذه الحالات كانت النظرة بعيدة عن التصور الإيماني والتوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى. ولكنها كانت تربط المسارين السابقين لتجعل الجذور ممتدة في التاريخ. ومن السهل أن نلمس امتداد أثر

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٩، ١٠)، (ص: ١٦٧ ـ ١٨٩) محمد قطب ـ مذاهب فكرية معاصرة الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. ـ دار الشروق ـ القاهرة وبيروت (ص: ٩٣ ـ ١١٨).

(٢) Origins Of Modernity (ص: ٨).

الفكر اليوناني ووثنيته وأدبه على مسار الفكر الأوروبي والغربي عامة. فالمذهب الاسمي Nominalism نستطيع أن نتتبع جذوره وامتداده ابتداء من الفيلسوف اليوناني «أنستنتينس» (٤٤٤ق. م - ٣٦٨ق. م). ثمَّ امتدَّ بعد ذلك إلى القرون الوسطى عند، «روسيلينوس فون كومبين» (١٠٥٠م - ١١٢٠م)، وعند الانجليزي أوكام (١٢٧٠م - ١٣٤٧م) بعد ذلك، حتى جاء «إمانيويل كانت» (١٧٢٤م - ١٨٠٤م) في عصر «التنوير»، فأبرز هذا المعنى حتى امتدت آثاره إلى يومنا هذا. ومحور المذهب الاسمي يقوم على الثورة على الدين المتوارث، واعتبار العبارات والأسماء العامة لاتحمل مدلولاتها الواقعية خلافا للأسماء الدالة على الأفراد والأعلام الشخصية، واعتماد التجربة الحسية والنفسية وليس مايسمى بما وراء الطبيعة. وكان المذهب الاسمي ممهداً للمذهب «التجريبي Empericism » بجذوره إلى اليوناني «بروتاجوراس» (٤٨٠ ق. م - ٤١٥ ق. م)، ليمتد بعد ذلك إلى القرن السابع عشر عند الفرنسي «بيتر بيلي Pietre Bayle » (١٦٧٧م - ١٧٠٦م) حتى ينهض به «أوجست كومت August Comte » (١٧٩٨م - ١٨٥٧م) مؤسس الفلسفة الوضعية Positivity التي استخلصها من المذهب التجريبي. [1] ثم يمتد هذا المذهب إلى «لودفيج فيورباخ Ludweg Feuerbach » (١٨٠٤م - ١٨٧٢م)، الذي انتقل بفلسفته إلى أشد الصور إلحاداً، انتقل من فكرة الألوهية، إلى العقل، إلى الإنسان. وهذا التصور الأخير، وهو اعتبار الإنسان مركز الوجود، هو التصور الذي رددته الحداثة في واقعنا المعاصر على لسان عدد غير قليل من دعاتها، كما مر معنا في الصفحات السابقة، عند كمال أبو ديب وغيره. إنه قاعدة التصور المسمى خطأ اليوم «العلماني» وتسميته الأصح «اللاديني Sec-ulatism » وعلى هذا التصور الممتد، حسب مايذكر التاريخ، منذ أيام اليونان على الأقل حتى «لودفيج فيورباخ»، قام فكر «كارل ماركس» ومعه «فردريك انجلز» ليضعا النظرية المادية الجدلية والتاريخية. وحتى هذه الفكرة التي هبط بها «ماركس» و«انجلز» إلى

---

(١) الدكتور محمد البهي - الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - الطبعة التاسعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م. إصدار مكتبة وهبة. (ص: ٢٣-٣٢٥).

الحضيض نجدها في جذورها عند اليونانيين : «ديمقريط» و«أبيقور» حيث يقولان «إن هذا العالم لم يخلقه أحد»[1]

إن متابعة جذور الفكر الحداثي عند اليونانيين ينقله لنا اكثر من مصدر. يقول «جيمس ماكفلين» في كلمته «عقل الحداثة» «إذا كانت الصفة الغالبة للحداثة هي المزج وعدم التمييز بين الرفض والقبول، الحياة الموت، الرجل والمرأة، الإرهاب والسعادة، الإله والشيطان عندئذ لم تأت الحداثة بما هو جديد إلا قليلاً. إنّ فكرة التوفيق بين الأضداد قديمة قدم «هيروقليدس». يذكر «هوسر» أن فكرة التوفيق بين الأضداد جاءتنا من فلسفة «نيقولا القوصى»، ومن «جيوردانوبرنو». وقد ذكر هذا المفهوم بطرق مختلفة. . . .»[2]

هذا الخط الفكري الفلسفي على الصورة التي عرضناها، نلمسه كذلك عند عدد غير قليل من الفلاسفة الأوربيين، يعرضونه بصور مختلفة، كلها تلتقي عند نقطة واحدة هي التصور الذي اصطلح عليه بالتصور المادي. وإنا لنجده واضحاً عند عدد من الفلاسفة الفرنسيين مثل: «لاميتري» و«غولباخ» و«ديدرو». ثم جاء «لودفيج فيورباخ» ثم «ماركس». لقد كان هذا التصور المادي في التاريخ يمثل انحرافا عن الإيمان تعبر عنه المادية ونظرياتها. ولكن هذا الانحراف لم يكن هو الانحراف الوحيد عن الإيمان. فالنظرة «المثالية» كذلك تمثل انحرافاً عن الإيمان وخطأً آخر في النهج الفلسفي. لقد قامت هاتان الفلسفتان وكذلك سائر الفلسفات البشرية من خلال محاولة فهم هذا العالم كله بالجهد البشري وحده، كما رأينا فيما ساق لنا «كانت» من فلسفة يعبر بها عن عصر التنوير. وانتهت الفلسفات في خلافها وانحرافها عن الإيمان إلى الفلسفتين المادية والمثالية فأما المادية فتعتبر كل الظواهر التي نعالجها والوجود كله وجوداً خارجاً عن وعينا، منفصلا عنه، كله مادة،

---

(١) ف. كيللي، م. كوفالزون ـ ترجمة أحمد داود ـ دار الجماهير الشعبية ـ دمشق. (ص: ٢٣ ـ ٢٧) وكتاب المادية الجدلية (الدياليكتيكية) لعدد من الكتاب السوفيات ـ (ص:٣). ومحمد قطب ـ مذاهب فكرية معاصرة (ص: ٢٦ ـ ٢٨) (ص: ٤٩٥ ـ ٤٩٩).

(٢) مالكولم برادبري وجيمس ماكفرلن وتسعة أساتذة آخرين ـ الحداثة ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠ ـ ترجمة مؤيد حسن فوزي ـ الطبعة ١٩٨٧ دار المأمون. (ص: ٨٦).

لم يخلقه أحد. والطبيعة موجودة أزليا ولا وجود لقوى خارقة للطبيعة خارج هذا العالم المادي. وهي تعتبر الوجود المادي هو الأسبق والأول، ثم تلا ذلك الوعي والعقل والفكرة. فالمادة في هذه الفلسفة هي التي تحدد الفكر والوعي والعقل. وهذا الفكر والوعي والعقل هو الذي تسميه هذه الفلسفة «بالروح». [1].

وأما الفلسفة المثالية فترى ان «الروح» أي «العقل والفكر والوعي»، هي الأسبق في الوجود، وأنها وجدت قبل الطبيعة. [2] وفي كلا الفلسفتين اشتراك في فهم خاطىء للروح، واشتراك في فرضية ابتدعوها من عند أنفسهم لم يقم عليها برهان. فاضطربت الفلسفتان، وتناقضت كل واحدة منها. وظهر خلاف آخر بين الفلسفتين هو مصدر المعرفة. فالمادية تعتبر المادة وحدها هي مصدر المعرفة. والمثالية يعتبر بعض فلاسفتها أن مصدر المعرفة هو العالم الآخر المثالي، فعلى الإنسان أن يتذكر ماكانت عليه روحه في عالم المثل. وجذور هذا التصور هي الوثنية اليونانية، وربما قبل ذلك كما سنرى. أما هيجل فقد اعتبر أن المعرفة هي معرفة الفكر المطلقة، ليمثل صورة من الفكر المثالي. [3]

والفلسفة المثالية قسمان: المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية.

فالفلسفة المثالية الذاتية تعترف بأولوية الوعي الإنساني، وتعتبر الأشياء نتاجاً للإحساسات والأفكار. والفلسفة المثالية الموضوعية تعترف بأولوية الروح والفكرة الموجودين خارج الإنسان ومستقلين عنه. والموضوعيون، إذ يعترفون بوجود قوانين للعالم، يبحثون عن مصدر هذه القوانين في «العقل الشامل» وفي «الفكرة المطلقة»، و«الإرادة المطلقة».

والمعرفة لدى الفلسفة المادية مصدرها المادة فحسب. فالعالم عندهم موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الوعي، والناس جزء من الطبيعة يعكسونها في وعيهم. ومن هنا ينشأ الاعتراف بإمكانية معرفة العالم ونظامه عندهم.

أما الفلسفة المثالية فإن بعض فلاسفتها يعتبرون أن مصدر المعرفة هو «العالم الآخر

---

(١) المادية الجدلية: (ص: ١ - ٣) المادية التاريخية. (ص: ٢٥).

(٢) المادية الجدلية: (ص: ٣ - ٤).

(٣) المرجع السابق: (ص: ٦ - ٧).

المثالي» فعلى الإنسان أن يتذكر ما إذا كانت «روحه الخالدة» قد لاحظته في «عالم المثل». ومن هذا التذكر تنشأ «المعرفة المطلقة» لذاتها، تلك الفكرة التي تخلق العالم وتتعرف على ذاتها في شخص الإنسان. والفلسفة المثالية ترفض أن تعتبر العالم الموضوعي مصدر المعرفة.

وإلى جانب هاتين النظرتين إلى المعرفة ظهر فلاسفة يشكون في إمكانية معرفة العالم، أو يحاولون البرهان على عدم إمكانية معرفة العالم، ويسمون «الريبيين»[1] أو المتشككين. ومذهبهم مذهب الشك

وواضح أن هذه الفلسفات التي استعرضناها مجانبة للإيمان والتوحيد، بعيدة عن تصور الألوهية الحقة والربوبية الحقة، وعبودية الإنسان لربه وخالقه الله الواحد الذي لا إله إلا هو. ولذلك فهي بعيدة عن تصور النبوة، والدار الآخرة والموت، والملائكة والجنة والنار، والساعة والبعث والحساب. أهملت هذه الفلسفات كل هذا الحق، فتاهت في مذاهبها تتخبط في ظلام دامس.

من هذه الفلسفات والرؤية للعالم ظهرت الحداثة في تاريخ الإنسان، منطلقة في أول أمرها من محاولة البحث عن الجديد، ثم تحولت لتضم معظم ميادين النشاط الفكري، ولتأخذ الصورة التي عرضناها قبل قليل من رؤية جديدة للحياة والثقافة والإنسان: «ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود»... «ولكن كمال أبو ديب ناقض نفسه في هذا القول حين أنكر أن البنيوية فلسفة، فالفلسفة على مدار التاريخ البشري تدور الرؤية للعالم والمنهج في معاينة الوجود.

هذه هي جذور الحداثة في الفكر الإنساني كما يراها عدد من الفلاسفة، وكما تتبعناها في الصفحات السابقة. ولكننا نرى أن هذه الحركة الحداثية بخصائصها التي عرضنا بعضاً منها، هي أعمق في تاريخ الإنسان من هذا الذي عرضناه أو الذي عرضه «رندل» في كتابه «جذور الحداثة» وغيره. ليس هدفنا الرد على الفلسفة المادية والمثالية ولا على نظرتها الخاطئة للعالم وللروح، والحرية والمعرفة وغير ذلك، فهذا كله ليس مجاله هنا، ولكننا نحب أن نعرض التحليل الإيماني لجذور هذا التصور للعالم والروح، التصور الذي واكبته «الحداثة»

(١) المادية الجدلية. (ص: ٩ ـ ١٠).

في تاريخ الإنسان، ليمثل هذا التحليل الإيماني منطلق الأدب الإسلامي، كما مثل التصور السابق منطلق الأدب الحداثي، فإذا كان نهج الحداثة، حسب ادعاء رجالها، لايخرج عن البحث عن الجديد، والنمو والتطور في الجهد البشري، والنظرة الى هذا العالم، مهما اختلفت آراء دعاتها ومفكريها، فإن هذا البحث والتأمل والتفكير هو فطرة في الإنسان فطره الله عليها منذ وجد على سطح الأرض، تدفعه القوى التي أودعها الله فيه. هذه الفطرة تحمل مختلف القوى المودعة ومختلف النوازع والرغبات والشهوات والضوابط. وأهم هذه القوى والضوابط في فطرة الانسان هي الإيمان والتوحيد. وطاقة الإيمان والتوحيد ترعى فطرة الإنسان وتحفظ فيها التوزان بين القوى المختلفة والرغبات والنوازع. وكل رغبة أو شهوة مودعة في الإنسان أوجدها الله لتؤدي مهمة في الحياة الدنيا، مهمة خير وصلاح مادامت تعمل في دائرة الموازنة المتوافرة في الفطرة. فإذا اختلت هذه الموازنة، وضعف الإيمان والتوحيد، اضطربت الفطرة وانحرفت الرغبة والشهوة إلى متاهة من التفلت والضياع، لتصبح مصدر فتنة وفساد في الأرض، وليفسد الفكر والتصور، وليفسد الأدب والعطاء كله. هذه الحقيقة المطلقة الأولى التي يعرضها لنا الإسلام لتكون أساس فهمنا وتقويمنا لعطاء الإنسان وفكره وأدبه. وهي القاعدة الأولى كذلك لنهجنا في الدراسة والتحليل .

والقاعدة الثانية الهامة هي أن الناس كلهم، البشرية كلها، كانت في مرحلة من التاريخ، على دين واحد هو الإسلام، على الإيمان والتوحيد، ليرعى هذا الإيمان والتوحيد عطاء الناس وفكرهم وتصورهم للعالم والكون والحياة، وليضبط الرغبات والشهوات والنوازع، ولينطلق البحث عن الجديد والنمو والتطور من منطلق واحد هو منطلق الإيمان والتوحيد. ولحكمة أرادها الله في سننه الماضية في الكون، انحرف بعض الناس عن الإيمان والتوحيد بما كسبت أيديهم، فأصبح في الأرض فريقان: المؤمنون والكافرون والمشركون. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. منذ تلك اللحظة في تاريخ الإنسان أصبح هناك نهجان للبحث عن الجديد والنمو والتطور ورؤية العالم والكون والحياة: نهج منطلق من الإيمان يرعى الجديد والحديث والتطور والنمو، ونهج متفلت من الإيمان ينطلق منه سعي

آخر للجديد والنمو والتطور. هذه هي الحقيقة المطلقة الثانية التي يعرضها منهاج الله قرآنا وسنة. وكان نوح عليه السلام هو أول الرسل إلى الناس في تلك اللحظة من تاريخ الإنسان .

لانضع «الحداثة» حداثة اليوم هنا أو هناك. وإنما هي تضع نفسها حيث تشاء. هذان نهجان متمايزان بينهما لنا الله ورسوله، وبيّن خصائص كل نهج، بآيات بينات وأحاديث شريفة، وهذا هو ميزاننا الوحيد الذي نزن الأمور كلها به، كما أمرنا الله ورسوله، فليس لنا، ولا للمؤمنين في الأرض كلها، ولا للأدب الإسلامي ميزان آخر.

كان لابد من بيان هاتين الحقيقتين المطلقتين من كتاب الله وسنة رسوله : الفطرة وقواها ونوازعها، ودور الإيمان والتوحيد فيها في دفع عطاء الإنسان كله، أدباً أو سياسة أو اجتماعاً أو اقتصاداً، والنهجان المتمايزان في تصور الحياة والكون والإنسان، وفي النمو والتطور، وفي السعي وراء الجديد . كان لابد من بيان هاتين الحقيقتين حتى يعتدل الميزان بأيدينا ونحن نحدد موقف الأدب الإسلامي من الحداثة.

وستكون هاتان الحقيقتان المطلقتان الثابتتان في دين الله، الإسلام، هما الأساس في صياغة النظرية الإسلامية للأدب ومفهومه ونهجه وأهدافه، وللجمال ونظريته وملامحه، كما سنرى في فصل مقبل. وهما الأساس في تكوين النظرة للكون والحياة والإنسان، وفي النظرة للنمو والتطور، والبحث عن الجديد.

البحث عن الجديد، السعي لنمو الجهد البشري وتطور عطائه، أمر في فطرة الإنسان، ولولا هذه الرغبة المغروسة في الفطرة مااستطاع الإنسان أن يجدد في عطائة على مر العصور. ولما انتقل من الكهوف إلى العمائر، ولما صنع السيارات والطائرات وسائر وسائل الاتصال. إنها رغبة ملحة مغروسة في فطرة الإنسان نحترمها ونرعاها.

ليس الخلاف في ذلك. ولكن الخلاف هو في نهج التحديث والنمو والتطور الذي يدفعه الإنسان منطلقاً من رغبته هذه. فكأن الحداثة تريد الجديد لمجرد الجديد، تريد التغيير لمجرد التغيير، لايوجد هدف إنساني واضح محدد، ولاحافز نبيل تتبناه . إنها تدعو إلى قطع الصلة بالماضي لتناقض نفسها فتعود إلى الماضي، أو إلى أسوا مافي الماضي، دون أن تبين

سبباً لقطع الصلة أو للعودة. في جميع الحالات يكون الأمر رغبة تعلنها لايرافقها حجة. ومن أين تأتي بالحجة إذا لم يكن لديها شيء ثابت فكل شيء في وهمها متغير، إنها تمثل روح النظرية المادية في هذه القضية.

أما الإسلام، وهو يؤمن بنمو الجهد البشري وضرورته ويرعاه، فإنه يوجهه كذلك، بحيث يوفر له أربعة أشياء رئيسة: النية، الحوافز، النهج، الأهداف. وهذه كلها نابعة من الإيمان والتوحيد. ويظل النمو والتطور يقوم على ثوابت راسخة.

والقاعدة الأولى للنمو والتطور هو ثبات السنن الربانية في الكون، السنن التي لايستطيع الإنسان بغير ثباتها تحقيق أي نمو أو تطور أو تجديد.

والقاعدة الثانية هي أمر الله لعباده بالتفكر والتدبر، ليكون هذا التفكر والتأمل عبادة لله. وكيف يحدث نمو وتجديد إذا تعطل التفكير؟! وكيف يصدق التفكير إذا انقطع عن معينه؟!

والقاعدة الثالثة هو أمر الله لعباده بالسعي المنهجي الدائب في الحياة والكون. وبغير هذا الجهد المنهجي المؤمن لايتحقق تطور أبداً. وكذلك الأمر بالعلم والدعوة إليه.

وترسم قواعد الإيمان والتوحيد كلها نهج النمو وحوافزه وأهدافه: المداومة على العمل، الإحسان والإتقان، الرفق والأناة، التعاون، الموازنة، الإشراف والمراقبة، ومحاسبة النفس، المبادرة الذاتية، النصح والتقويم والشورى، معالجة الأخطاء ورد الأمور إلى منهاج الله. هذه كلها قواعد إيمانية تدفع النمو والتطور وترعاه وتوجهه وتوفر حوافزه.

وقاعدة أخرى تدفع النمو والتطور في الجهد البشري على النهج الإيماني، هي ممارسة العمل وتطبيقه ممارسة إيمانية من خلال المراقبة والإشراف.

ثم يأتي تعارف الشعوب وتعاونها على البر والتقوى، واتصال الأجيال وترابطها، والأرحام وصلتها. هذه الروابط والصلات والتعاون تدفع الجهد البشري في آفاق النمو والتطور والتجديد على أكرم حوافز ونهج وأهداف، كما سنفصل ذلك في الفصول المقبلة.

إن جوهر ذلك كله يكون حين يعي الإنسان حقيقته في الحياة، ومهمته ورسالته، حتى يمضي وقد توافر له من ذلك كل الحوافز، ورسم له إيمانه نهجه وحدد له أهدافه.

من هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي، ساعياً إلى النمو والتطور، حاملاً كل الحوافز والنهج والأهداف من إيمانه. فلايقع النمو والتجديد منه إلا وهو يحقق معنى من معاني العبادة والاستخلاف. إن التجديد حسب التصور الإيماني لايكون لمجرد التجديد ولانزوة هوى ولاانفلات مهووس. هناك دائما قواعد ثابتة لاتتحول أبداً، وهنالك حوافز دافعة وأهداف جلية ونهج نظيف. لايتم التجديد والتطور إلا لتحقيق هدف واضح جلي. هكذا يمضي الأدب الإسلامي، فيحفظ بذلك ثروته التي جمعتها القرون، والخير الذي بناه الإنسان المؤمن، لتتصل الجهود على مرّ العصور، وليتحقق معنى العبادة لله رب العالمين. فبغير حوافز إيمانية ونهج رباني وأهداف صادقة جلية لا يوجد نمو ولا تطور ولا تجديد، إنما يوجد متاهة وظلام.

لقد اضطربت هذه المعاني في واقع المسلمين اليوم، وغاب منها الكثير بين مظاهر الجهل وغلبة الأهواء وانطلاق العصبيات الجاهلية، مما فتح منافذ للأعداء ليدلفوا منها بأفكارهم وأجسامهم وآلاتهم. فأصبحت العروبة منسلخة عن الإسلام شعار بعضهم. والوطنية بكل صورها الوثنية غاية الولاء ومنتهى الحب والادعاء. فوقف من هذا الموج المضطرب المتناقض ماعطل طاقات كثيرة في الأمة، وأغلق أبواب النمو والتطور. فاستغل الأعداء هذه الظاهرة ليشيعوا أن الدين عقبة أمام التطور، والإسلام من هذه الإشاعات براء، يجاهد وسيظل يجاهد، ليوفر لأبنائه المؤمنين، وللإنسان عامة طريق النمو والتطور على صلاح وخير، وعلى عدالة وأمن.

لقد أصبح كلٌ يتغنى بأرضه غناء اللهفة والعصبية، فاضطربت البلاد كلها، لقد أصبح من يرى الأصالة في العروبة وحدها، أو في بقعة الأرض وحدها، بعيدة عن نور الإيمان والنظرة الإنسانية التي يعلنها الإسلام والروابط الإيمانية التي يقررها منهاج الله.

وأصبح الباب مفتوحاً للحداثة أن تدخل . . . .

فدخلت الحداثة وجعلت من قضية النمو والتطور والتجديد إحدى القضايا الأساسية في انحرافها عن نهج الأدب الإسلامي، أدب الإيمان والتوحيد.



الباب الثاني

الحداثة بين النظرية والتطبيق



الفصل الأول



ولادة الحداثة ونشأتها

لو أردنا أن نتتبع جذور الحداثة وأفكارها لوجدناها كلها أو معظمها في تاريخ اليونان والـرومـان، ومـاقدَّم هذا التاريخ من فكر وخرافة وأساطير سموها أدباً، نبتت كلها في أحضان الوثنية، وامتد أثرها في واقع أوروبا الفكري والأدبي، حتى اعتبرتها أوروبا المثل الأعلى الذي يحتذى، كما بينا ذلك في الفصول السابقة. وحين كانت تخرج أوروبا عن ذلك النموذج في شيء، فإنها كانت تحافظ عل الروح الوثنية. حتى الدين المسيحي الذي رعاه الامبراطور «قسطنطين» ليبلغ بمساعدة رجال الدين إلى سُدَّة الحكم في روما، حتى هذا الدين تأثر بذلك. والمسيحية أتت في أصلها إلى خراف بني إسرائيل الضالة، حيث كان يرسل كل نبي إلى قومه خاصة. فما استطاعت المسيحية ان تقدم حلولاً لمشكلات أوروبا. وزادت الظلمة في أوروبا حين انقطع النور عنها وحين توقف المد الإسلامي على أبواب فرنسا من الشرق وعلى أبواب «فيينا» من الغرب، لحكمة يعلمها الله. وربما فرح النصارى في أوروبـا بنصر عسكري على المسلمين، ولو علموا الحقيقة وأدركوا عظمة الخير الذي فقـدوه لبكوا أسفاً على ذلك. تجمعت هذه الأسباب كلها في واقع اوروبا لتوجه الفكر والفلسفة والأدب، والعلوم والأحداث، في ظلمة تغشاها ظلمة! ثم أخذت هذه الظلمة تمتـد وتتسـع، والنور ينحسر، حتى بلغت الظلمة بعض الأقطار العربية، وامتدت إلى شعابها، ودار صراع فيها بين النور والظلمة!.

ولكن متى بدأت الحداثة وأين؟! فإذا كنا نعني «الحداثة» بخصائصها فقط دون أن

---

(١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني» للمؤلف.

تحمل هذا الاسم، فإننا نعتبر بدايتها مع بداية الانحراف عن الإيمان حين بعث الله نوحاً أول رسـول الى النـاس، كما سبق أن أوضحنا ذلك في فصول سابقة. ثم اخذت هذه الخصائص المنحرفة عن الإيمان تظهر في تاريخ الإنسان على فترات مختلفة. فظهور الأفكار المادية والمثالية في تاريخ اليونان والرومان مثل على ذلك. ثم أخذت هذه الخصائص تشتد وتضعف حتى كانت «الحـداثة» الحديثة، أو العصرية، التي ظهرت في العصر الحديث لتحمل الاسم: Modernity, Modernism وترجمته إلى العربية «الحداثة» أو «الحداثية» أو «المعاصرة».

ولكن متى بدأت هذه «الحداثة» الحديثة؟! وأين بدأت؟! اختلفوا في ذلك فمنهم من يعتبر بدايتها من باريس مع سنة ١٨٣٠م. ويرى بعضهم أنها بدأت في السبعينات من القـرن التاسع عشر. ورأى آخرون أنها بدأت بعد سنة ١٨٨٠م. ويرى «كيرمود» أنها انطلقت مع السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وآخرون اعتبروا بدايتها بين (١٩١٠م - ١٩١٤م).

وظهر هذا الاختلاف على أساس الاختلاف في مفهوم الحداثة ذاتها، وماذا يقصد منها، ومن يمثلها. ولكننا نستطيع أن نوضح أرجح الاحتمالات:

أولا: أنها ظهرت خلال الفترة الواقعة بين نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

وثانياً: أنها انطلقت من أوروبا.

ولقد ساعد على ظهورها في أوروبا تاريخ ممتد شارك بمختلف عصوره وأحداثه في ولادة هذه الظاهرة. ونذكر اهم هذه العوامل بايجاز:

١- الأثر الممتد للفكر الوثني اليوناني والروماني.

٢- فشل المسيحية في تقديم التصور الإيماني والتوحيد للمجتمع الأوروبي.

٣- التقدم العلمي السريع في مختلف ميادين العلوم التطبيقية.

٤- عزل الدين عن المجتمع إلا بمقدار مايحتاج أصحاب المصالح إلى استغلاله وخاصة في العدوان على الشعوب الأخرى.

٥ـ نمو العلوم الإنسانية في اتجاهات بعيدة عن الدين، فولَّدت كبراً وغروراً، ونصّبت آلهة متعددة كالعقل والعلم.

٦ـ الثورة الصناعية في أوروبا وما ولّدته من طبقة مستغلَّة وطبقة مُستَغلَّة، وامتداد العدوان والظلم في الأرض، تقوده الطبقات المستغلِة، المختفية وراء زخارف الديمقراطية أو مزاعم الدكتاتورية، ووراء زينة كاذبة من مبادىء مستحدثة ومذاهب جديدة، كلها تخدر الناس، وتبعد عنهم الحقائق.

٧ـ انتشار الفساد الخلقي والانحلال والتهتك، وانفلات الشهوات الجنسية انفلاتاً يقوده أصحاب المصالح والمطامع تحت شعارات خادعة مثل الحرية الفردية المتفلتة في نطاق محدود، ومساواة المرأة بالرجل مساواة تسهل الفتنة والفساد، ولاتحمي الحقوق والحرمات.

هكذا كانت أوروبا مع انطلاقة الثورة الصناعية.



الفصل الثاني

مع الحداثة في ميادينها المختلفة [1]

امتدت «الحداثة» في أوروبا وغزت معظم أقطارها: فرنسا، انكلترا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها من أقطار أوروبا. ثم امتدت الى الاتحاد السوفياتي. وانتقلت من اوروبا إلى أمريكا حيث وجدت التربة المناسبة لها والمناخ الملائم لنمو جراثيمها كلها، ثم لتعود تطلقها أمريكا فتنة وفساداً ودماراً في حياة البشرية كلها. ولايتورع هؤلاء عن أن يغلّفوا ذلك كله باسم المسيحية والدين كلما وجدوا حاجة إلى ذلك.

ومن أهم معالم البيئة التي أخذت تنمو فيها «الحداثة» الانحلال الخلقي المدمر، وانفلات الشهوات الجنسية المخدِّرة، والمذاهب الفكرية التائهة المتناقضة، والنظم السياسية التي تنظم الصراع بين أصحاب المصالح والمطامع والاستغلال، والتي تحاول بأن توفر المسوغات لجرائمها والمخدِّرات لضحاياها، والإغراق في طلب الحياة المادية حتى لايبقى فُسحة لتدبّر.

في هذا الجو ترعرعت «الحداثة» ونمتْ وقويت، ثم امتدَّت فروعها في واقع الإنسان. ولعله من المفيد أن نأخذ بعض الميادين فندرس معالم الحداثة فيها، حتى تتبين لنا الخصائص الممتدة، فيسهل عندئذ تقويمها.

١ - الحداثة في الفكر والعلوم الإنسانية:

لقد كان من أبرز المظاهر في الحياة الأوروبية في وسط هذا الظلام هو التطور العلمي التطبيقي، وتطور الصناعة، مما سنعرض له، وظهور الثورة الصناعية. وقد انعكس هذا كله على واقع أوروبا، حيث ظهرت طبقة العمال المستغَلَّة، وطبقة الرأسماليين المستغِلَّة،

(١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني» للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع.

وانفلات الفردية انفلاتاً واسعاً، وحيث أنزلوا المرأة إلى ميدان العمل ودوي الالآت، لتلهب الجنس والفجور، ولتنتشر معها المخدرات والخمور. في هذه الأجواء يُعزل الدين عن المجتمع لينزوي في داخل الكنائس، ولينقطع دوره ودور رجاله، إلا أن يكونوا دعاة حركات التنصير التي تبنتها الحكومات التي عزلت الدين عن مجتمعاتها، لتكون هذه الحركات ورجالها، وليكون الاستشراق ورجاله، طلائع زحوف العدوان والظلم، تمضي به جيوش أوروبا في قلب العالم الإسلامي، وعلى رأسها انكلترا التي لم تكن تغيب الشمس عن امبراطوريتها آنذاك.

لقد استطاع أصحاب المصالح وأرباب المصانع ورجال المال أن يصوغوا هذا كله في نظام أسموه «الديمقراطية» ليقدم للناس نظاماً إدارياً قوياً يحمي مصالح واضعيه من ناحية، ويُخَدِّر الناس ببريق الإدارة الناجحة والنظام، وبلهيب الشهوة والجنس والمخدرات، من ناحية أخرى، ويشغلهم في الركض اللاهث وراء «لقمة العيش»، ثم يدفعهم قطيعاً يساق إلى مجازره، في أجواء العلمانية التي سادت والشرك الذي امتد .

في هذه الأجواء نبت الفكر الأوربي. فظهر «أوجست كونت» (١٧٩٨م - ١٨٥٧م) نافضاً يديه من الميتافيزيقيا، داعياً إلى الإيمان بوجود عالم وضعي يحل فيه العلم الوضعي محل ماكان يسمى علم اللاهوت. فإذا كان عصر التنوير كما يسمونه، وهو القرن الثامن عشر، وهو في حقيقته عصر من عصور الظلمات، إذا كان ذلك العصر جعل العقل والمثالية إلهاً، فإن القرن التاسع عشر جعل العلم الوضعي هو الإله الجديد. وجعلوا الطبيعة والواقع كذلك إلهاً. ولكن أي واقع؟! وأي طبيعة؟! وأي عقل؟!

هنا تبرز الظاهرة الهامة في خصائص الفكر الأوربي، حين يأخذون جزئية محدودة في الحياة، من خلال علم محدود، وبيئة محدودة، وزمن محدود، ليجعلوا منها إلهاً وثنياً يعبدونه، أو حقاً مطلقاً يخضعون له إلى حين، ثم يكفرون به، ويستبدلون به إلهاً آخر جديداً. إن ماحدث في القرن التاسع عشر هو امتداد لما سبق أن ذكرناه عن القرن الثامن عشر، وعما ذكره «رندل» في كتابه : «جذور الحداثة».

وجاء «تين» ليعلن إخلاصه للأمور التجريدية حيث لايظهر الجمال عنده إلا بسيادة

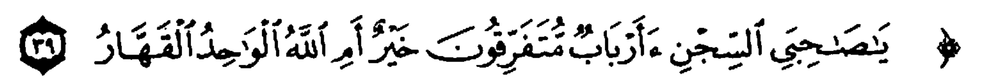
العقل. وجاء «هربرت سبنسر» ليعلن في كتبه في علم الاجتماع وعلم النفس إيمانه بالتقدم على أساس العلم والعقل. وظهر «فرويد» و «إدلر» و «ينك» في دراساتهم في علم النفس، و«ماركس فيبر» و «إميل دوركهايم» في علم الاجتماع، وداروين ونظرياته في النشوء والارتقاء، ليقرر هؤلاء جميعهم مبدأ التقدم والتطور على أساس العلم والعقل فقط، ولينصبوا آلهة جديدة. هنا تظهر لنا أهمية عرضنا السابق للنهج الإيماني في النمو والتطور، ولأسلوب «الحداثة» الذي نراه هنا كذلك جلياً.

ونادى «فيشته Fichte » (١٧٦٢م - ١٨١٤م) بسيادة العقل، ودعا إلى مبدأ النقيض ليمجد من خلاله العقل والحرية، امتداداً لوثنية «إمانيويل كانت» التي عرضناها سابقاً. ثم يأتي «هيجل» ليطور الفكر على نفس الأسس الوثنية، وليستخدم مبدأ النقيض، وليدعو إلى أن العقل المطلق هو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ويأتي «لودفيج فيورباخ» فيؤكد «علم الواقع»، ويعتبر جوهر الواقع هو الطبيعة، ولتصبح عنده الطبيعة والواقع والحس هي الحقيقة، هي «المادية»، هي «علم الإنسان». فنصب «فيورباخ» الإنسان إلهاً جديداً، ليبلغ الكبر والغرور أقصى مداه. ثم يأتي «ماركس» ليدفع هذا الفكر كله إلى هوة سحيقة من الوثنية والشرك، ويأخذ «ماركس» عن «هيجل» مبدأ النقيض، ليصوغ به هو و «فريدريك إنجلز» المادية الجدلية والمادية التاريخية، وليحاربا بذلك النظام الرأسمالي، ويعلنا صراع الطبقات.

إن هذا التبادل والتناقض الذي تمثل أمام الناس خلال القرن التاسع عشر بخاصة، زاد من عمق الحيرة والشك، ومن ضباب الغموض، وولَّد صدمات نفسية، سنظل نرى آثارها في ردود الفعل العنيفة والحركات المتتالية السريعة.

وتأخذ خصائص الحداثة مداها في الفكر الأوروبي حتى تُجلَى بشكل واضح محاربة للدين، ونقمة على الماضي، حيرة وشك، واضطراب وغموض.

لقد تعددت الآلهة كثيراً، يرفعون إلهاً وصنماً ويُسقطون إلهاً وصنماً، ولكن الله الذي لا إله إلا هو، هو الواحد القهار:


﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾

مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠)

٢ ـ الحداثة والعلوم التطبيقية :

لقد نمت العلوم التطبيقية في تاريخ الانسان نمواً طبيعياً هادئاً، أو هكذا كان يبدو. فما من عصر إلا كان فيه نمو وتطور ساهم فيه الإنسان على مدى قرون طويلة، وساهمت فيه الشعوب كلها. فنها الطب والهندسة والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم التطبيقية.

إلا أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد نمواً مذهلاً في هذه العلوم، لم تشهده القرون السابقة، ولقد نمت هذه العلوم على مناهج أخذت تستقر قواعدها شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يُقبلون عليها كأنها حدث جديد في حياة الإنسان. وكان الإقبال شديداً بعد أن نفضوا أيديهم من الدين، حتى جعلوا من العقل إلهاً ومن العلم إلهاً. لم تكن هذه العلوم في حقيقة أمرها إلا مكتشفة لبعض سنن الله في هذا الكون المذهل باتساعه، وقد كشفت عن بعض آيات الله الممتدة في هذا الكون، على حكمة لله غالبة وابتلاء منه سبحانه وتعالى، ليميز الله بذلك الخبيث من الطيب، ولتقوم الحجة على الناس. ولكن أوروبا عميتْ أبصارها، فلم تر في ذلك آيات لله لتخشع وتنيب، ولكن أخذها الكبر والغرور، ثم تمادت في غيها وفسادها، وانتشرت الخمور والمخدرات، ونزعت المرأة من بيت الزوجية والأمومة، وألقيت بين هدير الآلات ليتمتع بها المجرمون المفسدون تحت شعار «الحرية» و «الحداثة».

لقد ظنَّ بعض الناس في أواخر القرن التاسع عشر أن تقدُّم الإنسان في هذه العلوم قد بلغ نهايته، وأنه لم يعد هنالك من شيء جديد يكتشفه. وفي مطلع القرن العشرين دعا «تشارلز هـ. دويل»، مفوض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة، الرئيس «ماكسينلي» إلى إلغاء مكتبه، مدعياً أن كل مايمكن اختراعه قد اخترع. ولكن منذ الإدلاء بهذا القول عام ١٨٩٩م، تم اعتماد أربعة ملايين براءة اختراع في أمريكا وحدها.

لقد كانت زحمة العلوم هائلة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، زحمة أذهلت الناس كما رأينا. وكاد يستقر في أذهان الناس والمفكرين تقديس العقل والعلم، لولا أن بدأ العلم نفسه ينقض بعض نظرياته ويُعدِّل بعضها، مما بدأ يُدخل الشك في نفوس رجال الفكر خاصة والناس عامة. فلقد بدأ «بونتير» حياته العلمية وهو يؤمن بوجوب التطبيق الواضح لمبادىء الارتقاء على علم الحياة والأدب على حدٍّ سواء، ولكنه ارتد عن ذلك ليعلن عداءه لكل الموازين العلمية، وليرفع شعار «إفلاس العلم» وليناد‌ي بإحلال «الحدس الصرف» محل العلم[1].

ويقول «جورج سانتايانا»: «عندما كان شاباً كان يرى أن العلم له قوانين مطلقة لا يطالها التغيير. ولكن بعد وقت قصير رأى النظريات العلمية تمر بأطوار سريعة من التغيّر»[2]

أمام هذه التغيرات ازدادت الريبة في الماضي، والحيرة أمام الحاضر، والقلق بالمستقبل. وبرزت التناقضات في واقع الناس، وفي بعض مما يتعلق بالماضي، في سبيل البحث عن جديد. وأصبحت هذه المظاهر صفات أساسية في «النهج الحداثي» البعيد عن النهج الإيماني: الريبة والشك، القلق والحيرة، النقمة على الماضي ومحاولة تحطيم أطره ونظمه، ومحاولة الجمع بين المتناقضات.

نعم لقد أدَّت هذه العلوم التطبيقية خدمات مادية جُلّى للإنسان لا مجال لسردها هنا. ويكفي أن نذكر مثلاً في الطب: القضاء على بعض الأمراض كالدَّرن والجدري، هبوط نسبة الوفيات في الأطفال. ففي الولايات المتحدة كانت نسبة الوفيات (١٦٢) بين كل (١٠٠٠) مولود سنة ١٩٠٠م، وقد هبطت هذه النسبة ومازالت آخذة في الهبوط، ومن المحتمل أن تبلغ (١٤) حالة وفاة نسبة ١٩٩٩م، ومنذ (٢٥٠) سنة فحسب، لم تترك «آن» ملكة انكلترا ورثة بعد أن أنجبت ثلاثة عشر طفلاً ماتوا جميعاً قبل العاشرة.

ولكن هذه العلوم جميعها لم تستطع أن تحل مشكلات الإنسان في نفسه وعلاقاته. إن التكنولوجيا أو التقدم الفني يمكن أن يحل مشكلات الآلة ومايشبهها من مشكلات

---

(١) الحداثة. (ص: ٧٧).

(٢) كتاب «الحداثة». (ص: ٧٩).

الإنسان. أما المشكلات السياسية والاجتماعية والنفسية والخُلُقية، والمشكلات التي يصنعها الإنسان بنفسه، سيظل يجابهها هو بنفسه، ولن يجد من الآلة والتكنولوجيا أكثر من عون محدود مهما عظمت الآلة ونَمَت.

فجابه الإنسان هذه المشكلات كلّها، وبحث عن حلولها في كل ماالديه، فما وجد الحل الذي يطمئن إليه، وهو ينتقل من جديد إلى جديد في مذاهب تنقله من ظلام إلى ظلام، على غير نهج مستقرٍّ أو سبيل مستقيم.

وأكثر من ذلك، فقد تطورت العلوم التطبيقية لتبين للإنسان زيادة اتساع المجهول أمامه. وزادت المشكلة صعوبة حين أصبحت هذه العلوم تقدم له سلاحاً يدمّر حياته ويهدد مستقبله. فإذا هبطت نسبة الوفيات بسبب تقدم الطبّ، فقد ارتفعت كثيراً بسبب الحروب. وإذا اختفت أمراض كالدرن والجدري، فقد ظهرت أمراض أخرى أحدثها، وليس آخرها، «الإيدز». وأصبحت القنابل والصواريخ اليوم مصدر هلع البشرية كلها. ذلك لأن العلوم انطلقت في مسار حداثي محض، بعيد عن الإيمان والتوحيد، فلم يَعُدْ هنالك ضابط على صناعة الأسلحة وشهوة الانتقام، ولا على استخدامها، إلا الهلع والفزع. وستبقى «هيروشيما ونكازاكي» مثلاً مرعباً لفقدان هذه السيطرة، ولانفلات النهج الحداثي في ميدان العلوم. وحسبنا أن نعلم أن القرن العشرين شهد مصرع (١٢٠) مليون شخص قتلاً في الحروب التي وقعت فيه، والتي بلغ عددها (١٣٠) حرباً، وهذا العدد يفوق عدد من قتلوا في كل الحروب قبل سنة (١٩٠٠م). وحسبنا أن نرى أنه عندما انتشر مرض «الإيدز» المرعب، لم تهتم الدول الكبرى في أن تعالج أسباب المرض أبداً، وإنما أصرت على بقاء الأسباب وهي في نفس الإنسان، وفي انفلات شهوته وهواه، واكتفت بمعالجة أعراض المرض وهي في جسده. وهذا فرق رئيسي بين نهج الإيمان والتوحيد الذي يعالج أسباب المشكلات والأمراض من جذورها، وبين أسلوب «الحداثة» المنحرف عن الإيمان، الذي يعالج الظواهر ويُنميّ الشهوة والهوى.

إذا كان هذا هو تأثير الأسلوب الحداثي في العلوم التطبيقية في واقع الإنسان، وللعلوم التطبيقية قواعد مستقرة في البحث والدراسة تقريباً، وإذا كان الأسلوب الحداثي

وخصائصة دفعت الفكر والعلوم الإنسانية كما رأينا، فما هو دور الحداثة في ميدان الفنون والأدب، وماذا كان تجاوبها مع ذلك الضغط الهائل في المجتمع؟!

٣ ـ الحداثة في الفنون والأدب:

لقد كانت الفنون متنفساً واسعاً لذلك الضغط الهائل. وكان الأدب باباً واسعاً للتعبير عن كل هذه المتناقضات. هنا في ساحة الأدب والفنون كانت ملامح الحداثة أوضح، لا لأن الحداثة مختصة بها، ولكن لأن الأدب والفنون أقرب للناس عامة، وأوسع انتشاراً.

أمام هذا الضغط الهائل من الحيرة والشك والتناقضات والإفلاس، وجد الإنسان الهروب أيسر السبل، الهروب إلى الرمز ليُخفي وراءه شعوره وفكره وكلمته وكذلك سلوكه. وخرج «بودلير» مع مالارميه وفاليري في فرنسا ليقودوا الحركة الرمزية في صورة انحطاطية كما سُمُّوا أول أمرهم، ومعهم الكاتب الامريكي «إدجار ألن بو». ولقد حملت الرمزية معها وقاحة التعبير واضطرابه على صورة تخلخل المعنى او تحطمه. وأصبح الرمز هو الصنم الجديد.

وتطورت الحركة الرمزية إلى بعد أعمق في الغموض، تطورت إلى الحركة الانطباعية التي تلجأ إلى إسلوب تعبر به عن الانطباع الموحد للمعنى في اللون أو الضوء. إنهم يعتقدون أن الاشياء ذاتها تتحطم وتزول، فليست في نظرهم هي المهمة، ولكنها تترك أثارها وانطباعها. نجد نماذج من ذلك في قصيدة لـ وايلد: «سمفونية باللون الأصفر»، وفي المجموعة الشعرية لـ«ماكس دوثندي» المسماة «فوق البنفسجية». وهم يرون ضرورة إحياء قوة اللون كتجربة حضارية. وقد مثلت الحركة الانطباعية، والحركة الرمزية قبلها، بداية الهجوم على اللغة، وهي تحاول التخلص من جزئيات اللغة كالحروف. وأخذت الحركة الانطباعية اتجاهات عدة عند «مونيه» و«ريلكه»، و «هولز» وغيرهم[1].

وظهرت الحركة المستقبلية في إيطاليا مع بيانها الأول سنة ١٩٠٥م يعلنه «فيلنو توماسو مارينيتي»، لتوغل في الغموض والاضطراب بين الأدب والسياسة. أعلنوا أنهم سيبتكرون

(١) كتاب «الحداثة» مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن. (ص: ٢١١ ـ ٢٣٢).

«الخيال اللاسلكي» الذي سيتمخض عن توليف متجانس لعناصر الكون التي يمكن احتواؤها بنظرة خاطفة. غرور وكبر تحول إلى صدمة نفسية هائلة عند فشلهم. وضع «مارينيتي» في مقدمة كتابه المسمى «زانك تم تم» عنواناً: تحطيم النحو - خيال لاسلكي - كلمات حرة. فأوغلوا بذلك اكثر من الحركات السابقة في محاولة تحطيم اللغة. ودعوا إلى الشعر الحر الذي كان قد ابتكره «كوستاف كان»، ليكون الشعر الحر باباً لضياع أوسع، للكلمة الحرة المتفلتة من معانيها وقواعدها، ولتتحول الكلمة إلى مقاطع صوتية غامضة هيستيرية مثل: « سي سي سي سي سي سي سي » وينقل هذا الهوس عنهم إلينا «أدونيس» و «كمال أبو ديب» وشاعر يقول في قصيدته: «ستزن ستزن ستزن» ثم تتحول الكلمات عندهم إلى رموز رياضية، «+--+--++×» لتعبر عن حركة ناقل السرعة في السيارة. وقد نقل «كمال أبو ديب» هذا الهوس إلينا في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي». وأصدر «أبولونير» سنة ١٩١٣م كتابة «العداء المستقبلي للتراث». ليكشف عن هذا الاتجاه الرئيسي للحداثة. وارتبطت الحركة المستقبلية في إيطاليا بالفاشية، وأمضى «مارينيتي» واحداً وعشرين يوماً في السجن مع موسيليني.

أراد «مارينيتى» أن يلقي خطبة شعرية حماسية. فأخفى أحد أصدقائه نفسه في أحد أركان الصالة. وبإشارة من «مارينيتي» أخذ يقرع طبلاً عملاقاً. فاندهش الحاضرون وهم يتساءلون كيف استطاع صوت «مارينيتي» أن يفعل هذه الضوضاء الخارقة!

أما الحركة المستقبلية في روسيا فقد رأسها «فلاديمير ماياكوفسكي»، وأعطى نفسه لقب «زارداشت زماننا الصخاب»، وذلك في قصيدته «سروال في سَحَابة» لقب وثنّي، وعنوان غائم، والحادية علنيّة. واعتمدت هذه الحركة الكلمات الصوتية مثل الحركة في إيطاليا كذلك في مثل قصيدة: «دربل إشكل، ابشكر، سكم، مي سوبو، رل ينر». مقاطع صوتية لا معنى لها في أي لغة. ولكن هذه المدرسة مع كل عجائبها وحربها على التراث والدين واللغة، حاربت الرمزيين. وأصدرت هذه الحركة بيانها سنة ١٩١٢م، وأسموه «صفعة في وجه الذوق العام»، وجعلت همّها غسل الكلمات وتطهيرها من طلاء التراث الأدبي. وهذه المهمَّة دعا إليها أدونيس وكمال أبوديب وغيرهما من رجال الحداثة في إجماع

يدور كلُّه، مهما اختلف اللفظ، حول قول أحدهم «إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها ومما علق بها من غبار السنين فيطهِّرها ويغسلها. . . ». ويقول أدونيس في كتابه مقدمة في الشعر العربي: «يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة مستمرةً على اللغة»[1] ويقول: « . . . وتصبح اللغة غابة شاسعة كثيفة الإيقاع والتوهج والإيحاء لا حدَّ لأبعادها فتُفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة سابقاً في المعاجم أو على الألسنة»[2]. ويقول كمال أبوديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي»: «وهكذا يكون تطور الإيقاع فاعليَّة بنيوية تنبع من سبْكة العلاقات المتكونة ضمن البنية وجدليتها. ويختفي وراءها التراث الشعريّ في اللغة بتاريخه المعقد الطويل»[3].

إجماع حداثيّ واضح على حرب اللغة والمعاني والتراث. ويلتقي من أجل ذلك حداثيو العالم الإسلامي مع حداثيي أوروبا، في ساحة واحدة، وفي تبعية ذليلة وتقليد مهين، ليرسموا خصائص واحدة للحداثة، يلتقون عليها أولاً، ولا بأس لديهم إذا اختلفوا بعد ذلك في أمور فرعية أُخرى، تقودهم الحركة المستقبلية القوميَّة الإيطالية الفاشيّة حيناً، والحركة المستقبلية الرّوسية الشيوعية حيناً آخر، والنزعات الأخرى المماثلة هنا وهناك.

وقدّمت الحركة المستقبلية في روسيا نموذجاً جديداً من الشعر الحديث، عُرف بالكونكريتي "Ferro Conerete Poetry" ليمثّل فنّ التهريج، وليعتمد لا على اللغة وبيانها، ولكن على القراءة والصوت والتمثيل. ووضع «فليمير خليبنكوف» قصيدة «تعويذة عن طريق الضحك» لتمثل أُسلوباً آخر في تحرير الكلمة وتحطيم اللغة.

وطالب بيان المستقبليين في روسيا بإعطاء الحقِّ للشعراء في رفد الناس بمفردات وكلمات مبتكرة ملفَّقة، كما أُعلنوا كراهيتهم غير المحدودة للغة التي ورثوها. ولقد نافسهم الحداثيُّون في بلادنا في هذا المضمار كما سبق أن ذكرنا قبل قليل. كما نافسوهم في تلفيق مصطلحات ومفردات خارجة عن اللغة أو خارجة عن الوضوح غارقة في الغموض. ولننظر في أمثلة من

---

(١) مقدمة في الشعر العربي (ص: ١٢٦).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٢٨).

(٣) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ١٠٥).

ذلك: التموضع الزمكاني، المرئية، النحن، الرؤيوية، وغير ذلك.

ويدعـو ماياكـوفـوسكي الشمس لتشرب معه كوباً من الشاي، وذلك في قصيدته: «مغامرة خارقة قام بها فلاديمير ماياكوفوسكي في كوخ صيفي». ويهدف من هذه الدعوة للشمس إلى أن يُعطِّل حركتها الأبدية، الشروق والغروب، اللتين ملّهما الشاعر.

صورة واضحـة لمحـاولة الثـورة على سنن الله في الكون، سنن الله الثابتة. وستظل الشمس تشرق وتغيب، وينتحـر ماياكوفسكي وتنتحر أفكاره، ويطويه الرَّدى، ويطوي أمثاله، وتظل سنن الله ماضية، آيات بينات تشهد أن لا اله إلا الله:

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

[فاطر: ٤٣]

وظهرت في هذه الحركة «المدرسة الشكلانية» مستلهمة بعض قواعد علوم اللغة التي جاء بها سوسير، وممجدة في الوقت نفسه كل شذوذ الحركة المستقبلية، وساهمت هذه الحركة في بلورة ما يُسمى «الإشـارات الدالة» "Semiotic Theory". ويقول «ياكوسبون» إذا كان المعنى سابقاً يبحث عن القوافي في الشعر، فإن القوافي في شعر خليبنكون وماياكوفسكي هي الآن تبحث عن معنى. والذي نراه نحن أن كلام ياكوسبون نفسه على طرافته هو الـذي يبحث عن معنى كذلـك. وانتهت حياة ماياكـوفسكي وغيره بالانتحار، وعاش آخرون في بؤس وعذاب. وأعلنت الحركة المستقبلية إفلاسها، لتحمل الراية بعدها الحركة «التعبيرية» منطلقة من باريس من ميدان الرسم مع «بيكاسو» و«بارك» و«فان كوخ». ثم تمتد إلى الأدب في ألمانيا، حيث عبّر أحدهم عن هدفهم بوضوح، وهو يتحدث عن مجلة أصدرها: «إن المجلة جاءت لتقوض المجتمع القائم». لم تعد الثورة على القديم فقط، وإنما امتدت إلى الواقع. وأخذ التعبيريون يهاجمون المؤسسات القائمة كلها، ويقولون إنه

لما أصبحت اللغة أداة في خدمة أغراض نفعية لهذه المؤسسات، فقد أصبحت عاجزة عن القيام بمهمتها التعبيرية، فانصب هجومهم على «النحو» التقليدي، وحمل هذا الهجوم إلينا تلامذةٌ وأتباع لهم من بعض الحداثيين في العالم الإسلامي. وزاد الغموض لدى الحركة التعبيرية وزادت الرغبة في التحطيم، والرغبة في تفجير المجتمع. ولكن بدلاً من ذلك كله فجروا أنفسهم وتفرقوا بين المذاهب السياسية القائمة من شيوعية وغيرها.

كانت الحركة التعبيرية تحاول أن تستنبط «لغة تعبيرية جديدة» يخضع لها الواقع الذي كانوا يدعون إلى تحطيم مؤسساته. فلما فشلوا في ذلك وتمزقوا، جاءت الحركة، «الدادائية» لتدعو إلى أن تعيش الواقع وانحطاطه وانحطاط القرن العشرين، ولتحارب التعبيريين، ولتنحو منحى اليسار الدائم والثورة. ولكن صراعها انتهى بالاستسلام النهائي الذي لا حدود له، متميزة بمهاجمة قواعد النحو والمنطق مغرقة بالفوضى والتناقض. وكان بعضهم يرى أن على الحركة التمسك بالغموض، فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة. ومن قلب الحركة الدادائية ظهرت بذور الحركة السريالية لتعتمد فنَّ إثارة الفضائح تحت شعار حرية التعبير، وليغذُّوا لهيب الجنس. واعتبروا «أن العقل وحده قادر على جمع شظايا العالم وربطها». وامتد نشاط هذه الحركة في ميادين الأدب والرَّسم. وأخذوا يسعون إلى اقتراح لغة جديدة للناس. كتب شاعر سريالي مكسيكي يقول: «لا تعتزم السريالية كتابة قصائد جديدة بقدر ما تعتزم تحويل الناس إلى قصائد حية». هوس وغموض ومغالطات، وتعبيرات ضبابية. يقول أحدهم: «إنهم يتطلعون إلى ذلك اليوم الذي تكون فيه الطبيعة الإنسانية والإنسان الطبيعي يتحاوران معاً..». ودخلت السريالية جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقى.

لقد أبرز العرض السابق في متابعة الحداثة في ميدان الأدب والفن إلى تأكيد خصائص الحداثة التي سبق عرضها في الميادين الأخرى، وإلى إيضاح خصائص أخرى أهمها المغالطات الفكرية من خلال طنين التعبير وحلاوة جرسه، مثل: «الإنسان الطبيعي والطبيعة الإنسانية، المعنى يبحث عن قوافٍ والقوافي تبحث عن معنى، حدس، مقامات، حالات، غيبوبة، تركيب جدلي وحوار رحب لا نهائي بين هدم الأشكال

وبنائها. . . ، حدسية إشراقية إبداعية رؤياوية، هنا سيَّالٌ أبديّ المفاجئات تتدافع في المدّ الخلّاق نحو المجهول. . .». تعبيرات لا حصر لها من هذا النوع تدخلك في غموض وتيه، وظلمة وضياع.

ومن أساليب المغالطات مثلاً ما يقوله كمال أبوديب: «والحداثة تعني التغيير بوصفه حركة تقدم إلى الأمام. وذلك سرُّ مأساتها. فكل تقدُّم هو انفصام عن ماض. ومن هنا كان وعي الحداثة لذاتها بوصفها انفصاماً. والانفصام دائماً فعل توتر وقلق ومغامرة. . .»[1]. هكذا يؤثر الحداثيون في القراء العاديين، حين يضعون مثل هذه المغالطات، لتنساب بهدوء كأنها حقائق مطلقة لا يأتيها الباطل. لماذا يكون كلُّ تقدم انفصاماً عن ماض؟! لماذا لا يكون امتداداً ونمواً وتطوراً كما تنمو الشجرة فتحمل الغصون والورق والثمر؟! ألا يمكن أن يتم بهدوء وسلام، ورضاً وفرحة، كانفصام الإنسان عن الشرِّ ودخوله في طمأنينة الهدى وسكينة الإيمان؟! مغالطة أخرى واسعة! أما الانفصام، كما ذكره، فلا شك أنه مأساة الحداثة أو سرُّ مأساتها، بسبب المغالطة لا بسبب ما يدعيه من انفصام.

ويقول كمال أبوديب أيضاً: «الحداثة انقطاع معرفي»! ويشرح هذا التعبير الغامض الذي صاغه من ظلامه وتيهه فيقول: «ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في مصادر التراث، . . . والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود. . . الحداثة انقطاع معرفي، لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان هو مركز الوجود. . .»[2].

إذن هو فتنة صريحة دخلت العالم الإسلامي من أبواب الفكر والأدب والسياسة والإعلام. ولم يَقِلَّ رجال الحداثة في الغرب ولا في غيره عن هذا المستوى في إعلان الفتنة ومحاربة التراث كله بنصوص صريحة لا مواربة فيها، ودعم الغيبوبة وأفكار الصوفية المنحرفة وغير ذلك، من خلال صياغات تتميز بأشكال مختلفة من الجرس والتلاعب بالألفاظ،

(١) مجلة الفصول المجلد (٤) العدد (٣) ١٩٨٤م.

(٢) مجلة الفصول مجلد (٤). عدد (٣). سنة ١٩٨٤م. (ص: ٣٧).

لتسوق مغالطة بعد مغالطة.

فصلاح عبدالصبور في ديوانه «أقول لكم» فيما يسميه قصيدة «الظل والصليب»، يقول: «هذا زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين إليتي رجل سأم». ويقول: «ملأحُنا ينتف شعر الذقن في جنون. يدعو إله النقمة المجنون أن يلين قلبه ولا يلين. ينشده أبناءه وأهله الأدنين، والوسادةالتي لوى عليها فخذ زوجه، أولده محمداً وأحمداً.. وسيّداً. وخضرة البكر التي لم يفترع حجابها إنس ولا شيطان يدعو إله النعمة الأمين أن يرعاه حتى يقضي الصلاة، حتى يؤتي الزكاة، حتى ينحر القربان، حتى يبتني بُحرّ ماله كنيسة ومسجداً وخان. للفقراء التاعسين من صعاليك الزمان»[1].

ويقول في نفس القصيدة (ص: ٦٧): «إنسان هذا العصر سيّد الحياة»! ويقول في قصيدة «قدّيس» (ص: ٨٦) من الديوان:

«وقالت لي: بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان، وأن الله قد خلق الأنام ونام. وأنَّ الله في مفتاح باب البيت».

سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً.

ألفاظ المسيحية منتشرة عندهم كثيراً كما رأينا هنا، «القديس»، «الصليب»، وكذلك ألفاظ الصوفيّة!

ولم يكن صلاح عبدالصبور الوحيد في هذا الهبوط. فقد كان هذا محور فكر أقطاب رجال الحداثة كلهم. فاسمع أدونيس وهو يعلن تصوره، وهو يخوض في أوحال الوثنية: «الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التصوُّف ذوّب ثبات الألوهية، جعله حركة في النفس، في أغوارها أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى للإنسان طاقاته. المتصوّف يحيا في سكر يُسْكِر بذوره العالم. وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرَّك بين يديه»[2].

---

(١) ديوان «أقول لكم». (ص: ٦٥، ٦٨).

(٢) كتاب مقدمة في الشعر العربي لادونيس. (ص: ١٣١).

سبحان الله العظيم. سبحان رب العرش العظيم.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ ﴾

[الأنعام: ٥]

٤ ـ الحداثة في السياسة والاقتصاد:

لقد رأينا خلال العرض السابق كيف دخلت بعض الحركات الحداثية في قلب السياسة ونشاطها. فالحركة المستقبلية في إيطاليا ضربت بسهم وافر في ذلك، وسُجِنَ «مارينيتي» مدة واحد وعشرين يوماً مع موسيليني وآخرين، بتهمة تكوين عصابات مسلَّحة. وقد أوغلت الحركة مع النشاط الفاشي، وتبنوا الرُّوحَ القومية الإيطالية حتى جاء بيانها سنة ١٩١١م يقول: «يجب أن تسيطر كلمة إيطاليا على كلمة حريَّة». أما في روسيا فقد كانت الحركة المستقبلية تتبنَّى الفكر الشيوعي مذهباً وسياسة، فاتحدت هنا مع البلشفية كما اتحدت في إيطاليا مع الفاشية وهاجمت الحركة التعبيريَّة المؤسسات الاقتصادية والسياسية في أوروبا، لأنها تمثل الاستغلال والظلم، وحاربت الأدب الرمزي والانطباعي لارتباطه بتلك المؤسسات، دون أن يكون لديهم تصور سليم للعدالة والحق، وتاهوا في ظلم أشد وفساد أوسع، وتَمَزَّقوا شذر مذر. وامتدَّت الحركة الدادائية بين مدن أوربا وأمريكا وهي تخوض صراعاً فكرياً وسياسياً، حتى أطلقت المجلة الباريسية «التراتوز» سنة ١٩١٩م سؤالها الكبير: «لماذا نكتب؟! لمن نكتب؟!». حيرة ويأس قاتلان.

والحركة السريالية امتدت بين جميع أجزاء أمريكا الجنوبية واليابان وجزر الكناري ودول أوروبا يساعدها على ذلك انضباطها التنظيمي ومبادئها المغرية في طنينها الاجتماعي والسياسي، ودخولها جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقى.

ولقد تفاعلت الحركة الحداثية مع واقع المجتمع، واتخذت من مختلف ميادين النشاط منابر لها، وكان الميدان السياسي واضحاً في نشاطها. وامتدّ أثر النهج الحداثيّ في الفكر السياسي امتداداً بعيداً. لقد قامت الديمقراطية وكان أهم مَعْلَمٍ لها، وأهم مسوِّغ لوجودها وقيامها هو العلمانية وعزل الدين عن المجتمع. نعم! لقد عُرفت الديمقراطية

باستغلالها الدين استغلالاً قبيحاً في جرائمها السياسية وفي دعم المستشرقين وحركات التنصير، كما ذكرنا. ولقد ظهرت المادية الجدلية والتاريخية والماركسية العلمية كردٍّ فعل للديمقراطية التي استغلت الطبقة العاملة، وأغنت الطبقة الرأسمالية. ودار الصراع بين الحركتين حتى عهد قريب.

إن السياسة التي تُمارس اليوم تتميز بظاهرتين هما من أهم خصائص الحداثة ونهجها: العلمانية واستغلالها للدين في جرائمها وعدوانها، وكذلك المكيافيلية. والشعارات الإنسانية لم تتجاوز دائرة المؤتمرات والندوات والإعلام. تُعلَن حقوق الإنسان ثمّ يُسحق الإنسان بعد ذلك بألف وسيلة. إن الديمقراطية تسحق الإنسان بالتخدير في لهيب الجنس والخمور والمخدرات وإفلات الحرية الفردية. والحرية الفردية تنتهي عندما تصطدم مع مصلحة القوى الخفيّة المسيطرة. والدكتاتورية تجمع اليوم أدوات السحق كلها: البطش والتخدير، وإذا لزم الأمر «فالتنويم».

إن التفلّت من نهج الإيمان والتوحيد يترك الإنسان ريشة في مهب الريح طائرة، تتقاذفها الأهواء فلا تستقر.

لقد أخذ الصراع السياسي أعنف صورة في تاريخ الإنسان، وهو يحمل هاتين الصفتين الحداثيّتين: محاربة الدين حتى لا يؤدي دوره الحقَّ في المجتمع واستغلاله لتحقيق مطامع القوى الجشعة الطاغية، وكذلك النهج الميكافيلي في تحديد العلاقات بين الدول. ولقد تمثل هذا العنف بحربين عالميّتين كبيرتين، وبحروب أخرى ممتدة في الأرض كلها، جعلت الأرض تبدو كأنّها لهيب حروب، حتى بلغ عدد الحروب خلال القرن العشرين بحدود (١٣٠) حرباً وزاد عدد الضحايا فيها عن (١٢٠) مليون نسمة، ومازالت الدماء تتفجّر في الأرض هنا وهناك بين مظالم وعدوان وطغيان تحركه مطامع القوى المتسلطة اليوم.

وفي واقع عالمنا الإسلامي دار معظم الشعر الحداثيّ حول السياسة لتكون قضيته الأولى هي «السلطة». ففي مقالة كمال أبوديب يتحدث عن الحداثة والسلطة يقول: «تبدو الحداثة مسكونة بالسلطة، بل إنها تبدو وعياً مشبوحاً بالسلطة بعنفها وبربريّتها وتعسُّفها.

تصبح السلطة بيت الحداثة الذي فيه تنمو»[1]. ومضت الحداثة على ذلك في قلب الوسط اليساري في العالم العربي، الوسط اليساري بمختلف تجمعاته. فمن شيوعي ملتزم أو اشتراكي حائر أو قومي أو بعثيّ، إلى غير ذلك من التجمعات التي مثلت النهج اليساري.
ولقد كان الجهد الأول لهذه الاتجاهات هو الشعارات الوطنية، ومهاجمة السلطة، ومحاربة الرأسمالية، ولكنها تطرح من خلال بريق هذه الشعارات حلولاً مرفوضة من وجهة النظر الإيمانية، كما حدث في قضية فلسطين مثلاً، وفي غيرها.

والظاهرة الغريبة التي تحتاج إلى تفسير هي أن الصحافة غير اليسارية فتحت أبوابها لهذا الأدب، ويظل أدب الإيمان يتيماً، حائراً، لا يجد الفُسْحة حتى في الصحافة الإسلامية ووسائل إعلام العالم الإسلامي! وأكثر من ذلك فإنَّ رجال الحداثة تتلقَّفهم وسائل الإعلام الأجنبية والدولية، وتضفي عليهم البريق والدعاية والإعلام، وتبرزهم في كل ميدان: في الرسم التشكيلي، في الشعر ا لحديث، في القصة المنحرفة، وتفرَدُ لهم المهرجانات الواسعة، على مستوى دولي.

أما الاقتصاد فقد جمع كذلك خصائص الحداثة الرئيسة ومضى معها، فغذَّاها وغذّته. لقد حملت الرأسمالية الخصائص الأساسية للحداثة كما حملت الديمقراطية في السياسة، وحملت الاشتراكية من خصائص الحداثة ما حملته المادية الجدلية والمادية التاريخية في الفكر، وما حملته ديكتاتورية البروليتاريا في الواقع السياسي.

من هنا تبرز «للحداثة» صفتها الفريدة العجيبة، وهي قدرتها على جمع المتناقضات. لقد ظهرت في العالم الرأسمالي الديمقراطي، وعاشت فيه، ونمت وترعرعت. وغذاها العالم الرأسمالي في أمريكا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا وسائر دول أوروبا، والدول الأسكندنافية. وظهرت في قلب ما كان يُسمى بالاتحاد السوفياتي، وفي قلب الحزب الشيوعي، وبرز فيها شعراء مشهورون مثل «خليبنكوف» و«ماياكوفسكي» وغيرهما. والحداثة هي الحداثة هنا وهناك.

---

(١) مجلة الفصول العدد (٣) المجلد (٤) سنة ١٩٨٤م.

ولقد كان معظم رجال الحداثة في بعض الأقطار العربية من الاتجاه اليساري فيها. وإن لم يكونوا من اليساريين فإنهم من «الطبقة العائمة» التي قد تنتسب للإسلام ولا تلتزم به، وتحاربه إذا واتت الفرصة، وتعلن إسلامها مع غيرها دون التزام بالطبع حين يضطرها الواقع. وقد تتبنّى الشعارات الوطنيّة من خلال ولاء فاضح مكشوف للشرق أو للغرب. وقد تجد مرتعاً لها في أجواء القهر والهوان الذي تعيشه بعض الأقطار العربيّة، بسبب ما كسبت أيدي الناس من تخاذل وتقصير، وجهل وأهواء.

لقد كان من أخطر ما رافق ظهور الحداثة في القرن التاسع عشر على النحو الذي عرضناه ظهور «الحركة الصهيونيّة»، لتكون مثل الحداثة ملتقى المتناقضات، ولتُجمعَ على تأييدها السياسةُ الدولية كلها، الدول الغربية والشرقية، والرأسمالية والاشتراكية، والديمقراطية والديكتاتورية، ثمّ لتتولّى الحركة الصهيونية نفسها الإعلام المنهجيّ المركّز للحداثة في ميادينها المختلفة، ولرجالها المتعدّدين. وساهمت الحركة الصهيونية بنشر الانحلال الخلقيّ، والفتنة والفساد في الأرض، والجرائم والعدوان، وليتمثّل ذلك كله في أوسع جريمة عرفها الإنسان في تاريخه، ألا وهي العدوان الدوليّ على فلسطين المسلمة تقوده الصهيونيّة.

إن أفضل ما لدى الديمقراطية مما يتوهمه أبناؤها ودعاتها وأتباعها، كالحرّية الفردية المتفلّتة، وحقوق الإنسان المزعومة، هي أقلّ بكثير مما يقدّمه الإسلام من الحرية المتكاملة المتوازنة، وحقوق الإنسان المترابطة بالعقيدة والإيمان، وحرية الرأي المحميّة بالقرآن والسنة، ومنهج الحياة المتوازن المتناسق، وكرامة الإنسان التي يصونها الطهر والحرية والأمن والعدالة. وإن شرَّ ما تدعو إليه الديمقراطية، وهي العلمانية، هو أخطر ما يحاربه الإسلام، حين يدعو إلى الإيمان والتوحيد.

الولايات المتحدة الأمريكية والغرب معها تريد أن تدعو إلى تلك الديمقراطية، لينال الإنسان بها عندهم خدر الحرّية المتفلتة، وليُسْحَقَ الإنسان بها عندنا. ألا يريد المسلمون أن يدعوا إلى الإسلام، وأن يبلغوا رسالة الله إلى الناس؟!

وإن كان للديمقراطية والشيوعية من تفوّق فإنما في التفصيلات التطبيقية التي وضعوها لنظرياتهم، حتى تأخذ سبيلها إلى الممارسة والتطبيق. ولقد قصّر المسلمون في ذلك كثيراً حين لم يضعوا المناهج التنفيذية التطبيقية للحق المطلق الذي يدعو إليه الإسلام. فمازلنا ندعو للشورى ونحصر دعوانا في أن الشورى معلمة أم ملزمة. ثم لم ننجح بعدُ في تطبيقها مُعلمةً ولا ملزمة، ولم نضع لها مناهج الممارسة والتطبيق. وامتاز أولئك عنا بالنظام المفصّل والإدارة المتطورة والنمو العلمي، أبواب فتحها الله لعباده كلهم، لمن شاء أن ينهض بجهده وجدِّه، مهما كانت عقيدته ونظامه. فلقد تقدّم الإنسان في تاريخه الطويل في هذه الميادين في ظل مختلف العقائد التي عرفها. أما نحن في واقعنا اليوم، فقد قعدنا قعود العاجزين، ومددنا أيدينا نستجدي، حتى الكلمات والمصطلحات ركضنا وراءها لاهثين. وفي بعض بقاع الأرض يُسحق الإنسان وتُسحق كرامته، وتخنق في جوفه الكلمات وتموت في رأسه الأفكار، وتُطوَى عليه السجون فيُنسى فيها حتى يموت. الإنسان أرخصُ بضاعة فيها، في ديار الحضارة والرّقي، في حضارة القرن العشرين، حيث تقتله المخدرات والشهوات فيغيب فيها. فلا عجب إذا سَحَرَ بعضَ الناس بريقٌ خُلّب من الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية والحداثة التي مصدرها الغرب، و«التموضع الزمكاني».

وكلها تدَّعي العدالة والحرية وحقوق الإنسان، والإخاء الإنساني والمساواة، والأمن والسَّلام، وغيرَ ذلك من الرايات والشعارات ترفعها ثمَّ تمضي لتخدِّر الناس، ثمَّ تسقط هذه الرايات كلها على أبواب فلسطين وأفغانستان، وفي ساحات دار الإسلام! هناك تسقط الرايات ليُطرَد شعب كامل من أرضه، أرض الإسلام، ولتُسلَّم لليهود المهاجرين الذين لا يربطهم بالأرض نسب ولا تاريخ، ولا حق قديم ولا جديد! إجماعٌ دوليّ تلتقي فيه كلُّ المتناقضات، والحداثة التي صدرت من الغرب هي مُلتقي المتناقضات.

أما العجب العُجابُ فهو أن يظهر منا، من أنفسنا، من أهلينا، من يقول إن لليهود حقّاً في فلسطين، ولا نجد صهيونيّاً واحداً يُقرُّ بحقٍّ لمسلم أبداً. هذا هو أثرها في عالم السياسة.

وأعجب من ذلك أن يمتدَّ ضغط «الحداثة» إلى مختلف ديار المسلمين، وإلى مختلف

ميادين نشاطهم، حتى يتسلّل خدراً لذيذاً ونوماً هادئاً حتى تضيع الديار وتطوى الحقوق!

ديار الإسلام هنا تستطيع أن تقدِّم للعالم حقيقة الحرية والعدالة في أعظم رسالة عرفها الإنسان. إن أمة الإسلام تستطيع أن تنقذ البشرية كلها اليوم كما أنقذتها سابقاً، إذا صدقت ربّها وأوفت عهدها.

قد نجد في الديمقراطية في بلاد الغرب بعض المظاهر التي يحتاجها الإنسان في واقعه، والتي يبرز أثرها وأهميّتها حين نقارنها بما يجري في كثير من أقطار ما يُسمَّى «العالم الثالث». وأهم هذه المظاهر: الإدارة والنظام، والتطور الصناعي والعلمي. ولكن هذه جهود بشرية بلغتها شعوب مختلفة عبر التاريخ في ظل عقائد مختلفة. ولقد قدَّم المسلمون نماذج رائعة في تاريخهم الأول. فلماذا لا ينهض المسلمون اليوم فيعلنون هذه المظاهر كلها باسم الإسلام الذي سبق فضله في إعلانها للبشرية:

﴿... وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]

٥ ـ الحداثة في الفكر والأخلاق:

لقد كان فيما عرضناه صورة كافية عن المنحى الخلقي للحداثة، منحى يرسمه الجنس الملوّث والشهوة المتفلتة والخمور والمخدرات. وأكتفي هنا بذكر مثلين عن التصور الخلقي. الأول يكشف عن انحلال روابط الأسرة وتمزّقها. فهذا «جورج هيم» يكتب في مذكراته فيقول: «كان باستطاعتي أن أصبح واحداً من أعظم الشعراء لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»(١). وهو من رجال الحركة التعبيرية.

ومثل آخر يبيِّن لنا إسفاف النقد الأدبي حين تتناوله «البنيوية» والحداثة. فحين يحلِّل كمال أبوديب تحليلاً بنيوياً أبياتاً رائعة لابن الرومي:

حَيَّتْـك عنـا شَمالٌ طاف طائفها	بجنَّـة نفحتْ ريحـاً وريحـانـاً
هَبَّت سُحيراً فناجى الغصن صاحبه	مُوَسـوسـاً وتـداعى الـطير إعـلاناً
ورقٌ تُغـنّي على خُضرٍ مُهـدَّلـة	تسمـو بها وتمسُّ الأرض أحيـانـاً
تخال طائـرهـا نشـوان من طرب	والغصن من هزِّه عطفيـه نشـوانـا

(١) كتاب الحداثة: (ص: ٢٦٩).

حين يسمو ابن الرومي في هذه الأبيات لفظاً ومعنى وصورة، وحين يُعبِّر هو عن حركة الغصون بالسموّ «تسمو بها. . . » فإن كمال أبوديب يهبط إلى أسفل سافلين وهو يحلل هذه الأبيات بُنيوياً. ونقتطف من هبوطه وسوء أدبه فقرة: «أخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان يجسد تلاقيهما النهائي توحُّد التصوّرات. . . هاتان الحركتان هما الحركة الأفقية. . . ثم الحركة الشاقولية. . . تنضحان بِنَشْوَة جنسيَّةٍ تنبع من حركة الاتصال الأفقية، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط». لقد هبط أبوديب ولم يصعد أبداً.

والبنيوية ابنة الحداثة، أو شكل من أشكالها. يقول كمال أبوديب عنها: «ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يُعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفنّ الحديث وبعد أن رسم «بيكاسو» كراسيه - كما يُعبِّر «روجيه غارودي» - أصبح محالاً أن نرى كرسيّاً كما كان يراه الذين سبقوا «بيكاسو». ومع البنيويه ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود - الإنسان، الثقافة، الطبيعة - كما كان يُعاينه الذين سبقوا البنيوية»[1] ضلال صريح وتيه وظلام! فالإسلام جاء قبل البنيوية بنظرته الإيمانية المتميّزة للوجود كله. فهل أصبح كمال أبوديب يُنكر نظرة الإيمان ووضاءة الإسلام ودخل في ظلمة البنيوية وارتبط مع الحركتين الأُخريين، ارتبط مع ماركس وبيكاسو وأمثالهما؟!

إنه تجلٍّ دون خفاء، كما سمى كمال أبوديب كتابه، تجلٍّ للضلالة ووضوح في العماية! إنّه، كما قال: «تثوير جذريّ لمعاينة الوجود كله»، فهل هذه كلمة الفتنة والشرك؟!

من هذا الفكر، من هذا التثوير الجذري، تنبع أخلاق حداثيّة جديدة تمزِّق الأُسرة ووشائجها، وتطلق المرأة سلعة رخيصة تتقاذفها أمواج الجنس، تحت رايات الحرية والتقدم والمساواة.

---

(١) كتاب جدلية الخفاء والتجلّي للدكتور كمال أبو ديب. (ص: ٨،٧).

ولابد هنا أن نشير إلى أن العالم اليوم بدأ يشعر بهول الجريمة التي ارتكبها بحق المرأة، والجريمة التي ارتكبها بنشر الخمور. والعالم يحاول أن يعالج ذلك بأساليبه المادية. وقد أشرنا إلى مرض «الإيدز» وأسلوبهم في علاجه. ويحسن هنا أن نقتبس فقرات من كتاب «البيريسترويكا» لجورباتشوف: «ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المميِّزة المتعلقة بدورها، أمّاً وربّة أسرة. كما كدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل عنها مربيّة للأطفال. فلم يعد لدى المرأة العاملة في البناء وفي الإنتاج وفي قطاع الخدمات وحق العلم والإبداع، ما يكفي من الوقت للاهتمام بالشئون الحياتية اليومية، كإدارة المنزل وتربية الأطفال، وحتى مجرّد الراحة المنزلية. وقد تبيّن أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والشباب، وفي قضايا خلقية اجتماعية وتربوية وحتى إنتاجية، إنما يتعلق بضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية»[1]. ويقول: «المشكلة الأخرى التي لدينا هي ممارسة المرأة للأعمال المجهدة التي تنعكس سلباً على حالتها الجسدية»[2].

أما بالنسبة للخمور فهو يقول: «إننا سنستمر بحزم في مكافحة ظاهرة السكر وتعاطي الخمور. وتمتدُّ جذور هذه السيئة الاجتماعية بعيداً في التاريخ، وهي قد أصبحت عادة ليس من السهل مكافحتها...»[3].

من السهل أن يكتشفوا الأضرار الخطيرة الناتجة عن أسلوب معاملة المرأة، وعن انتشار الخمور في عام ١٩٨٨م. ما كان أجدر بالإنسان أن يسمع كلام الله الذي أوحى به إلى أنبيائه ورسله قبل آلاف السنين، فيوفر على البشريّة هذه المآسي كلها.

أما وقد عرفوها فهل يستطيعون بأساليبهم معالجة هذه الأخطار؟!.

أما في الغرب فقد رأوا كلَّ هذه الأخطار والأمراض والمآسي، ولكنهم يحاولون العلاج على نفس الأساليب الحداثية المادية، في أجواء لهيب الشهوة والجنس! وفي روسيا سيعالجونها بنفس الماديّة الحداثيّة، المنعزلة عن الإيمان والتوحيد. فأنى لهم أن يصيبوا

(١) كتاب البيريسترويكا لجورباتشوف. (ص: ١٦٦).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٦٧).

(٣) المرجع السابق. (ص: ١٤٥).

نجاحاً، إلا بريقاً خُلَّباً سرعان ما يطويه ظلام الإلحاد.

إن إلغاء هذه المفاسد من حياة المجتمع لا يتمّ بإصدار قرار في جوّ مقبل على الشهوة نافرٍ من الإيمان. إنها تحتاج إلى معالجة حقيقية تستوعب طاقة الأمة وإمكاناتها ووسائلها تربيةً وتعليماً، ومعالجةً وبناءً. إنها تحتاج إلى ذلك كله من خلال عقيدة وإيمان، تدخل النفوس وتعمُر القلوبَ، وترجو الله واليوم الآخر.



الفصل الثالث



الحداثة بين المادية الرأسمالية والمادية الماركسية

بين الرأسمالية والمادية الماركسية صراع طويل. هو في حقيقته صراع مصالح غلّفته القوى المتصارعة بالفكر والعقائد، حتى بدا أن الصراع هو صراع فكريّ. ومن خلال هذا الصراع كان الناس يذهلون حين يجدون نقاط لقاء اجتمعت فيها هذه القوى. والحقيقة أنه لا عجب في ذلك أبداً. فهنالك دائماً ميدانان واسعان للقائهما: لقاء آنّي متقطع للمصالح المتصارعة، ولقاء ممتدّ في النظرة الماديَّة للحياة. الرأسمالية التي صنعت الديمقراطية صَنعتْ معها العلمانيّة، حتى أصبحت ملازمةً لها ومعْلَماً رئيساً لها. لقد صنعَتْ العلمانيّة لتعزل الدين عن الحياة، ولتُنصِّب العلم إلهاً مع آلهة أُخرى تتزاحم اليوم في واقع الإنسان. الديمقراطية لا تمنعك من أن تتخذ إلهاً مع آلهتها، ولكن لابد من آلهتها. فمن هنا جاءت النظرة المادية للحياة لتقود ميادين النشاط الإنسانيّ كله. أما الشيوعية فقد كفرت بالله ونصَّبت إلهاً واحداً هو الإنسان نفسه، الإنسان الذي هو مدار النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية. وفي هذا الميدان الماديّ تلتقي الرأسمالية والشيوعية لقاءً ممتدًّا، لقاءً حَمَلْته «الحداثة» كما عرَّفها رجَالُها بكل أبعادها وآفاقها.

من هنا نرى كيف أن الحركة الحداثيّة «المستقبلية» استطاعت أن تتفاعل في إيطاليا مع القومية الفاشية بكلّ جنونها، واستطاعت أن تعيش في روسيا مع الحزب الشيوعي. وكلاهما، هنا وهناك، شنّ الحرب نفسها على الدين واللغة والتراث كما رأينا سابقاً.

الديمقراطية التي يحملها الغرب ويدعو لها بكل قوته لا تقول لك مباشرة اترك دينك،

بل تقول لك اختر النظام الذي تريده لحياتك بعد أن تطبق ديمقراطيّتنا. ويقولون بوضوح إن أهمَّ ما فيها حرّية الفرد كما يرونها هم، ومساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة، وإطلاق حرية المرأة بالزنا وإطلاق حرية الرجل بالزنا، على أن يحمي القانون والدستور جميع هذه الحريات. وكذلك حرّية كل إنسان في أن يعبد الإله الذي يريده، ولا حق لأحد أن يعترض على أحد، والقانون يحمي ذلك كله في ظاهره. ولكنه من خلال الأساليب الديمقراطية ذاتها وكواليسها، يدفعون هذا ويكبحون ذاك. وبعد ذلك إن شئت أيها المسلم فاعبد ربك وكن مسلماً في هذا الجو «الديمقراطي البهيج» لا تقل إن الخمر حرام والزنا حرام، والحجاب واجب، لا تقل هذا، فدع كلّ إنسان يمارس حرّيته! وحين يستدعي الأمر فإن خصائص الديمقراطيّة هذه تُفْرَض بالسلاح والقوة! إنها «الحريّة» وإنها «الديمقراطية»!

وقد تعلمت روسيا هذا الأسلوب الحداثيَّ مؤخراً، وأعلنت حرية الأديان، وفرح النائمون كلهم! وهكذا تحمل الديمقراطية والشيوعية معاً الحداثة في حياة الناس سلماً أو حرباً، وهكذا تلتقي العلمانية والإلحاد، والديمقراطية والديكتاتورية.

المادية الجدلية تعتبر أن المحتوى الحقيقي للتطور هو الصراع بين المتناقضات. لا يوجد سلم أبداً. إنه صراع، وإن الصراع وحده هو الذي يولد التطور فلماذا يدعون إلى السلم العالمي؟! أليس من الأعدل أن يدعوا إلى الصراع العالمي ليكونوا أصدق مع أنفسهم؟! وأصدق مع ما يفعلون حقيقة؟! والحداثة تعتبر التطور كذلك هو التغيير المستمر الناتج عن التناقضات الثنائية والجدلية.

المادية الجدليَّة تعتبر أنه عند دراسة أي حادث فلابد من دراسة الظروف والعلاقات فهي وحدها التي تهم. ولقد سبقت معنا نصوص الحداثة التي تشير إلى نفس الخصائص هذه فيها. ونسأل المادية الجدلية ونسأل الحداثة، على أي أساس تدرس الظروف والعلاقات، فكل عقيدة ودين تقوّمها على نحو مختلف؟! وكلّ تقويم يختلف من زمن إلى زمن، ومن أمة إلى أمة. والأحداث والظروف كذلك مرتبطة كلها بسنن الله في الكون، وبقضائه وقدره، فأين يُطوى هذا كله؟! ومع كل حادث لا تُدرس العلاقات والظروف وحدها، بل يجب

دراسة عناصر الحادث لا علاقاته فحسب! فكيف يترك هذا كله؟!

ترى المادية الجدلية أن الطبيعة في حالة حركة دائمة وتغيُّر مستمر. وتقرر كذلك أنه ليس من شيء لا يُغلب ولا يُقْهر إلا الشيء الذي يولد ويتطور. ويعنون بذلك الإنسان. إنه الكبر والغرور في أسوأ حالاته.

والحداثة تقرر الشيء ذاته، وقد سبق ذكر نصوصها على ذلك. ويردّ القرآن الكريم على ذلك كله ليُبيِّن أن الحركة والسكون والثبات والتغيّر كل ذلك بأمر الله، لِيُرينا آيات بينات، تدلُّ على عظمة الله وقدرته، ربِّ السموات والأرض وما بينهما، ورب العرش العظيم، ربِّ كلِّ شيء.

وتعتبر المادية الجدلية أن التطور هو حركة تنتقل من تغيّرات كميّة ضئيلة وخفيّة إلى تغيّرات ظاهرة كيفية، سريعة فجائية. ويستشهدون على ذلك بغليان الماء وتحوّله إلى بخار ويريدون أن يطبقوا هذا على تغيّرات المجتمع. وقد سبق أن مرّ معنا في الصفحات السابقة نصوص الحداثة التي تشير إلى ذلك. وهذا مثل على ما سبق أن ذكرناه من أنهم يأخذون جزئية في الحياة، في بيئة محدودة، وزمن محدود، وقدرات محدودة، ليجعلوا منها حقّاً مطلقاً. ثمَّ يناقضون أنفسهم حين يجعلون من أُسس الحداثة والماركسية عدم وجود حق مطلق أو قانون مطلق، وأن كلَّ شيء متغيّر!

والمادية الجدلية تفسِّر الكون على أنه ذاتيّ الجوهر، مستغنياً عن خالق أو موجد له. والحداثة تشير إلى ذلك بأكثر من أسلوب. أما الحجة والدليل فلا يقدّمونها على دعواهم الباطلة تلك. وحسبهم أنهم وضعوا هذا التصوّر من عند أنفسهم، ثمَّ جعلوه حقّاً مطلقاً حسب وهمهم. هكذا قال الفيلسوفان اليونانيان ديمقريط وأبيقور، وهكذا قال الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر لاميتري وغولباخ وديدرو، وهكذا قال الألماني لودفيج فيورباخ، ثمَّ تبعهم ماركس وإنجلز، ونصُّوا جميعهم على أن المادية تعني أن العالم الذي يحيط بنا لم يخلقْه أحد. وهكذا قال لينين. والحداثة تبّنت النظرة المادية، ولقد سبقت الإشارة إلى موقف الحداثة من الدين. وحين يرفض الإسلام النظرية المادية من جذورها وساقها وفروعها، فإنه يرفض النظرية المثالية التي تعتبر الروح أسبق من المادة، ثمّ يختلفون

في أمر الروح ويتيهون في كفر وضلال مثل الماديين.

وفي واقع الممارسة فإن الرأسمالية والديمقراطية تمثِّل فلسفة ماديَّة مهما رفعت بعد ذلك من شعارات نظرية. وتصبح «الحداثة» في حقيقتها ساحة لقاء المادية الرأسمالية والمادية الماركسية.



الفصل الرابع

أثر الحداثة في الواقع الإسلامي

الأمة المسلمة صاحبة رسالة في الحياة، رسالة ربانية خصّها الله بها، رسالة الإسلام. فالأصل إذن أن تكون الأمة المسلمة كلُّها، بمختلف ديارها ومؤسساتها وطاقتها حاملة للدعوة الإسلامية في الأرض، تدعو النّاس كلهم إليها من جميع منابر الأرض، فنكون عندئذ نحن الذين يقدّمون ويعطون ويؤثّرون.

أما حين تتخلّى الأمة عن رسالتها، أو تنحصر المهمة في طائفة وتغفو سائر الأُمّة، فعندئذ تصبح هي التي تأخذ وتتلّقى، وتتأثر وتخضع، وتصبح أبوابها مشرعة لكل غازٍ.

لا ننكر أنه كان للحداثة بمختلف اتجاهاتها ضغط كبير على واقع المجتمع الإسلامي، وأن رجالها، أو بعضهم، احتلوا مراكز في واقع المجتمع في مختلف بلاد المسلمين جهاراً أو متسترين.

ولا ننكر أن ضغط الحداثة مازال يزداد في واقعنا الإسلامي اليوم. لقد استطاع رجال الحداثة «المنتسبون» إلى الإسلام، أو رجالها المسيحيون، المقيمون في دار الإسلام، أو الذين عادوا بعد انتهاء ابتعاثهم إلى الغرب كما حدث في أواخر القرن التاسع عشر، لقد استطاع هؤلاء أن يتركوا أثراً خطيراً في واقعنا بإصرارهم على الانحراف من ناحية، وبما وجدوه من دعم وتأييد من السلطة أو من المؤسسات الأجنبية المعادية للإسلام، أو من الدول المسيحية نفسها المحتلة لبلادنا أو بعد انتهاء احتلالها.

عاد رفاعة رافع الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر من بعثته في فرنسا ليدعو إلى التبعية المطلقة لأوروبا. وجاء سلامة موسى وطه حسين وجبران خليل جبران لا يقلون كثيراً

عن رفاعة في دعوته كلها أو في بعض جوانبها الرئيسة. وكثر رجالها ونموا حتى ظهر أدونيس وزوجته خالدة سعيد، والدكتور كمال أبوديب، وعبدالله العروي وصلاح عبدالصبور، وعبدالعزيز المقالح وكثير غيرهم. ودعت «نازك الملائكة» إلى الشعر الحر، وتلّقف الحداثيون هذه الدعوة فغذوها وانتشر الشعر الحرّ وأصبح له دعاته.

كان من أخطر آثار الاتجاه الحداثيّ في واقع الفكر الإسلامي هو ما تسلل من أفكار إلى ساحة العمل الإسلامي تحت مختلف الرايات والشعارات. أصبحت الديمقراطية مطلباً إسلامياً، والاشتراكية مطلباً إسلامياً كذلك، وأخيراً ظهر من يهوِّن من أمر الحداثة ويدعو إلى حداثة إسلامية، وقد يطلع علينا غداً من ينادي بالبيروستريكا الإسلامية. وظهر ما أسموه «المسلم المعاصر» والإسلام العصري، والإسلام اليساري، واليسار الإسلامي، حتى امتلأت الساحة الإسلامية بالمتناقضات التي يصعب تعدادها هنا.

يضاف إلى ذلك ما ظهر من حركات تدعو إلى التوفيق بين الإسلام وغيره من الديانات. وربما عقدت ندوات وسافرت بعثات، ونسوا جميعهم قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

[البقرة: ١٢٠]

ومما ساعد على هذا التأثير، كما نعْتقد، الهزائم المتتالية التي مُني بها المسلمون في العصر الحديث، والتخلف الواضح، والجهل الممتدّ الواسع بين عامة المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله. وهنالك سبب آخر كذلك هو أن المسلمين لم يقدِّموا مبادئهم من خلال تفصيلات جزئية توضح صدق التطبيق والممارسة في الواقع. وأما الغرب فإنه يقدم نظماً متكاملة بضلالها وفسادها وزخارفها في أدق التفاصيل والجزئيات. فحين ندعو إلى الشورى فدعوتنا لا تتجاوز المبادىء العامة التي عرضها منهاج الله وممارسة النُبوة لها وممارسة الخلفاء الراشدين، دون أن نجد في واقعنا ممارسة عملية إيمانية ترقى إلى مستوى حاجة الناس. فتأتي الديمقراطية لتشعر الناس بأنها تلبّي حاجاتهم، فيقبلون عليها، وقس على ذلك

الوضع الاقتصادي. حتى أصبحنا كلما ظهر مصطلح جديد، حق أو باطل، هرعنا لنثبت أن الإسـلام قد سبق إلى ذلـك. والنـاس لا تهمهم هذه الحقيقـة الفكرية التاريخية إن صحّت، ولكن يهمهم واقعهم وما يعالجه.

وانتشر الشعر الحرُّ كذلك بين بعض الشُّعَراء المسلمين، تابعين مقلِّدين متأثرين، دون أن يتأملوا أو يتدبروا، ودفعهم المنطق الحداثيّ نفسه، منطق السعي إلى الجديد، ومحاولة الانفصـام عن المـاضي، وادّعـاء الملل من القـافية المتكررة والـوزن المتكرر، كما ادعى «مـاياكـوفسكي» من قبل أنه ملَّ شروق الشمس وغروبها المتكررين. انتشر إذن الشعر الحديث وتسلل معه المنطق الحداثي تسللاً خفيّاً! وكان السبب في معظم الأحيان الجهل، وهبوط الموهبة الشعرية.

اضطراب الميزان بين أيدي بعض المسلمين ساعد كثيراً على تسلل الأفكار والأساليب والاتجاه. ولا نستطيع في هذه العجالة أن نفصِّل أكثر من ذلك، مع يقيننا بأن هذه القضية تحتاج إلى دراسة متأنيّة مفصّلة، لأهميتها وخطورتها، ولندرس الواقع دراسة تقوم على ميزان عادل أمين.

ولقـد تسللت كلمات وتعبـيرات ومصـطلحات. وكان من أغرب ذلك شيوع بعض التعبـيرات النصرانيّة لدى الشعـراء المنتسبـين إلى الإسلام مثل: الصليب، القدّيس، إيقونة، وغير ذلك. وكذلك تسرب فكر نصراني من الإنجيل، أو مما شاع بين النصارى، إلى كتابات بعض المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام. وإنك لتجد أمثلة كثيرة على ذلك عند الأدباء الحداثيين وكتابهم، وبخاصة عندما يتعرّضون لبعض نبأ الغيب، مثل علاقة آدم وحواء، وكيف أغراهما الشيطان وهما في الجنة، فاعتبر بعضهم أن حوّاء هي التي أغوت آدم، وحسبـوا أن هذا المفهوم من القرآن أو ادّعوا ذلك. وأمثلة أخرى يضيق عنها هذا البحث الموجز.

ولكن التأثير الأخطر هو التحويل الجذري للفكر والأدب، وقلب الموازين كلها في فئة من النـاس، خلقهم الله كما خلق غيرهم على الفـطرة، فجـاءتهم شياطـين الحـداثـة فاجتالتهم، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: عن عياش المجاشعي: أن رسول الله ﷺ

قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علّمني، يومي هذا. كلُّ مالٍ نحلته عبداً حلالٌ. وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمَرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزّل به سلطاناً...» (رواه مسلم)(1)

ولنستمع إلى بعض الأمثلة على ذلك، فهذا عبدالعزيز المقالح يقول:(2)

كان الله ـ قديماً ـ حُبّاً، كان سحابة.

كان نهاراً في الليل.

إلى أن يقول:

صار الله رماداً...

صمتاً...

ولن يعجز الحداثيون عن تأويل سوء الأدب هذا والكفر الصريح بوسيلة جدلية أو أخرى. ولكن هذا الجدل والتأويل كله مراء وكفر وضلال.

وصلاح عبدالصبور يقول(3):

«هذ زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين اليتي رجل سأم...».

هبوط في اللفظة والتعبير والأسلوب، وهبوط في الصورة والمعنى! سهيل السيد أحمد من الأردن في مهرجان جرش يقول فيها يسمى قصيدة(4):

«باسمك، (يقصد العربيّ)، تعلن هذه النواقس للسماء، باسمك تقترب الساعة أو تبدأ المرحلة»، هل هذا شعر أم نثر أم لغو! وباسمك هنا يخاطب بها العربيّ!

ويقول: عبدالرزاق عبدالواحد ليبينّ الوثنيّة في وضوحها:(5)

---

(1) صحيح مسلم. كتاب الجنّة (51). باب (16). حديث (2865/63).

(2) كتاب إضاءات نقدية ـ مجموعة من الكتاب العرب عن عبدالعزيز المقالح. (ص: 11).

(3) ديوان أقول لكم لصلاح عبدالصبور (ص: 65).

(4) كتاب الشعر في جرش. (ص: 225).

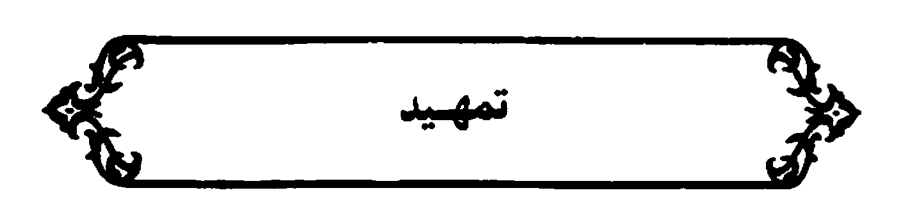
(5) المرجع السابق. (ص: 295).

لك وحدك أملك أن أرخّص نفسي، لك وحدك أحني رأسي، لجلالك وحدك، أرفع مخموراً رأسي، مترعة بدمي، مختوم باسمك حتى ترفع الأوراق، ياذا الملكوت باسمك نبدأ. واسمك آخر ما ننطق حتى نموت. باسم (العراق)!



الباب الثالث

موقف الأدب الإسلامي من الحداثة



تمهيد

لدراسة موقف الأدب الإسلاميّ من الحداثة سنعتمد الأُسس والقضايا التي سبق عرضها في البابين السابقين، لتكون الموجِّه لتحديد الموقف على أساس إيمانيّ صادق.

ولقد عرضنا في الافتتاح والتمهيد في أول الكتاب لمحات عن الأدب الإسلامي. وفي هذا الباب سنعرض لمحات أوسع لتحدّد الموقف والاتجاه.

سنعرض القضايا الرئيسة التي يقوم عليها تصوّر أيّ أدب. وسنبين ما يتبنّاه الإسلام والأدب الإسلامي تبعاً له، وما تتبناه الحداثة.

وفي كلّ حال سنعتمد نصوص القرآن والسنّة لنحدِّد خصائص الأدب الإسلامي وموقفه من هذه القضية أو تلك، وسنعتمد نصُوص رجال الحداثة أنفسهم ودعاتها لنبيِّن موقفهم من هذه القضية أو تلك أيضاً.

القضية الأولى هي التصوّر للكون والحياة والإنسان ومصادر العلم والمعرفة.

والقضية الثانية هي النظرة للماضي والتراث والأُسطورة.

والقضية الثالثة هي النموّ والتطور، والقضية الرابعة هي اللغة والنظرة إليها ووظيفتها.

والقضية الخامسة هي الجمال الفنيّ وولادة النصّ الأدبي وانطلاقته.

هذه القضايا الخمس تُحدِّد بشكلٍ حاسم جَليّ موقف الأَدب الإسلامي من الحداثة حتى لا يبقى هناك اختلاط في الرؤية أو اضطراب.

ولقد فصّل منهاج الله، كما سنرى، كلّ قضية من هذه القضايا حتى لا يكون لأحد حجّة أبداً، ولتقوم الحجة على كل إنسان نزع إلى الانحراف عن الصراط المستقيم، وعن جادة الحق. والحق الذي نؤمن به هو ما ينصّ عليه منهاج الله ليرسم للإنسان درباً يمضي عليه في جميع شؤون حياته وميادينها على صراط مستقيم، على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا

يزيغ عنها إلا هالك.

لم يأت منهاج الله ليبيّن الشعار فحسب، وإنما جاء ليرسم نهجاً للحياة كلها، ولينير الدّرب، ويوضّح السبيل في شتى الميادين، ومن هذه الميادين ميدان الكلمة والأدب.



الفصل الأول

التصور للكون والحياة والإنسان
بين الأدب الإسلامي والحداثة

هنالك فرق شاسع بين نظرة الإسلام والأدب الإسلامي للكون والحياة والإنسان وتصور الحداثة لهذا كله. فرق كبير لا يسمح لهذه النظرة أن تلتقي بتلك.

فمنطلق التصور كله في الإسلام هو من تصور الألوهية والربوبية كما يعرضه منهاج الله. فالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، والله هو خالق كل شيء وهو رب كل شيء، له الأسماء الحسنى كلها:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الحشر: ٢٣، ٢٤)

وكذلك:

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الحديد: ٢ :٣)

هذه هي الألوهية الممتدُّ وصفها في منهاج الله وصْفاً ميسّراً للذكر، وصفاً لا يدع حجة لأحد أن لا يتدبره ويعيه.

والربوبية نتدبر تصورها ونعيها من منهاج الله كذلك. وهنا نأخذ قبسات لنشير إلى فكرة وتصور، وليعود المؤمن إلى منهاج الله ليأخذ من هناك التصور المتكامل المتناسق. ولا نستطيع أن نفصل تصور الألوهية عن الربوبية فهي من صفات الله الذي لا إله إلا هو:

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (القصص: ٣٠)

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾

(الصافات: ٤ ـ ٥)

﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ . . . ﴾ (الأنعام:١٦٤)

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(المؤمنون: ١١٦)

وهذه الآية الأخيرة جمعت اسم الجلالة (الله)، ومعنى الألوهية ومعنى الربوبية في صورة معجزة ميسرة للذكر والتدبر، لمن شاء أن يتدبّر.

* * *

أما الكون فيرسم منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ لوحة رائعة له تعطي العلم الحق عن خلقه ومسيرته وسننه وعن نهايته كذلك. وكما قلنا سابقاً فلا نستطيع هنا إلا أن نقدم قبسات لتذكّر وتعين:

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(الدخان: ٣٨ ـ ٤٢)

وكذلك:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(فصلت: ٩ ـ ١٢)

وتمضي الآيات الكريمة تفصل في خلق الكون وامتداده ونهايته بصورة معجزة لتقدّم العلم الحق ولتجعله ميسّراً للذكر والتدبر:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الزمر: ٦٨)

وتأتي نهاية الكون حين تقوم الساعة ولتبدأ الحياة الآخرة:

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ (التكوير: ١ ـ ١٤)

صورة هائلة للكون حين تقوم الساعة. وتمتد هذه الصورة بتفصيلات واسعة في منهاج

الله ، لتتناسق مع سائر الموضوعات وتتكامل كلها لتعرض لنا المنهاج الرباني المعجز، والصورة الكاملة المتناسقة للألوهية والربوبية والكون والحياة والخلق الله كله.

ويحاول العلماء أن يصلوا بأبحاثهم البشرية وجهودهم المحدودة وطاقاتهم الإنسانية إلى حقيقة بدء الكون والحياة وإلى نهايتها ومن أكثر الدراسات انتشاراً تلك التي ظهرت أخيراً في كتاب : موجز تاريخ الزمن "A Brief History Of Time" لمؤلفه "Stephen W. Hawk-ing" أستاذ الرياضيات في جامعة كيمبردج».

لقد حاول المؤلف أن يصل بالدراسات إلى نشأة الكون التي اعتبرها أو سماها "The Big Bang" أي «الانفجار الكبير» واعتبر نهاية الكون ناتجة عن "Black Holes" أي الثقوب السوداء وتجاهل التصورات الدينية لبداية الكون ونهايته بانياً رفضه على ما ورد في التوراة والإنجيل من معلومات تخالف العلم. وقد يعذر في ذلك لولا أنه أدخل الإسلام وما حمله من علم مع ما اعتبره أخطاء في التوراة والإنجيل. وكان واضحاً أنه لا يعرف الإسلام ولم يدرسه وإنما ظنّ أن ما يعرضه الإسلام عن بدء الكون ونهايته هو مشابه لما عرضته اليهودية والمسيحية، دون أن يفطن إلى ما طرأ من تحريف في الديانات السابقة، وما أدخله بعض رجال الدين لديهم من آراء بشرية أصبحت جزءاً من الدين. فهو يقول في كتابه :

«لقد دُرست هذه الموضوعات قبل اليوم بزمن كثير في علوم الكونيات، وفيما جاءت به الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام، حين اعتبرت هذه أن الكون بدأ في لحظة محددة من الزمن لا تبتعد عن عصرنا الحالي كثيراً. وقال إن القدّيس أوجاستين اعتبر أن الكون نشأ منذ خمسة آلاف سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام»[1].

ولو أن المؤلف درس القرآن والسنة لجاءت دراساته أقرب إلى الدقة، ولوفّر على نفسه جهداً كثيراً، ولاتجهت دراساته إلى منحى أسلم وأعدل. واسمع مقدم الكتاب «كارل ساجان Carl Sagan » من جامعة كورنل "Cornell University" ماذا يقول: «إن هذا الكتاب هو عن الإله أيضاً أو عن غياب الإله. فكلمة الإله تملأ صفحات الكتاب. إن

(١) «A Brief History of Time» طبع الكتاب أكثر من (٣٥) طبعة منذ سنة ١٩٨٨م حتى سنة ١٩٩٢م. (ص: ٧).

المؤلف هوكنج ينطلق في ميدان البحث ليجيب على سؤال آنشتاين الشهير هل كان للإله أي اختيار أو رأي في خلق الكـون. إن هوكنج، كما يذكر هو نفسه، يحاول أن يدرس ويفهم عقل الإله. وهذه المحاولة جعلته أكثر من ذي قبل يصل إلى نتيجة: إن الكون لا حدّ له، لا بداية له ولا نهاية، ولا يوجد شيء لخالق أن يعمله»[1]

وأنـا أقرأ هذا الكتاب المذكور كنت أشفق حقّاً على المؤلف وهو يتيه في ظلام شديد دامس، يتخبَّط بالظنون والافتراضات، ويحاول أن ينزلها منزلة الحقائق، دون أن يدرك أنه إنسان مخلوق، محدود الطاقة والعلم، لا يستطيع بكل علومه وطاقاته أن يخترق الغيب:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الجن: ٢٦ ـ ٢٨)

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النمل: ٦٥)

* * *

أما الحياة فيفصِّل منهاجُ الله كلَّ شؤونها ومسيرتها ونهايتها، ويوضح غايتها. وهنا كذلك لا نستطيع أن نقدّم أكثر من قبسات لتعين وتذكر وليرجع من يريد أن يعرف الحق إلى منهاج الله:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك: ١ ـ ٢)

فالحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص وهي بذلك دار غرور، ينتهي بعدها الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار. فالموت حق على كل إنسان والبعث والحساب حق، والجنة والنار حق.

---

(١) المصدر السابق: (ص: X).

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الشورى: ٣٦)

وكذلك:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (العنكبوت: ٦٤)

وكذلك:

﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

(آل عمران: ١٨٥)

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الأعراف: ٣١، ٣٢)

وهكذا تمضي الآيات الكريمة تفصل في شأن الحياة الدنيا وتوضح أمرها لتكون الحياة الدنيا ممراً إلى دار الخلود.

وقد جعل الله في هذه الحياة الدنيا سنناً ماضية لا تتبدّل، ليكون للإنسان فيها آيات بيّنات دالة على الله الذي لا إله إلا هو، وليكون فيها عبرة ودروس:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾
(الأحزاب: ٦٢)

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (يوسف: ١١١)

* * *

أما الإنسان فهو مخلوق عبد لله ربه وخالقه. وتنشأ عزة الإنسان في الحياة الدنيا من هذه الحقيقة الرئيسة، من عبوديته لله ربّ العالمين ورب العرش العظيم وربّ كل شيء. بهذه العبودية يتحرّر الإنسان من عبوديته للأوثان والأساطير، يتحرّر من عبودية الإنسان للشهوات والأهواء والمصالح.

وهذا الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى وكرّمه الله وحمله في البرّ والبحر، ورزقه من الطيبات، وحمله الأمانة وجعل له بها هدفاً واضحاً في الحياة، مشرقاً في دربه ما صدق الله وأوفى بعهده. وحدّد الله سبحانه وتعالى مهمة الإنسان في الحياة الدنيا تحديداً دقيقاً واضحاً لتكون هذه المهمة هي سبيله إلى الهدف الحق الأكبر والأسمى وهو الجنّة. وهذه المهمة حددها منهاج الله بكلمات أربع جامعة هي: العبادة، الخلافة، الأمانة، العمارة، والاستعمار (بمعناها القرآني: ﴿واستعمركم فيها﴾ أي طلب منكم عمارتها). وهذه المهمة يمضي بها الإنسان في الحياة الدنيا من خلال ابتلاء يمحّص الله بها عباده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات برحمته وعفوه ومغفرته، ولتحقّ كلمة العذاب على الكافرين. فيدخل المؤمنون الجنّة برحمة الله، ويدخل الكافرون النار بما كسبت أيديهم وتحقُّ كلمة العذاب على الكافرين.

وخلق الله عباده كلهم على الفطرة، فطرة الإيمان فجاءت الشياطين فاجتالتهم وانحرفت بمن ضلّ عن جادة الحق. وأخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم في عالم الغيب، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم﴾، فشهدوا شهادة الحق: «لا إله إلا الله» حتى لم

يعد لأحد من عباد الله حجّة في كفر أو ضلالة. وجعل الله برحمته في الكون آيات تذكر الإنسان بربه وخالقه فعمي عنها الضّالون وخشع لها المؤمنون. وجعل الله برحمته في الحياة الدنيا، كما ذكرنا قبل قليل، سنناً لتكون آية وعبرة، وبعث الله الرسل والأنبياء حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وختم الأنبياء والرسل بمحمد ﷺ، وأنزل معه القرآن ليكون منهاج الله محجّة بيضاء للناس كلهم، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

يفصّل منهاج الله هذه الحقائق تفصيلاً معجزاً ميسّراً للذكر، حتى يعود الصادقون إلى منهاج الله صحبة عمر وحياة، فيجدوا الحق الذي لا يأتيه الباطل أبداً.

وكما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، كذلك أخذ الله من النبيين جميعاً العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين فشهدوا وبلّغوا وتمت الشهادتان حقّاً من عند الله:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

بهذه الحقائق التي عرضناها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حاولنا أن نوجز التصور القرآنيّ النابع من منهاج الله عن الكون والحياة والإنسان، ليكون هذا التصور هو التصوّر الملزم للأدب الإسلامي، وليخرج الأدب الإسلامي منه وينطلق منه ويمضي مصاحباً له لا يخرج عنه.

وبهذه الحقائق وسائر الحقائق الأُخرى في منهاج الله نخرج بقضايا محددة ترسم الصورة العامة لذلك كله:

١ ـ إن قضية الإيمان والتوحيد أخطر قضية في حياة كل إنسان وهي أكبر وأهم حقيقة في الكون كله.

٢ ـ إنها قضية الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وعندما تنحرف الفطرة بما يرتكب الإنسان من آثام ومعاص، وبما يصرّ عليه منها دون توبة، ينحرف الإيمان في الإنسان عندئذ.

٣ ـ لابدّ أن يحمل الإنسان المؤمن التصوّر الكامل المتناسق للأُلوهية والربوبية يأخذه من فطرته ومن منهاج الله، تصوراً يجمع الأسماء الحسنى كلها في آن واحد لا يسقط منها

شيء. ولابدّ أن يحمل كذلك التصور الكامل المتناسق لعبودية الإنسان لربه وخالقه.

٤ ـ قضية الإيمان والتوحيد تقضي أن يكون ولاء الإنسان الأول هو لله سبحانه وتعالى. ومن هذا الولاء ينبع أي ولاء آخر ويرتبط به. وكل ولاء مخالف للولاء لله هو خروج وانحراف عن الإيمان والتوحيد.

٥ ـ وكذلك يكون عهد الإنسان الأول مع الله. وكل عهد آخر ينبع من هذا العهد مع الله ويرتبط به. وكل عهد مصادم أو مخالف للعهد مع الله هو انحراف عن حقيقة الإيمان والتوحيد.

٦ ـ أن يكون الحبّ الأكبر للإنسان هو لله ولرسوله. وكل حبٍّ في حياته الدنيا ينبع من هذا الحب الأكبر ويرتبط به. وكل حبٍّ مخالف أو مصادم للحب الأكبر لله ولرسوله هو انحراف عن الإيمان والتوحيد.

٧ ـ إن قضية الإيمان والتوحيد هي قضية مفاصلة وحسم، وقضية تكاليف من عند الله والتزام بها، وقضية مسئولية وأمانة وحساب.

٨ ـ إن منهاج الله هو الذي يحدّد قضية الإيمان والتوحيد، والتكاليف والالتزام، والمسئولية والأمانة والحساب.

٩ ـ لذلك يكون أول الواجبات بعد الإيمان هو مصاحبة منهاج الله لمعرفة التكاليف والالتزام، والمسئولية والأمانة والحساب.

١٠ ـ ثم ينطلق المؤمن ليوفي بعهده وأمانته مبتدئاً بنفسه، ثم بدعوة الناس إلى هذه الرسالة العظيمة.

* * *

إننا نوضح هذه القضايا لندرك أن التصور الحق حدده الله رب العالمين. فليس لأحد من البشر أن يتبع هواه فيضع تصورات من عنده ثم ينسبها للإسلام مصادماً النصوص الصريحة.

فمن أهم ما نصّ عليه الإسلام هو منـزلة الكلمة ودور الأدب وشدّة المحاسبة على الكلمة يلقي بها الرجل فتهوي به في النار. وكما جاء في حديث رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «. . . وهل يكبّ الناس على وجوههم (أو قال على مناخرهم) في جهنم إلا حصائد ألسنتهم» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)[1]

من هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي وهو يحمل مسئولية رسالة، وأمانة عهد وميثاق.

* * *

فإذا كان هذا هو التصور الذي يعرضه منهاج الله عن الكون والحياة والإنسان، فماذا عرض رجال الحداثة؟!

لقد سبق معنا في الأبواب والفصول السابقة كثيراً من تصوراتهم عرضها كمال أبوديب، وأدونيس، وخالدة سعيد، وقبل ذلك كانت وهيجل وماركس وفريدريك انجلز، وقبل ذلك رجال من انكلترا وفرنسا، كلهم أخذوا من مصدر واحد هو وثنية اليونان وأساطيرهم.

ولا بأس أن نعيد هنا نماذج من تلك التصورات حتى يسهل مقارنتها مع الحق الذي يعرضه الإسلام.

يقول أدونيس: «الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة متعالية منفصلة عن الإنسان. التصوّف ذوب الألوهية جعله حركة في النفس، في أغوارها، أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله وأعطى للإنسان المتصوف طاقاته. المتصوف يحيا في سكر يسكر بدوره العالم. وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرّك بين يديه»[1].

---

(١) سنن الترمذي. كتاب الإيمان (٤١). باب (٨) حديث (٢٦١٦).

(٢) أدونيس. (علي أحمد سعيد). مقدمة للشعر العربي. دار العودة. بيروت ط٤ ١٩٨٣م. (ص: ١٢٧).

واضح أن الكلام لايخرج إلا من رجل ثمل فقد وعيه وتاه في ظلام دامس، وجهالة عمياء.

ويقول كمال أبوذيب: «ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الـوجـود.. ولأنها كذلك تصبح ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه، كما يعبر روجيه غاردوي، أصبح محالاً أن نرى كرسياً كما كان يراه الـذين سبقوا بيكاسو. ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العـلامـات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن ترى الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية»[1].

ونعيد ما قالتـه خالـدة سعيد: «... غير أن الحداثة أكثر من التجديد... وترتبط الحداثة بالانزياح المتسارع وأنماط العلاقات والإنتاج على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات...».

ثم تقول عن جبران: «... يجعل الإنسان مصدراً للمعايير بدلاً من أن يكون خاضعاً لمعايير من الخارج... كان جبران يستعيد للإنسان صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع وكشف الحقائق».[2].

هذا هو تصور الحداثة والبنيوية للألوهية والحياة والكون والإنسان. إنه تصوّر معارض كل المعـارضـة للتصور الإسلامي، بل إنه مصادم له كل المصادمة، خارج عن حقائق الإيمان والتوحيد، وعن كل ما عرضناه في الصفحات السابقة.

---

(١) د. كمال أبو ديب. كتاب جدلية الخفاء والتجلي. (ط: ٣) ١٩٨٤م ـ دار العلم للملايين. بيروت. (ص: ٧، ٨).

(٢) مجلة الفصول. مجلد (٤) عدد (٣) (ص: ٢٥، ٣٦).

وهذا التصوّر الباطل الذي أوجزناه، ليس جديداً ولم يبتدعه أدونيس أو كمال أبوديب أو خالدة سعيد أو غيرهم من عند أنفسهم، وإنما نقلوه نقلاً عن أوروبا وفلاسفتها.

ولقد سبق معنا ما قاله «كانت» عن التنوير: «التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية القائمة بداخله. إن هذه الوصاية تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من غيره. والإنسان لم ترشده الغريزة، ولم تغذّه المعلومات الجاهزة...»[1].

ويقول رندل كذلك: «... وهذا الفهم للحداثة يرتبط بالقضية الأوسع، قضية فلسفة علم الإنسان Anthropology. ومع امتداد الاتجاه العقلاني والثقافي الواسع امتداداً ضمّ عهد النهضة وعهد الإصلاح وعهد التنوير، فقد أخذت فلسفة علم الإنسان تعاد صياغتها لتدل على العلاقة بين الإنسان، أو الموضوع الإنساني "Human Subject" وبين عالمه الخاص، ليصبح هذا الموضوع الإنساني مستغنياً عن مصادر خارجية...»[2].

ولودفيج فيورباخ، كما ذكرنا سابقاً، جعل العقل والإنسان هو الإله. واعتبر الإنسان هو مركز الوجود كله. وقديماً قال ديمقريط وأبيقور: «إن هذا العالم لم يخلقه أحد». وقال لاميتري وغولباخ وديدرو الفرنسيين مثل هذا القول، وقامت النظرية المادية والجدلية. والنظرية المادية التاريخية على هذا التصور المادي الإلحادي.

وكما بينا سابقاً في فصل «جذور الحداثة» أن المادية والمثالية تشتركان بالانحراف الشديد عن الإيمان والتوحيد.

إن التصور الإسلامي الذي عرضناه عن الكون والحياة والإنسان يدْفع أدباً ملتزماً بالإسلام، وهذا التصور الذي عرضناه للحداثة عن الكون والحياة والإنسان يدفع أدباً آخر مختلفاً مصادماً للإسلام وتصوراته وأدبه.

والمذاهب الفلسفية الأوروبية كلها تتبنّى أفكاراً وتصورات مصادمة للإيمان والتوحيد. ومهما اختلفت في مذاهبها فإنها تلتقي عند هذه المصادمة والانحراف.

---

(١) جون. أف. رندل Origins of Modernity (ص: ١، ٢).

(٢) المرجع السابق، (ص: ٣).

إذن لا يمكن أن يكون السعي المتفلت من الإيمان، ولا يمكن أن يكون وعي العصور والحقب والأجيال، حسب التعريف الذي استشهد به محمد برادة، ولا يمكن أن تكون الرؤية للعالم والإنسان كما أرادها كمال أبوديب، ولا يمكن أن تكون المذاهب الفلسفية المتعددة سبيلاً واحداً. كلا! إنها سبل شتى على رأس كل منها شيطان يدعو إليها، إذا كانت هذه السبل متفلتة من الإيمان، عازلة له، مهما زيّنت نفسها بزينة الألقاب وزخرف القول. هذا ما يقرره رسول الله ﷺ.

الفصل الثاني

مصادر المعرفة
بين الأدب الإسلامي والحداثة

تعتبر الحداثة أن مصدر العلم والمعرفة ليس غيبياً، ولا هو خارج عن نطاق الإنسان وعالمه. وأن الإنسان نفسه مصدر المعايير، وأن المعارف القديمة التي تحوّلت بفعل ثباتها إلى معتقدات تنزاح وتتحول مثلها مثل الإنتاج وأنماط العلاقات، على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات. وسبق أن أوردنا ما يقوله «كانت» عن الإنسان من أنه لم ترشده الغريزة ولا المعلومات الجاهزة وإنما عليه أن يوفر كل شيء من مصادره الذاتية. . . ! بمثل هذا المنطق والمحتوى تتردّد تعبيرات كثيرة من عند أدونيس وخالدة سعيد وكمال أبوديب وغيرهم من رجال الحداثة، وكذلك في أوروبا منذ عهد اليونان إلى العصر الحاضر.

إلا أن الإسلام يقرّر مصادر أخرى للمعرفة والعلم في حياة الإنسان، وأن هذه المصادر كلها ترتبط بالله سبحانه وتعالى، على أساس من نظرة الإسلام الحقة للكون والحياة والإنسان:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

نعم! ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ . . . ﴾ قاعدة أساسية في

العلم والمعرفة في ميزان الإسلام.

ويسّر الله للإنسان مصادر للعلم برحمته وفضله، حتى يستطيع الإنسان أن يؤدي الأمانة التي حملها، ويقوم بالعبادة التي خُلِقَ من أجلها، ويحقق الخلافة والعمارة في الأرض، على منهج ربّانيّ حق.

وهذه المصادر كلها ميسّرة للإنسان مع الزمن كله. وهي تترابط كلها فيما بينها حتى تبدو كأنها مصدر واحد. كيف لا! والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى كذلك:

﴿ ... وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

إن علم المعرفة "Epistemology" يرفض هذا التصور كله، كما عرضنا سابقاً. ويرفض المصادر التي يحدّدها الإسلام للعلم والمعرفة.

ولننظر في مصادر العلم والمعرفة كما يحددها منهاج الله. ونعيد ما قلناه سابقاً من أننا نورد هنا قبسات، والتصور الكامل المتناسق لهذه المصادر هو في منهاج الله.

وأول هذه المصادر ما علمه الله سبحانه وتعالى لآدم في الجنة، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وغرس فيها الإيمان والتوحيد، ووهبها القدرات والنوازع والرغبات، حتى كأنها مستودع لما وهبه الله للإنسان من قدرات وطاقات.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(الروم: ٣٠)

والمصدر الثاني هو الوحي والنبوة، وما تبلغه النبوة لنا وحياً من عند الله، حقّاً مطلقاً،

خُتِم بالنبوّة الخاتمة، بمحمد ﷺ، وبالمنهاج الربّاني قرآناً وسنة ـ لساناً عربياً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ (فصلت: ٤١ ـ ٤٤).

وكذلك:

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨)

وكذلك:

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ (سبأ: ٦)

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ (هود: ١)

﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ (الرعد: ١)

هذا هو المصدر الغنيّ العظيم الممتدّ بالحق مع الزمن، يظلّ المؤمنون ينهلون منه

ليخوضوا بزادهم الكريم منه شتى الميادين، وليدفعوا بهذا الزاد الغني روائع الأدب الإسلاميّ.

والمصدر الثالث هو الكون الممدود وسعي الإنسان الممتد فيه، يتعرف من خلال سعيه وبحثه ودراساته على سنن الله في الكون والحياة، وفي واقع الإنسان وتاريخه، وهو يسعى سعي المؤمن لينظر فيبصر، ويتأمل فيعتبر، حتى يكون له من سعيه علم مفيد يبلغه على سنن لله ماضية وحكمة غالبة، ليرى من خلال هذا آيات لله بينات في الكون والحياة:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾

(لقمان: ٢٠)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ﴾ (فصلت: ٥٣)

سخر الله الكون للإنسان ليجوب آفاقه على سنن لله ثابتة، وليجمع ما يكتب الله له أن يجمع، وليرى من ذلك كله آيات بينات تزيده إيماناً بربّه وخالقه، وتزيده علماً بسننه. وتمتدّ الآيات في الأرض علماً يسعى له الإنسان:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) ﴾ (الذاريات: ٢٠).

وفي الإنسان نفسه:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ (الذاريات: ٢١)

وفي تاريخ الإنسان فى الأرض:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الروم : ٧ ـ ٩)

إن علم المعرفة (Epistemology)، وهو أحد العلوم التي تقوم عليها المسيرة التي عرضناها قبل قليل، يتجاهل مصادر العلم هذه بالصورة القرآنية. وكأن عصر التنوير وعصر الحداثة تنحصر علومها ونظرياتها في الآية (٧) السابق ذكرها أعلاه من سورة الروم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ومصدر رابع للمعرفة هو ترابط الأجيال واتصال العصور وتصفية التراث بميزان أمين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات : ١٣)

إن انطلاقة الأمة المؤمنة في الأرض وهي تحمل رسالة الله وتبلغها لشعوب الأرض كلها تفتح المجال لتعارف الشعوب على أسس طاهرة نظيفة، وقواعد عادلة حكيمة، تغني معارف الإنسان وتجاربه وتنمّيها ولا تعني الآية الكريمة تعارف الفساد إلى الفساد والفتنة إلى الفتنة.

إن هذا التصور أو ذاك يلعب دوراً هاماً في صياغة الأدب وفي معناه، وفي مسيرته وفي عطائه، فتصور الحياة والكون، وتصور الإنسان ودوره، وتصوره مصادر المعرفة، كما يعرض ذلك كُتّاب الحداثة، يدفع أدباً حداثياً مرتبطاً بهذا التصوّر.

وتصور الحياة والكون، وتصور الإنسان ودوره، وتصوّر مصادر المعرفة، من خلال منهاج الله، من خلال التوحيد والإيمان، يدفع أدباً آخر مرتبطاً بهذا التصور، مرتبطاً بمنهاج الله. هذا الأدب الذي يخرج من قلب هذا التصور الإيماني هو الأدب الإسلامي، يخرج

رافضاً للأدب الـذي ينتج من التصور المبتوت عن التوحيد، المعزول عن منهاج الله، التصور الذي يرى الإنسان مركز الكون والحياة، ولابد أن نعطي هنا مثلاً لهذا التصور الذي يرفضه الإسلام، ويرفضه الأدب الإسلامي.

هذا أول موقف للأدب الإســلامي من الحــداثــة وأهم موقف، حين يرفض كلّ التصــورات التي تحملهـا «الحـداثـة» عن الحياة والإنسان والكون وعن مصادر المعرفة، ويلتزم بالتصورات الإيمانية الربانيّة، كما يعرضها منهاج الله قرآناً وسنة ـ بلسان عربي مبين، وكـذلك يرفض الإسلام، والأدب الإسلامي، مصادر المعرفة التي تتوهمها الحداثة، كما بســطها كمال أبوديب وغيره، وكما عبرت عنها نظريات حداثية مختلفة لاتقوم على أساس العلم والمعرفة. هذه التصورات تلعب دوراً رئيساً في بناء الأدب ووظيفته في الحياة.

إذن هنالك قضيتان أساسيتان يختلف فيهما الأدب الإسلامي اختلافاً جذرياً وكلياً عن الحـداثة، الحداثة كما عرضتها النصوص السابقة، وكما وصفها بها رجالها ودعاتها. هاتان القضيتان: النظرة والرؤية للحياة والكون والإنسان، ومصادر المعرفة في حياة الإنسان، ومن هنا نشأت القضية الثالثة الهامة وهي مفهوم النمو والتطور كما سبق أن عرضناها.

والخلاف واسع كبير، ذلك لأن الإسلام يربط الإنسان من خلال الإيمان والتوحيد بربّه وخالقه أولاً ربطاً يقوم على عهد يوفي به، وميثاقٍ يلتزمه وولاء خالص لله لا يصح أن يُشرك به شيء أبداً، وحب عظيم لا يعلوه حب أبداً، وتضرع وخشية لا تجوز إلا لله الواحد الأحد رب السموات والأرض ورب العرش العظيم. إنه وعي صادق في الإنسان لحقيقة الألوهية والـربوبية، ولحقيقة عبودية الإنسان لله، وعيٌ يتمثل في صدق الممارسة الإيمانية في واقع الحياة. إنه وعي قوي ثابت للحياة الدنيا والآخرة، وعي لنيته ونهجه وأهدافه.

إن الإسلام، من خلال ما ذكرناه، يربط الإنسان بالكون كله ليرى فيه آيات بينات يخشع عندها فلا يستكبر ولا يطغى، ويربطه كذلك بنفسه، بذاته، ليرى ما قدم لغد، وليحاسب نفسه، على ميزان عادل أمين، ويربطه كذلك بالإنسان، بالبشرية، ربط رسالة ومهمة ودعوة، وربط مسئولية وحساب.

من هذا الارتباط يصبح للإنسان المؤمن مهمة حقيقية في الحياة وأهداف بينة واضحة

مشرقة، يؤمن بها ويسعى لتحقيقها ويجاهد من أجلها في سبيل الله، لينشر الخير والصلاح في الأرض، ويحارب الفساد والفتنة التي يحركها «المجرمون» كما سماهم القرآن الكريم فتتحدد بذلك أهداف الأدب الإسلامي ليصبح أدب الأمانة والمسئولية. هذا الإنسان بهذه الخصائص هو حاجة البشرية كلها. هذا الإنسان بهذه الخصائص هو الذي كرمه الله سبحانه وتعالى، وهو الذي جعل الاعتداء عليه جريمة كبرى، وقتله جريمة أهون منها زوال السموات والأرض.

هذا الإنسان بهذه الخصائص، غير الإنسان الذي تحدث عنه «لودفيج فيورباخ»، وهو غير الإنسان الذي تحدث عنه «ماركس» و«فريدريك إنجلز» و«هيجل» و«كانت»، ومن جاء بعدهم من أبناء الحداثة في عصرنا الحاضر.

ومن هذا الإنسان ينطلق العطاء في مختلف ميادين الحياة، على قَدْر ما يهبه الله من وسع هنا أو هناك، وعلى سنن الله غالبة وقدر الله ماضٍ، وحكمة ربانية، والأدب ميدان من ميادين الحياة، يرتبط معها كلها، لتكوّن هذه الميادين كلُّها، على تناسقها وترابطها، صورة واضحة لمهمة الإنسان وأهدافه في الحياة الدنيا.

هذا الإنسان المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلقه وجعل له في الأرض مهمة ورسالة، عبر عنها القرآن الكريم بأربعة ألفاظ، كلٌّ واحد منها يشير إلى نفس المهمة مع ظلال مختلفة: العبادة، الأمانة، الخلافة والعمارة، ويمضي الإنسان بمهمته هذه من خلال ابتلاء وتمحيص حتى تقوم الحجة له أو عليه يوم القيامة، فإما إلى جنة وإما إلى نار.

والأدب ميدان من هذه الميادين في الحياة الدنيا. ميدان ابتلاء وتمحيص، يدرك المؤمن أنه محاسَبٌ بين يدي الله على اللفظة والكلمة، وعلى الخطوة والموقف، وعلى الرأي والسلوك، ونعيد التذكير بحديث رسول الله ﷺ إلى معاذ رضي الله عنه، الحديث الشريف الذي جاء فيه: «... وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[1] الأدب الإسلامي هو أدب الوعي والمسئولية الممتدة في الدنيا والآخرة، هو أدب الإيمان

---

(١) سنن الترمذي كتاب الإيمان (٤١)، باب (٨). حديث رقم (٢٦١٦).

والتوحيد، وهو أدب النمو والتطور والتجديد على أساس من منهاج الله. إنه أدب البيان.

لقد أصبح هناك ألفاظ عائمة ومصطلحات تائهة تموج في فكر الحداثة وأدبها وتلتصق بها: اللامحدود واللانهائي، اللافنّ، اللاحقيقة، اللاواقع، الهيام من المحدود إلى المطلق، الانعتاق من كل القيود، الثنائيات الضدية الأساسية، العمل المغلق، اعتباطية الإشارة، الفحص الاستبدالي وكثير غير ذلك، مما يرسم معالم أدب الحداثة وفكرها، في تيه وغيبوبة وظلام.

أما أدب الإسلام فهو أدب الإنسان في أحسن درجات وعيه وصدقه، وبيانه ووضوحه، وسعيه وجهاده.

ومن التصوّر المنحرف للحداثة لم يعد لفكرها ولا لأدبها تصوّر سليم لحقائق الحياة، للولادة والموت، للسعي والجهاد. لا يعود الموت يحتل في أدب الحداثة مكانته الصادقة، ولا صورته الأمينة، فلا يستطيع أدب الحداثة أن يمد الإنسان بالقوة الحقيقية التي يحتاجها وهو يمرُّ في سعيه وجهاده، عن الحياة الدنيا كدار انتقال للآخرة، عن الموت وجلاله وهيبته ودروسه وعبرته، ليتحول هذا كله، من خلال الفكر الإسلامي والأدب الإسلامي إلى إيمان راسخ بالله، ووعي صادق لرسالة التوحيد في الأرض، ولمهمة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ولآماله وأشواقه للدار الآخرة.

زاد عظيم تحتاجه الإنسانية كلها، لا يقدمه إلا أدب الإسلام في صدقه ووعيه وإيمانه.

ويمكن أن نوجز أهم القضايا التي عرضناها حتى الآن والتي تنحرف بها الحداثة عن الأدب الإسلامي ونهجه. بما يلي:

١ ـ النظرة للكون والحياة والإنسان وما ينتج عنها من قضايا ترتبط بهذه النظرة أو تلك: الولادة والموت، والحياة، والسعي والجهاد، العلاقة مع الكون كله، أهداف الحياة وغاية السعي ومهمة الأدب ودوره.

٢ ـ مصادر المعرفة للإنسان.

وننتقل الآن إلى قضية ثالثة تختلف فيها نظرة الإسلام والأدب الإسلامي عن نظرة الحداثة. تلك القضية هي قضية النمو والتطور والسعي إلى الجديد في الجهد البشري وعطائه في الحياة الدنيا.



الفصـل الثالـث

النمو والتطور والتجديد
بين منهجين
الإسلام والأدب الإسلامي والحداثة ومذاهبها

إن المسوّغ الذي تدّعيه الحداثة لنفسها هو البحث عن الجديد، والرغبة في النمو والتطور، والتغيير والتبديل في شتى ميادين الحياة. ولقد عرضنا نماذج مختلفة في الفصول السابقة عن نزعة التجديد لدى مذاهب الحداثة المختلفة، وكيف أدت هذه النزعة إلى التطرف والمغالاة في البحث عن الجديد، حتى أصبح التجديد أقرب إلى التدمير والتحطيم ومصادمة سنن الله في الحياة.

والإسلام، والأدب الإسلامي، الأدب الملتزم بالإسلام، يدفع إلى النموّ والتطور على أسلوب مغاير كلية لما تنهجه مذاهب الحداثة. فحين يدعو الإسلام إلى النمو والتطور والتجديد فإنه يظل يحتفظ بالثوابت ليقوم عليها التجديد.

نهجان مختلفان، ونظرتان متباينتان، في قضية هامة في الحياة. ونظرة الإسلام والأدب الإسلامي تنبع من القضيتين السابقتين: النظرة للكون والحياة والإنسان، ومصادر المعرفة.

وكما تدخل هذه القضية في تحديد موقف الأدب الإسلامي من الحداثة، فإنها تدخل كذلك في تقويم نظرية الحداثة. ولذلك يعتبر هذا الفصل مشتركاً بين الموضوعين الرئيسين في هذا الكتاب وهما: تقويم نظرية الحداثة، وموقف الأدب الإسلامي منها.

ولقد رأيت أن أنقل هذا الفصل إلى هذا الترتيب الجديد، بعد أن كان في الطبعة الأولى للكتاب يمثل الباب الثاني في فصليه. وسبب ذلك، كما رأيت، هو أن ترتبط الموضوعات الرئيسة التي تحدد موقف الأدب الإسلامي في باب واحد.

وإذا كان ما عرضناه في الأبواب السابقة يمثل جزءاً من تقويم ما يمكن أن نسميه نظرية الحداثة، فإننا يجب أن نضع الآن أسلوباً يُسهّل علينا الخروج من هذا الضباب، ويقربنا من العدالة والأمانة في الرؤية والتحليل والتقويم، ويُسهِّل علينا ردّ الأمور إلى منهاج الله، ويسهِّل علينا تحديد موقف الأدب الإسلامي منها.

من أجل ذلك، لابُدَّ أن نقرِّر الحقيقة الأولى وهي أن البحث عن الجديد طبيعة في الإنسان، وجزءٌ من فطرته، وظاهرة متميِّزة في تاريخه. فلولا هذه الرغبة الملحّة فيه للنموّ والتطوّر، وللبحث عن الجديد والحديث، لما استطاع الإنسان أن ينتقل من عصره الحجريّ إلى واقعنا اليوم، ومن سكن الكهوف إلى الخيام إلى العمائر والقصور، ومن ركوب الدواب إلى ركوب السيارات والطائرات والصواريخ، ولما تقدَّم الطب والهندسة وغيرهما من العلوم، ولما تقدمت الصناعات. وفي كل عصر من عصور الإنسان كان هنالك تطوُّر ونموٌّ، وبحث عن الجديد لم ينقطع أبداً. إنها سنة الله في هذه الحياة الدنيا، سنة ماضية، وستبقى ماضية على قدر من الله العزيز الحكيم.

فلا يُعْقَل إذن أن يكون اعتراضٌ على هذا المبدأ وعلى هذا السعي إلى الجديد والحديث، وهما سنة من سنن الله. ولكن الأصل في هذا التغيير والنمو والتطور هو أن يكون عملاً صالحاً، يحمل الخير للإنسان في حياته الدنيا، ويحمل الصلاح والسعادة له فيها، ويحمل النجاة والفوز في الدار الآخرة.

ومضت حياة الإنسان على الأرض فترة من الزمن كان الناس فيها أمة واحدة على دين الإسلام. وكان النمو والتطور ينطلق من واقع الإنسان وفطرته ودينه. ثم افترق الناس، وكفرت طائفة منهم، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذرين، كما تبيّن لنا الآية الكريمة التالية في سورة البقرة:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

﴿بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ (البقرة: ٢١٣)

نعم! ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾

ومضى نهج الإيمان خطّاً ممتداً في حياة الإنسان، يدفع إلى الجديد الطاهر، و«الحديث» النافع، والنموّ والتطوّر. وكان نوح عليه السلام أوّلَ الرُّسل إلى أهل الأرض، كما جاء في حديث الرسول ﷺ الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي جاء فيه: «. . . **اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أوّلُ الرسل إلى أهل الأرض. . .**» (رواه البخاري)[1].

ومنذ تلك اللحظة في تاريخ الإنسان أصبح هناك نهجان! وظلّ نهج الإيمان ممتدّاً في الحياة لا يغيب عنهـا أبـداً، تحمله الفئة الظاهرة التي حدّثنا عنها رسول الله ﷺ، وهي تتعرّض للفتنة بعد الفتنة، تُبْتَلَى وتظل صادقة على أمر الله، لا تساوم على حق ولا تتنازل عنه، ولا تضعف أمام فتنة ولا يخدعها زخرف، في أيّ ميدان من ميادين الحياة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**». (رواه مسلم)[2].

وعن جابر بن سمرةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لن يبرحَ هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**» (رواه مسلم)[3].

ويأتي هذا الحديث الشريف في تسع روايات صحيحة، تضع كلها خصائص هذه الفئة الظاهرة في حياة البشرية وتجمعها، لتظل هذه الخصائص تدفع الطائفة الظاهرة على النهج

---

(١) صحيح البخاري. كتاب (٦٠). باب (٣).

(٢) صحيح مسلم. كتاب (٣٣). باب (٥٣) حديث (١٧٠/١٩٢٠).

(٣) المرجع السابق والكتاب والباب، حديث: (١٧٠/١٩٢٢).

الإيماني، ولتظل تدفع الجهد الإنساني إلى كل خير وصلاح، على أكرم سبيل ونهج، لا على اضطراب، وعلى أهداف محددة لا في تيه مظلم، ومن خلال وسائل طاهرة لا تحمل الإجرام والفساد في الأرض.

وهي طائفة ظاهرة ماضيةٌ في الأرض، ماضية في الزمن، لا تستطيع قوة مادية في الأرض إزالتها. إنها قدر الله الغالب، ومشيئته الماضية، وحكمته العادلة. واستمع إلى كتاب الله يحدثنا عن مضي هذه الطائفة في الأرض والزمن:

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (هود: ١١٦)

إذن هنالك نهجان متمايزان: فهذا هو نهج الإيمان الممتدّ في الأرض والزمن:

﴿ ... أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴾ وذاك هو نهج الظالمين المجرمين الذين اتَّبعوا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين!

نهجان متمايزان في تاريخ البشرية: نهج ممتد مستقيم لا يلتوي ولا يتناقض ولا يضطرب، يبحث عن الجديد، ويدفع إلى النمو والتطور على فطرة سليمة. فهذا هو نهج الإيمان. ونهج متناقض مضطرب، منقطع على فطرة قلقة منحرفة.

ونهج الإيمان نهج مستقيم! أما النهج الآخر فهو متعدِّد السبل، متشعب المسالك، كلُّ سبيل أو مسلك يدعو إلى ضلالة. وآية في كتاب الله وحديث لرسول الله ﷺ يوضحان الصورة ويقارنان بين النهجين. أما الآية فهي:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

وأما الحديث فهو:

عن عبدالله بن مسعود قال: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: هذه سُبُل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ الآية: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً. . .﴾» (رواه أحمد وغيره)[1].

صدق الله ورسوله! لقد رأينا التناقض في مصطلح الحداثة وفي ترجمته، ورأينا ذلك في التعريف، فرأينا سبلاً شتى، على رأس كل سبيل شيطان من أمثال أدونيس وكمال أبوديب وغيرهما. ألم يقولوا هم بأنفسهم: الحداثة قلقٌ، حمّى، توتّر، جرثومة، اضطراب وتناقض؟ وسنرى تأكيد ذلك في دراستنا الموجزة هذه.

من هذا العرض الموجز نرى بعض ملامح الحداثة في ميزان الإيمان ونرى شدة خروج خصائصها عن نهج الإيمان والتوحيد، حتى يكاد يظهر لنا أنه من الصعب أن نعتبر أن للحداثة نظرية ثابتة، أو «نهجاً واضحاً محدداً» ولكن هناك خصائص متناقضة مضطربة، متغيّرة متبدّلة. وإذا قلنا «نظرية الحداثة»، فإن ذلك من باب التجاوز! وعندما يخرج الإنسان عن نهج الإيمان، تنفلت رغباتهُ وشهواته وأهواؤه، لتقود هي النموّ المضطرب والتطور المتناقض.

مضت إذن الرغبة بالتجديد والتغيير، والرغبة بالنموُّ والتطوُّر، الرغبة الراسخة في حياة الإنسان وفي طبيعته، بين هذين النهجين: نهج الإيمان، ونهج الظالمين المجرمين كما سمّاهم القرآن الكريم.

وتصبح القضية إذن أن لا نرفض النموّ والتطوُّر والسعي إلى الجديد، فذلك أمر في فطرة الإنسان، وهو أمر يدعو إليه الإسلام ويرعاه، ولكن أن نميّز بين اتجاه واتجاه، ومسعى ومسعى. فالسعي وراء الجديد وطرق التغيير في حياة الإنسان لم تأخذ منحى واحداً ولا اتجاهاً واحداً. وإنما ضرب هذا السعي في اتجاهات كثيرة. ولتسهيل الدراسة والتقويم،

(١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد. ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا. المجلد (١٨). (ص: ١٤١). وقال المؤلف أخرجه مالك والنسائي وابن جرير وابن مردويه وصححه الحاكم.

وخضوعاً للقواعد الأربع التي ذكرناها في أوّل حديثنا، فإننا نقسم جميع هذه الاتجاهات إلى نهجين متمايزين.

«فالحداثة» لفظة استخدمها أصحابها، ووضعوا لها خصائص من عند أنفسهم، خصائص كانت محدَّدة من الناحية النظريَّة، وكانت محدَّدة في الممارسة والسلوك والمواقف. وأهمُّ هذه الخصَائص التي حددها مفكرو الحداثة في الغرب هو الانفصام عن الماضي، ومحاربة التراث كله، وسينكشف لنا إصرار بعض الحركات الحداثية على هذه القضايا والتقاؤها عليها، مهما كان بينها من اختلاف، حتى صار هذا المصطلح «الحداثة» بهذه الخصائص، عَلَماً عليهم وحدهم، ودليلاً على منهجهم. ولذلك لا نرى من المنطق أن يستعير أحد هذا المصطلح منهم، كما سبق أن استعرنا الاشتراكية والديمقراطية، وربما نستعير غداً البيروسترويكا ونقول: البيروسترويكا الإسلامية. وكلّما نعق ناعق فزعنا لمصطلحه ومعناه ومبناه، نتسوَّل، وقد أغنانا الله عنهم جميعاً.

«فالحداثة» إذن سنستخدمها في دراستنا هذه لندلّ على هذا المنحى في السعي للتغير وطلب الجديد والتطور بهذه الخصائص الرئيسة. وبذلك يقابلها المصطلحان الغربيان "Modernism, Modernity" في آن واحد، دون أن نفرّق بينهما هنا. وقد تكون التفرقة بين المصطلحين الغربيين مفيدة في غير هذه الدراسة. إذن هذا هو «نهج الحداثة» الذي سنتابع دراسته وتقويمه. وهو يشمل جميع الاتجاهات والحركات، وكلَّ مسعى حمل هذه الخصائص في طلبه للتغيير وسعيه للجديد، في أي ميدان من ميادين الحياة.

إن هذا التصوّر المنحرف للكون والحياة قديم في حياة الإنسان. لم يكن «كانت» ولا «هيجل» ولا «ماركس» أول من وضعه. إنه ابتدأ عندما افترق الناس فريقين بعد أن كانوا أمة واحدة، وبعد أن أرسل الله لعباده أول الرسل نوحاً عليه السلام، كما سبق أن ذكرنا.

ونجد في تاريخ الإنسان تصوُّراً لهذا الانحراف يعود إلى أيَّام اليونان، حين قال «ديمقريط» و«أبيقور» اليونانيان: «إن هذا العالم لم يخلقه أحد»[1] وتابع هذا الكفرَ رجالٌ على مدّ التاريخ منهم المادّيون الفرنسيون: «لاميتري» و«غولباخ» و«ديدرو»، والمادي الألماني

(١) المادية الديالكتيكية ـ جماعة من الاساتذة السوفيت. (ص: ٣).

«لودفيج فيورباخ»، ثم جاء ماركس وإنجلز[1]، كما ذكرنا سابقاً.

لم يكن الانحراف عن الإيمان تُمثّله هذه النظرة المادية فحسب. ولكن النظرة «المثالية» التي ظهرت في تاريخ الإنسان كانت تمثل انحرافاً حقيقياً عن الإيمان والتوحيد أيضاً. والفلسفة المثالية تعتبر أن الفكر أو الروح أسبق في الوجود من المادة. ما هو الفكر؟! ما هي الروح؟! الإجابة على هذه الأسئلة استغرقت تاريخ الفلسفة المثالية. وقد تبنّى هذه النظرة «أفلاطون» اليوناني قديماً، و«بيركلي» الإنجليزي في القرن الثامن عشر، ثم جاء «هيجل» الألماني في الربع الأول من القرن التاسع عشر ليخطوا بالفلسفة المثالية خطوات واسعة.

وإذا كان «رندل» يعتبر أن جذور «الحداثة أو العصرية Modernity » هي عند «كانت» و«هيجل» و«ماركس»، فقد قدّم لنا بذلك دليلاً على أن «الحداثة» هي نقطة لقاء الفلسفتين المثالية والمادية، ولقاء الرأسماليّة والشيوعية، والديمقراطية والديكتاتورية، كما سيتضح معنا من سياق هذا البحث.

ولكن ما هي فحوى الفلسفة المادية والفلسفة المثالية؟ كلمات تتردّد كثيراً على مسامع الناس، ولعلّ القارى الكريم يجد في نفسه الرغبة ليعرف شيئاً عن هذه وتلك. فلا بأس أن نقدّم هنا تصوّراً موجزاً للفلسفة المادية والفلسفة المثالية، دون أن ندخل في تفصيلات تخرجنا عن الموضوع، ولكن نقدّم ما نظنّ أنه يساعدنا على حسن متابعة دراستنا للحداثة ونشوئها ونموّها.

لقد كانت القضية الأساسية التي تصوغ النظريات الفلسفية هي النظرة إلى هذا العالم. والنظرةُ إلى هذا العالم ومحاولة فهمه من خلال الجهد البشريّ وحده، والتفكيرُ المنطلقُ من تأمل الإنسان المجرّد وظنونه، طرح في تاريخ الفلسفة نظريتين أساسيتين: الفلسفة المادية والفلسفة المثالية. فأما الفلسفة المادية فتعتبرُ كلَّ الظواهر التي نُعَالجها والوجودَ كلَّه وجوداً خارجاً عن وعينا، منفصلاً عنه، كله مادة، لم يخلقه أحد، والطبيعة موجودة أزلياً، ولا وجود لقوى خارقة للطبيعة يُزعم وجودها خارج العالم.

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٣).

وتعتبر أن هذا الوجود الماديّ هو الوجود الأسبق والأول، ثمَّ تلا ذلك الوعيُ والعقلُ والفكـرة. فالمادة في هذه الفلسفة هي وحدها التي تحدد الفكر والوعي. والفكر والوعي والعقل، هذا كله هو ما تسميه الفلسفة «بالروح».

وأما الفلسفة المثالية فترى أن الروح هي الأسبق في الوجود، ويعتبرون أن الروح (الفكر والعقل والوعي) كانت موجودة قبل الطبيعة.

فالخلاف الأساسي بين الفلسفتين إذن هو السؤال: أيُّها أسبق الطبيعة (المادة والوجود)، أم الروح (الوعي والعقل والفكر). ولقد ظهر فلاسفة اعترفوا «بالبدايتين» معاً وباستقلال كل منهما عن الأخرى. ويُسمى هؤلاء الفلاسفة بالثنائيين. فالفلسفة الثنائية تعترف بالمادة والروح كبدايتين مستقلتين، على أساس الفهم السابق للمادة والروح.

ولقد عرضنا بعضاً من ذلك في فصل جذور الحداثة. ونحن نعيد هنا بعض ما ذكرناه سابقاً لنؤكد الفكرة ولترتبط الدراسة هنا وتتناسق.

ولقـد عرضنـا سابقـاً موجزاً عن الفلسفة المثالية الذاتية والفلسفة المثالية الموضوعية، وفلسفة الشك، مما كان يمثّل موجزاً سريعاً لحركة الفلسفة في تاريخ الإنسان.

ولقد سبق أن ذكرنا، حين قلنا إنها بدأت مع ظهور الانحراف عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر بالله والشرك به، ومع إرسال نوح عليه السلام أول رسول للناس على الأرض، بعد أن كانوا أمة واحدة تدين بالإسلام ديناً واحداً، وتعبد الله وحده ربّاً واحداً لا شريك له.

ولسنا هنا في موضع نردُّ فيه على هذه الفلسفات كلها بالتفصيل، ولكن لابد من أن نعرض بعض القضايا الرئيسـة لتكون عوناً لنا على التقويم، ولتعين القارىء الكريم على العودة إلى كتاب الله وسنّة رسوله، حيث يجد الردَّ المفصَّل والإجابة اليقينية القاطعة.

فقول الفلسفة الماديّة إن الوجود كُلَّه وجود مادي لم يخلقه أحد هو وهم وظنٌّ، لم يقيموا عليه برهاناً ولم يُقدِّموا حجّة أبداً. وإنها افترضوا ذلك فرضاً ثم اعتبروه حقيقة، ثمَّ بنوا فلسفتهم على هذا الظنِّ الباطل الذي لا حجة معه. وكذلك الفلسفتان، المادية والمثالية، كلتاهما نتاج الجهد البشري وحده. والإنسان جزء من هذا الكون، مخلوق، لا يبلغ علمه مهما نما إلا قدراً قليلاً جداً عن هذا الكون الممتد، الكون الذي يزيد البحث العلمي فيه

اتساع المجهولات فيه وزيادتها لا ضيقها وتقليلها، فلا حقَّ للإنسان أن يطلق من وهمه وعلمه القليل حقائق عامة يفرضها على الكون الذي يجهل الإنسان معظمه.

أما بالنسبة للمادة والروح، فإن المادة بعضها يقع تحت حواسنا وإدراكنا، وأما الروح فلا نعلم عنها شيئاً أبداً. لذلك تاهت الفلسفات كلها في معنى الروح، اعتبرت بعضُها الروح هو «الوعي والفكر والعقل»، فرضاً من عند أنفسهم، ووهماً لا يقوم عليه دليل.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وحول الخلاف بين الفلسفتين، أيهما أسبق المادة أم الروح (الوعي والفكر والعقل)، فإننا نقول عن إيمان ويقين بأن الله رب السموات والأرض وما بينهما، وربّ العرش العظيم هو الأسبق وهو الأول والآخر:

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ (الحديد: ٢، ٣)

والله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، يحيي ويميت، وضع لهذا الكون كلِّه سنناً ماضية ثابتة. ومن هذه السنن أن يولد الإنسان على النحو الذي نعلم عنه بعض العلم، ثم يعيش إلى أجل مسمى، ثم يموت لتكون الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء وتمحيص، ولتكون الدار الآخرة بعد البعث والحساب دار جزاء، إما إلى جنّة وإما إلى نار، على حكمة غالبة لله، وعدالة حقّة ماضية، وعلم يحيط بكل شيء، وقدرة قادرة على كل شيء، له الأمر من قبل ومن بعد:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠ ﴾ (الروم: ٤٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

﴿ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ (غافر: ٦٧، ٦٨)

وأما مصدر العلم والمعرفة فما أصاب هؤلاء ولا هؤلاء بتحديدها وحصرها في مادة أو في تصوُّر. ففي نظر الإسلام كان أول المعرفة في حياة الإنسان ما علمه الله لآدم عليه السلام في الجنّة.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (البقرة: ٣١)

وما نزل آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض إلا وهو يحمل علماً يقينياً، وتجربة حقيقية مع الشيطان، ليعرف كيدَ الشيطان معرفة يقين لا معرفة ظن. وجعل الله في فطرة بني آدم كلهم حقائق الإيمان والتوحيد، لا تغيب عنهم إلا بالمعصية والآثام وبما كسبت أيديهم. ثم كان العلم اليقيني كذلك الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه الذين خُتموا بمحمد ﷺ، وختمت الرسالات بالقرآن الكريم الذي يحمل العلم الحقَّ الصادق اليقينيّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مهيمناً على الكتب السابقة كلها. بعد ذلك العلم الذي يجمعه الإنسان بالنظر في الكون وبالسعي في آفاقه، يزداد علمه هذا جيلاً بعد جيل، على قدرٍ من الله سبحانه وتعالى، فلا يحيط الإنسان من هذا العلم إلا بما شاء الله، وقد سخَّر الله له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه عليه:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(لقمان: ٢٠)

وعلم عن ظاهر الحياة الدنيا وغفلة عن الآخرة:

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم: ٦، ٧)

وآيات الله بينة فى أنفسهم لو يتفكرون:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الروم: ٨)

ولو ساروا في الأرض سيرة المؤمنين المتدبِّرين لجمعوا علماً نافعاً:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(الروم: ٩)

ومن هذا التفكــر في أنفسهم، ومن سيرهم في الأرض، ومن تأملهم في السمـوات والأرض وما بينهما، لا يجمعون من العلم ولا يحيطون إلا بما شاء الله:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

هذا هو الكون الممتدّ: السموات والأرض وما بينهما، العرش، الكرسي، الإنسان،

الملائكة، الشياطين والجن، ﴿..ويخلق ما لا تعلمون..﴾، فهؤلاء الفلاسفة المدّعون ماذا يعرفون من هذا الكون كله، ماذا يعرفون وكيف أباحوا لأنفسهم أن يطلقوا من جهلهم أحكاماً مطلقة لا حجة لهم معها، ولا برهان لهم عليها؟! قاتلهم الله أنّى يؤفكون. إنه الكبر والجهل والوهم والظن!

وعلم الغيب علم حقٌّ لا مجال للإنسان أن يخترقه. هكذا قضى الله رب السموات والأرض رب العرش العظيم. أنّى للفلسفة المادية أو الفلسفة المثالية أن تعرف خبر آدم وحوّاء في الجنّة ونزولهما إلى الأرض؟! أنّى للفلسفات البشرية كلها أن تعلم ماذا يوجد بعد الموت؟! وكيف تعرف نبأ البعث والحساب والجنّة والنار والملائكة والجن والشياطين، وكل ما خلق الله في السموات والأرض؟! ألا يستحي هؤلاء الفلاسفة من أنفسهم؟!

الفصل الرابع

نهج الإيمان في النمو والتطور والتغيير

لا نهدف هنا إلى أن نفصّل في خصائص هذا النهج الإيماني المتميّز في النموّ والتطوُّر والتغيير. فهذا التفصيل يحتاج إلى بحث مستقل لا تتسع له هذه العجالة في هذا البحث. وإنما نهدف هنا إلى إبراز أهم هذه الخصائص الإيمانية، لتساعدنا في مهمّة هذا البحث، ولتُسَهِّل المقارنة بين فكر وفكر، وليَسْهُل التقويم بعد ذلك.

ولا نتحدث هنا عن التغيير في الكون كله، ولا عن نماذجه وأنواعه في الحياة الدنيا، ولا نهدف إلى عرض جميع القواعد والتفصيلات، بقدر ما نحرص على عرض الأُسس والقواعد الرئيسة.

ونحصر حديثنا هنا كذلك فيما يتعلّق بالجهد البشريّ في الحياة الدنيا، وما يوفّره له الإيمان والتوحيد من خصائص في سبيل النموّ والتطور والتغيير في جهد الإنسان وعمله وسعيه.

ويجب علينا أن نؤكد منذ البداية أننا حين نعرض قواعد وخصائص تبدو للوهلة الأولى أنها تمسُّ نشاط الفرد وحده، فإننا في الوقت نفسه نؤكد أن هذه الخصائص نفسها تمس الجماعة والأُمة ونشاطها. إنها تمس نشاط المجتمع المتحرّك العامل، المجتمع المؤمن العابد لربّه وخالقه، المجتمع المتماسك بأفراده المؤمنين الذين يأمرهم الله أن يكونوا صفاً كأنَّهم البنيان المرصوص.

وإذا كانت بعض حركات الحداثة تحاول أن تجد المسوّغ الأوّل لفكرها بادعائها البحث عن الجديد وعن التغيير، فإنها لا تُحدِّد خصائص هذا التغيير ومدى ارتباطه بمحاربة الفساد

والفتنة والشرّ في الأرض. ولكنها تطرح كلمات عائمة ومصطلحات غامضه، كما قال رجال الحـركـة التعبيرية «أن على الحركة التمسُّك بالغموض، فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والـوضـوح والاستقـامـة». كما سنـوضح هذا كله بنصوص رجال الحداثة أنفسهم، في الصفحات المقبلة، لا نفتري عليهم.

وإذا كان هذا هو رأي الحركات الحداثية في أوروبا كالحركة التعبيرية، فإننا نأمل ممن يبحث عن الجديد والنمو والتطور في بلاد المسلمين أن لا ينهج هذا النهج، ونأمل أن نجد منهم من يحرص على دينه ودين أمته ويذود عنه. فليس كل من يرغب في الجديد والنمو والتطور، تحت أي اسم ادعاه كان فاسداً، إلا إذا نصَّ نصّاً صريحاً على المساس بالدين والإيمان والتوحيد.

وهدفنا في هذه الكلمة ألا نطعن أو نجرّح أحداً، بقدر ما نهدف إلى أن نجمع القلوب كلها على كلمة الحق وخير الأمة، وأن نتألفها حتى تخشع القلوب كلها لله، وتصبَّ الجهود كلها لحماية الديار والأمة والدين.

ونحن نعرض هنا نصوصاً تُناقَشُ بعدالة وأمانة، من خلال قواعد مقررة ومنهج محدد، بعيدين عن الإثارة، قريبين إلى الحوار الهاديء المطمئن، يملأ الحبُّ لله ولرسوله قلوبنا، ليفيض هذا الحبّ خيراً في الحياة الدنيا وأجراً من الله في الآخرة إن شاء الله.

ونحـاول الآن أن نعْـرض أهم القواعد الأساسية التي يُرسِّخها الإسلام لدفع النموّ والتطور في حياة الإنسان ومسيرة البشرية، وفي توفير التغيير الصالح. ونوجز هذه القواعد الأساسية بما يلي:

١ ـ الفطرة الثابتة في الإنسان:

هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها تحمل الطاقات والنوازع في الإنسان، وتحمل الرغبات والشهوات وضوابطها. ولا نستطيع أن نحدِّد جميع ما أودع الله في هذه الفطرة من قوى وكوابح، ولكننا نعرض طرفاً منها مما تعلمناه من كتاب الله وسنة رسوله، ومما نخلص إليه من واقع الإنسان ونشاطه حين نردّه إلى منهاج الله.

فمن هذه القوى التي أودعها الله الإنسان قوة التفكير والتأمل والتدبر. وهذه القدرة

ضرورية للنمو والتطور. ولكنها قوة لا تعمل وحدها معزولة عن سائر القوى. إنها تعمل متناسقة مع القوى الأخرى المغروسة في فطرة الإنسان وطبيعته بصورة تخضع للسنن الربّانية التي جعلها الله جزءاً من كيان الإنسان وخلقه. فالعاطفة والشعور طاقة أُخرى مغروسة في فطرة الإنسان، توفر له الرغبة والحوافز والإقبال والإدبار وتنطلق من هذه العواطف رغبات وشهوات وميول، تتوازن في حياة الإنسان في حالتها الطبيعية التي يولد عليها الإنسان. وكل رغبة أو شهوة في فطرة الإنسان أوجدها الله لتُحقِّق غاية في حياته وحاجة لمسيرته. فالشهوة الجنسية تحقق للإنسان قدر الله في تكاثره وتناسله، والحبُّ يوفر للإنسان بمشيئة الله بناء الروابط الإيمانية في حياة الإنسان الاجتماعية. وهكذا كلُّ طاقة وقوة ورغبة فإنها وجدت لتحقق غاية وحكمة ربّانيّة. ومن هذه الرغبات والميول في فطرة الإنسان حبُّه النموَّ والتطور، ورغبته في التجديد والتغيير، ليحقق صورة من صور العبادة في حياته، وشكلاً من أشكال الطاعة الصادقة لله ربّه وخالقه.

ولكن أهم هذه القوى والطاقات التي غرسها الله في فطرة الإنسان هي الإيمان والتوحيد. الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الله الذي له الأسماء الحسنى كلها متكاملة متناسقة، إذا غاب عن الإنسان شيء من هذه الأسماء الحسنى ومن صفات الله، اضطرب التصوّر الإيماني واختل اختلالاً قد يؤدي بصاحبه إلى الانحراف أو الشرك أو الكفر، على قدر ما يغيب من هذه الأسماء والصفات. ومن طاقة الإيمان والتوحيد المغروسة في فطرة الإنسان سائر خصائص الإيمان والتوحيد والتصديق بكل ما يتبع ذلك من ملائكة وجنّ وشياطين، ومن بعث وحساب، وجنة ونار في الدار الآخرة بعد الموت، ومن نُبّوة ورسُل، وكتب نزل بها الوحي الأمين، خُتمتْ كُلُّها برسالة محمد ﷺ، نبيّاً ورسولاً خاتماً، وبالقرآن الكريم كتاباً مهيمناً على كل ما سبقه من الكتب.

طاقة الإيمان هذه أودعها الله في فطرة الإنسان، لتكون أهم طاقة تعمل في حياته، وأهم طاقة تقرر مصيره. وإذا كان لكل طاقة أو رغبة في فطرة الإنسان غاية تؤديها وحكمة ربّانيّة تخضع لها، فإن من معاني هذه الحكمة الربانية ابتلاء الإنسان وتمحيصه من خلال نشاط

هذه القوى فيه وحركاتها وانطلاقتها إلى غاياتها التي خُلقت لأجلها، أو انحرافها عنها.

وطاقة الإيمان والتوحيد ترعى هذه الطاقات في فطرة الإنسان، وتغذيها وتحفظ بينها التوازن في النشاط والعمل، حتى تظل في اتجاهها إلى غاياتها التي خلقت من أجلها. وباضطراب الإيمان والتوحيد يضطرب التوازن بين هذه القوى، ويضطرب الغذاء، فتنمو شهوة نمواً زائداً وتضمر رغبة أخرى، وتخرج الرغبة أو الشهوة عن نهجها وتنحرف عن غايتها. فإذا اختل الإيمان والتوحيد، ونمت الشهوة الجنسية تبعاً لذلك وانحرفت عن غايتها يقع الزنا بدلاً من الزواج. وإذا اختل التصور الإيمانيّ والتوحيد واختل معه حبُّ الأرض والديار مثلاً، انحرف هذا الحبُّ عن هدفه وغايته، وتحوّل إلى عصبية جاهلية وفساد في الأرض. ويقال الشيء ذاته عن حب الوالدين حين ينحرف عن صورة العبادة والطاعة لله إلى عصبية عائلية مبتوتة الصلة عن الإيمان والتوحيد. وهكذا تضطرب سائر الرغبات والشهوات والعواطف والقدرات، حين يضطرب الإيمان، وتنحرف عن نهجها وغايتها، وتصبح فساداً في الأرض، وفتنة في حياة الناس، وشراً كبيراً. ومن هذه الرغبات الرغبة في النموّ والتطور والتغيير. فعندما يرعاها الإيمان والتوحيد تظل هذه الرغبة تعمل على نهج الإيمان، وتنطلق إلى غايتها الكريمة وأهدافها الصالحة، لتكون خيراً في حياة الإنسان وصلاحاً. أما إذا اضطرب الإيمان والتوحيد، فتختلُّ هذه الرغبة وتنحرف إلى فساد وتدمير، وفتنة وضياع، وظلمة ومتاهة.

فالفطرة التي فطر الله الناس عليها عامل من عوامل النمو والتطور على منهجه الربّاني الطاهر النظيف، يرعاه الإيمان ويدفعه التفكير وتنضم إليه قوة مع قوة.

٢ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة :

جعل الله في هذا الكون سنناً ثابتة. وجعل كذلك سنناً ثابتة في حياة الإنسان والبشرية وحركة المجتمعات. وجعل سنناً ثابتة في الرياح والأمطار، وحركة الشمس وغيرها. ففي حياة الإنسان تأتي الآيات الكريمة توضح ذلك.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾
(الفتح : ٢٣)

﴿ ... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر: ٤٣)

أما بالنسبة للكون فالآيات ممتدة في كتاب الله تلحُّ على الآيات البيّنات في الكون، الآيات التي تكشف عن ثبات هذه السنن الربّانية، وحكمتها، وتقديرها:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

وكذلك: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر: ٤٩).

وكذلك:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الفرقان: ١، ٢)

ولولا هذه السنن الثابتة ما استطاع الإنسان أن يخطو خطوة إلى الأمام، ولا أن ينمو أو يتطور. لولا ثبات هذه السنن ما تطورت السيارة ولا الطائرة، ولا قامت الصناعات، ولا نهضت العمائر، وما أمكن الاستفادة من أي مادة في هذه الحياة الدنيا، ولا أمكن كشف الفضاء القريب والتجوّل فيه. كل نشاط الإنسان في حياته الدنيا قائم على ثبات السنن الربانية في الكون والحياة، لا تتبدل. وحين يدرك أنه لم يوجدها الإنسان، وإنما أوجدها الذي أوجد الإنسان، وخلقها الله الذي لا إله إلا هو، الله الذي خلق الإنسان.

إن معنى خضوع الإنسان لهذه السنن أنها سنن ثابتة لا يستطيع تغييرها، وإنما سخرها

الله له، ويسَّر له الاستفادة منها ومن ثباتها.

والإنسان مكلف من ربّه أن يتعامل مع هذه السنن ليبني في الأرض حضارة الإيمان، عبادة لله وطاعة له. فقد استخلفه في الأرض واستعمره فيها، أي طلب منه عمارتها بعبادة الله وطاعته، ليخلف في ذلك جيل بعد جيل:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(هود: ٦١)

يريد رجال الحداثة، كما سنذكر بعد قليل، وتريد الفلسفة المادية كذلك، مصارعة هذه السنن والسيطرة عليها، أو يريدون إلغاءها. وسيمر معنا موقف الحداثيّ المستقبلي الشيوعي «مايا كوفسكي»، وكيف مَلَّ من حركة الشمس وشروقها وغروبها الدائمين. وجعل من هذا الملل «أدباً» يسمونه «الحركة المستقبلية». وهذا كمال أبوديب، كما مرّ معنا في تعريف الحداثة، يريد أن يغيّر كل شيء، ويقطع كل صلةٍ مع الماضي، ليبقى التغيّر مستمراً كل لحظة، حتى لا يبقى شيء ثابتاً. إنه هَوَس وقلق وحُمّى. إنه مرض، إنه جُرثومة كما سماها كمال أبوديب نفسه. وسنرى موقف بعض حركات الحداثة من هذه السنن، موقف العداء أو الإنكار، أو التجاهل.

هذه السنن الربّانية الثابتة عامل أساسي في النموّ والتطور والتغيير، في النظرة الإيمانية. وبغير النظرة الإيمانية يضطرب التصور لهذه السنن، وتضطرب العلاقة والتعامل والموقف، ويصبح موقفاً ينشر الفساد في الأرض، والفتنة بين الناس.

إن الفطرة السليمة تدفع الإنسان ليتأمل في هذه السنن الربّانيّة في الكون، وتدفع الإنسان كذلك إلى السعي المنهجي الدائب في الحياة الدنيا على إيمان وتوحيد، لينهض كل نموٍّ في الجهد البشري وكلّ تطوُّر على أساس ثبات هذه السنن، ومضيها في حياة الإنسان.

فثبات هذه السنن جزء من النهج الإيمانيّ والتطوُّر الإيماني، تتلقّاهُ الفطرة السليمة على يُسْر وإيمان، وعلى وعي كامل لمسئولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وللأمانة التي يحملها،

والخلافة التي أُنيطت به، والعبادة التي خُلِقَ لها، على ابتلاء وتمحيص. فلن تكون الحياة في نظر المؤمن صراعاً مع الكون، ولا صراعاً مع سنن الحياة، ولكنها وعي وتدبّر، وعبادة وسعي، وابتلاء وتمحيص. ليدفع هذا التصوّر سنّة الله في النمو والتطور، على طهارة وبركة.

يمضي الإنسان بهذا التصوّر وهو يدرك معنى عظيماً للحياة، وهو يعرف الدرب الذي رسمه الله له، والأهداف الجليّة التي حدّدها الله له، فيمضي على بصيرة ونور:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يوسف: ١٠٨)

٣ ـ التفكر والتدبر:

لقد ألحّت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على تميّز الإنسان بالتفكّر والدبر والتأمل، ورسمت للمؤمن نهجه المتميّز في ذلك كله، كما تميّز المؤمن بالنيّة والسعي.

إن هذا التفكير والتدبُّر مسئولية يحاسب عليها الإنسان، وسِمة يجب أن تبرز في حياة المؤمنين، حتى يدفع التفكير والتدبُّر سعيَ المؤمنين بالنيّة الصادقة والنهج الصادق. فإذا تعطلت قوة التفكير أو اضطربت، انحرف النهج، والسعي، وضلّ الجهد عن أهدافه، وفقد سبباً هامّاً من أسباب النموّ في حياة المؤمنين وجهدهم.

إن ميدان التأمل والتدبّر في حياة المؤمن واسع جدّاً. إنه واسع اتساع ميدان السعي. فكما سخر الله ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة، فإنه سبحانه وتعالى جعل السموات والأرض ميدان التأمل والتدّبر:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

هذا هو اتساع ميدان التفكير في حياة المؤمنين، لا ينغلقون عن الحياة، ولا ينغلقون عن الكون، ولا يتركون هذه الميادين لغير المؤمنين ليجعل هؤلاء منها قوة لفسادهم وطغيانهم. فإن إثم المؤمنين إن فعلوا ذلك كبير، وعقاب الله شديد. إن الميادين مفتحة لسنة الله للناس كافة:

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(الإسراء: ٢٠)

وإن هذه الميادين هي ميادين ابتلاء وتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيّب، وحتى تجلو هذه الميادين تمايز النهجين، وحتى يشرق نهج الإيمان بصدقه وقوته.

إن قوة التفكير هذه، وقوة التأمل والتدبر، أساسية في حياة المؤمنين، حين تدفعها النيّة الصادقة الخالصة لله، وحين يرويها الإيمان والتوحيد ويصوغها الإيمان والتوحيد والعلم الصادق بمنهاج الله قرآناً وسنة، إن قوة التفكير والتأمل والتدبر بهذه الخصائص هي منطلق هائل لنمو الجهد البشري المؤمن ولتطوره، ولاكتساب كل حديث نافع وجديد طاهر في حياة الإنسان، في الأرض، وفي آفاق الكون.

إن قوة التفكير هذه، وقد جعلها الله نعمة منه على الإنسان، تصبح في حياة المؤمنين مصدر خير وبركة كثيرة. إنها تعمل في حياة المؤمنين بخصائصها الإيمانية المتميّزة: النيَّة التي تدفع وتوجه، الإيمان والعلم الذي يصوغ ويُغذّي ويُنمّي، النهج المستقيم والأهداف الطاهرة الجلية. إنها تعمل وتؤتي ثمارها متناسقة مترابطة مع سائر طاقات المؤمنين، ليتضاعف العطاء. إنه ليس تفكير الناسك المنقطع عن الحياة، إنه تفكير المؤمن المرتبط بالسعي كما سنعرضه، بالجهد والعطاء، بالصبر والمداومة، بالأمل الممتدّ والرجاء الذي لا ينقطع، والبشرى التي تملأ حياة المؤمن في كلّ أحوالها.

إن قوة التفكير في حياة المؤمنين قوة ممتدة مع العصور والأجيال، غنيّة بالتجارب والخبرة والمران، نامية متطورة هي ذاتها بهذا كله، دافعة إلى كل نموّ وتطور. فإن ظهر أنها توقّفت في مرحلة من مراحل التاريخ، فإن الحقيقة ليست توقّف التفكير المؤمن فحسب، ولكنها ضعف الإيمان والتوحيد، وهوان القلوب والعزائم أولاً، وهذا الهوان والضعف أدّى إلى

اضطراب التدبّر والتأمل، واضطراب السعي، ومن ثمّ التخلّف عن ميادين التنافس الحق، أو تركها للمشركين خالية من فرسان الإيمان ومواكب التوحيد، عاجزة عن النموّ والتطور، عاجزة عن البحث عن الجديد النافع الطاهر. وفي هذه الحالة يصبح هؤلاء العاجزون يتتبّعون سنن غيرهم، ويقلدونهم تقليداً أعمى، وينقضون عرى الإسلام عُرْوَة عُرْوَة.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتتبعُنَّ سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لتبعتموهم**». قلنا: يارسول الله! آليهود والنصارى؟! قال: «فمن؟!» (رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة)(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتُنْقَضَنَّ عرى الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها. فأوّلهنّ نقضاً الحكم وآخرهنّ الصلاة**» (رواه أحمد وابن حبان والحاكم)(٢).

هذا هو حال العاجزين ولو انتسبوا إلى الإسلام. إنه حال من ضعف إيمانهم وهان سعيهم وضل تفكيرهم، فعجزوا هم أنفسهم عن النموّ والتطور، وعجزوا عن البحث عن الجديد النافع والحديث الطاهر، فقعدوا يتتبّعون سنن غيرهم على ذلة وعجز وهوان.

أما المؤمنون الأقوياء، الفئة الظاهرة، الماضية مع العصور والأجيال، فإنها تظل تنهج نهج الإيمان على عزّة وظهور لا يضرّها من خالفها، تدفع النيّةُ الصادقة تفكيرَها، يَرويها الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله، فيمضي جهده البَشَريُّ على نموٍّ وتطور، يطرق آفاق الحياة، على سُننٍ ربانيّة، وقدر غالب وقضاء ماضٍ، وعلى عبادة خَلَقَ الله الإنسان لها، وأمره بها، وحمّله أمانتها.

أما تفكير المشركين الذين أشركوا بالله أو كفروا به، والذين فسدت نيّتهم، واضطربت

---

(١) البخاري: كتاب (٦٠) باب (١٤٣). حديث (٣٤٥٦). مسلم: كتاب (٤٧). باب (٢). حديث (٦/٢٦٦٩). أحمد: المسند (٣/٩٤). الفتح (١/١٩٧) حديث (٢٣-٢٦).

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني. ج (٥) (ص: ١٥) حديث (٤٩٥١). وقال تخريج الترغيب (١/١٩٧).

بذلك علاقاتهم بسنن الله، واضطرب فهمهم لها، اعتبر القرآن الكريم هؤلاء لا يفكرون ولا يبصرون ولا يسمعون إنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩)

فلا شكَّ بعد ذلك أن يبطل سعي هؤلاء بعد أن فسدت النيّة وفسد النهج والتفكير والسمع والبصر. لا شك أن الله سبحانه وتعالى لن يقبلَ من هؤلاء عملاً ولا سعياً أبداً مهما حمل من زُخرف النمو الكاذب والتطور الخادع:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفرقان: ٢٣).

٤ ـ السعي المنهجي الدائب للإنسان المؤمن:

السعيُ في الأرض طبيعة في الإنسان وسِمَة من سماته، ومحاولة اكتشاف المجهول في حياته الدنيا رغبة ملحّة فيه. هكذا خلق الله الإنسان وهكذا جعل فطرته وطبيعته.

والناس كلهم يسعون في الحياة استجابة لهذه الطبيعة، وإدراكاً للحاجة لتحصيل الرزق.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

(الملك: ١٥)

وجعل الله كذلك ما في السموات والأرض مُسخَّراً للإنسان، ليطرق الإنسان أبوابه، وليسعى فيها سعياً دائباً ممتداً مع العصور والأجيال، وليرى آيات الله من خلال سعيه، إذا سعى وهو مؤمن:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾
(لقمان: ٢٠)

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لتبيّن لنا هذه الطبيعة العامّة في الإنسان، وهذه الأرض المذلّلة الممهدة لسعيه، وهذا الكون المسخر له.

ولكنّ هذا السعي يتنوّع وتتعدَّد مذاهبه في واقع الإنسان، كما نلمس ذلك في تاريخ الإنسان من ناحية، ومن ناحية أخرى كما يقرِّر ذلك القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (الليل: ٤).

ومذاهب السَّعي كُلُّها تجتمع في خطين متباينين، ونهجين مختلفين: نهج الإيمان والتقوى، ونهج الكفر والتكذيب:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (الليل: ٥ ـ ١٠)

وهكذا يتمايز نهج الإيمان بالنيّة والإيمان والمنطلق، وبالدرب والأهداف، وبالوسائل والأساليب:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الإسراء: ١٨ ـ ٢٠)

إن هذه الآيات جليّة بيّنة لا تكاد تحتاج إلى تعليق إنها تقارن بين النهجين في النيّة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ . . . . ،وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ والدرب ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ . . . . وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾، والنتيجة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ . . . ،

فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

ويؤكد القرآن الكريم هذا التمايز في سور عدة وآيات بيّنات، نأخذ منها قبسات:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الجاثية: ٢١)

سعيان مختلفان في حياة الإنسان، لا يعقل أن تكون نتيجتهما واحدة في الحياة الدنيا ولا في الآخرة. ولا تتمّ هذه المقارنة في موقف أو مرحلة، ولكنه تمايز في تاريخ الإنسان.

ومن هذا السعي الدائب المتميّز للإنسان المؤمن، ينطلق عمله، وينمو ويتطوّر على خصائصه الإيمانية. ومع هذا السعي الدائب للأمة المؤمنة ينمو عطاؤها ويتطور على نهجه الإيماني، وهي تسعى في آفاق الكون أمة عابدة لله قانتة له.

فبالإضافة إلى «النيّة» التي يتفرّد بها سعي المؤمن، فإنه يتمايز كذلك بالنهج. فله دربه المتميّز، وله أهدافه المتميزة، وله كذلك أساليبه ووسائله. هذه كلها تدفع جهد المؤمنين ليظل نامياً متطوراً، وليكون النمو والتطور من خصائص الممارسة الإيمانية، من خصائص السعي المنهجي الدائب للمؤمنين، في مختلف ميادين الحياة. فإذا توّقف النمو وجمد الجهد، فإن هذا يكون دليلاً على وهن في الجهد والعطاء، والإيمان والتصور، وعلى تقصير يحاسب عليه الإنسان المؤمن بين يدي الله العزيز الجبّار.

٥ - قواعد الإيمان والتوحيد تصوغ الممارسة الإيمانية[1]:

يرسم الإيمان والتوحيد نهجاً متميّزاً للجهد والعمل والسعي. ويفصّل منهاج الله هذا النهج أدق تفصيل، ويُسمّى هذا العمل والسعي «بالعمل الصالح». وتتأكد هذه القواعد في آيات كثيرة وسور عديدة، وترتبط كلها بالإيمان والتوحيد. ويتكرر النصّ للتأكيد والتثبيت: ﴿ . . . كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ . . . ﴾.

(١) يرجع كتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف. الباب الثالث ـ الفصل الرابع (ص: ٢٤٣ ـ ٢٧٥).

نهج الإيمان والتوحيد يوجه الجهد البشري إلى «العمل الصالح»، إلى الممارسة الإيمانية. ومن أهم خصائص الممارسة الإيمانية والعمل الصالح هو نموّ هذه الممارسة وتطورها على نهج رباني إيماني، في كل ميادين الحياة الدنيا: الفكرية والعلمية والاجتماعية والأدبية والصناعية وغيرها، ليهدف هذا النموُّ والتطور إلى صلاح حياة الإنسان على طُهْرٍ وخير وسعادة، ولمحاربة الفساد في الأرض.

هذا النهج الإيماني المتميِّز برسالة التوحيد، يجعل مصدر الطاقة الحقيقية للنموِّ والتطور في حياة الإنسان هو الإيمان والتوحيد، حين يكون التوحيد هو الذي يدفع الإنسان ويوجهه، ويصوغ له فكره ونشاطه، وحين يحمل الإنسان عقيدة الإيمان والتوحيد ليخوض مرابع الخير والصلاح. فيظل هذا النهج مرتبطاً منذ اللحظة الأولى «بالنيّة» التي تربطه بمصدر الطاقة الحقيقية، النيّة التي يتميّز بها نهج الإيمان عن المناهج الأخرى التي يضل بها الناس، النيّة التي يبطل عمل المسلم إذا فسدتْ أو اختلّتْ.

ويُرسِي الإسلام عدداً كبيراً من القواعد الإيمانية لتدفع العمل إلى النموّ والتطور. فإصرار الإسلام على «إتقان» العمل دفعٌ للعزيمة إلى تطويره ليبلغ أحسن حالاته. ودعوته إلى الإحسان في العمل كذلك هو دفع للسعي إلى بلوغ ذروة الإتقان، مرتبطاً بكل معاني الإيمان والتوحيد. ودعوته إلى المداومة على العمل، هي دعوة إلى متابعة الإتقان والإحسان في العمل كله. وكذلك دعوته إلى الرفق في العمل والأناة، إلى التدبُّر والتفكير، وإلى التعاون وانطلاق الحوافز الإيمانية والمبادرة الذاتية، والموازنة الأمينة، والإشراف والتوجيه، والنصح والتقويم، ومعالجة الأخطاء والتوبة، والشورى، ودعوته إلى طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، إن هذه القواعد كلها، وكثيراً غيرها، تدفع بصورة إيمانية نشاط الفرد والجماعة والأمة، وكذلك نشاط البشرية إلى عبقرية النموِّ وجمال التطورُّ، وجلال الإحسان والصلاح.

كل هذه القواعد ترتبط فيما بينها، وترتبط مع غيرها من قواعد الإيمان، وتتماسك كلها في منهاج ربّاني معجز هو كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ.

ونأخذ قبسات من منهاج الله، لنرى عظمة هذا النهج الرباني وهو يحوط الإنسان

والبشرية كلها بأعظم رعاية وعناية:

﴿ ... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الرعد: ١٧)

توضح لنا هذه الآية الكريمة امتداد نهج الإيمان في الأرض وفي الزمن، وثبوته ورسوخه في حياة الإنسان. كيف لا؟! والفئة الظاهرة التي تحدثنا عنها قبل قليل ماضية في الأرض تحمل رسالة الله، لا تُقهر فإنها ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، ماضيةٌ مع الزمن تُقدِّم ما ينفع الناس. هذه الفئة لم تعرِّفها الأحاديث الشريفة لنا بجنسياتها ولا بقومياتها ولا بأسمائها. إنّما قدَّمتها لنا بخصائصها الإيمانية وامتدادها الإنساني، بخصائصها التي تنبع من الحق، ومن منهاج رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، على محجَّةٍ بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. إنها تمثل حاجة الإنسان الحقيقية في الحياة الدنيا، حاجته الصادقة النافعة، حاجته النافعة التي تدفع النمو والتطور إلى الخير والصلاح:

﴿ ... وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾

هذا هو النهج الحق الصادق الذي أعطى للإنسان حق التفكير والتدّبر، بل أمره بذلك، حتى تتناسق قواه كلها: فكره وعقله وعاطفته وغير ذلك مما أُودع الله فيه وفي فطرته، لتتناسق كلها وتتعاون وتتكامل فتدفع بذلك نهج النمو والتطور، بدلاً من أن تتصارع وتتناقض فتتبدَّد، فلا يكون التغيير عندئذٍ إلا شراً وفساداً، وفتنة وضياعاً.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (فُصّلت: ٣٣)

هذا هو القول الحسن والعمل الصالح والممارسة الإيمانية التي تجمع كل خصائص النهج الإيماني ليتصل الإنسان بالإنسان فيدعوه إلى الحق، تدفعه النيَّة الصادقة والهدف الجليّ والصراط المستقيم.

وعن شداد بن أوس قال: خصْلتـــان سمعتهـــا من رســول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته وليرِحْ ذبيحته». (رواه أبوداود)(١)

يمتدُّ الإحسان، وهو ذروة الإتقان، حتى تشمل الرحمةُ الحيوانَ عند ذبحه، وقد أحل الله ذبحه وأكله، وما أحلّ تعذيبه!

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه». (رواه البيهقي وغيره)(٢)

هذا هو الإتقان حين يكون قاعدة إيمانية ربّانية، تحمل في داخل الإنسان المؤمن معها جميع حوافز الإتقان، مرتبطة بالنيّة والإخلاص، متوجهة إلى هدف كريم يقود إلى هدف كريم، ثمّ ترتبط الأهداف كلها بالهدف الأسمى، بالجنة:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الإسراء: ١٩)

وأما الآخرون الذين انحرفوا عن نهج الإيمان فقد اضطرب جهدهم، وكان مصيرهم النار:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الإسراء: ١٨)

إن عظمة هذا الهدف في حياة الإنسان وجلاله، هدف الجنّة والسعي إليها، إن هذه العـظمـة وهذا الجلال يظلّان يُلحّان على ابن آدم في سعيه ونشاطه إلى النموّ والتطور. فوضوح الهدف وجلاؤه يكون حافزاً هاماً للنمو والتطور، والوصول إلى الأفضل والأطيب

---

(١) سنن أبي داود. كتاب (١٠). باب (١٢). حديث (٢٨١٥) ورواه مسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي والدارمي.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (١١١٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (١٨٧٦).

والأطهر. وهو تنافس كريم بين المؤمنين، تنافس يُحرِّك كل حوافز الإيمان لتدفع العمل على النموّ والتطوّر. وتجتمع النية والدرب المستقيم والهدف العظيم لتكون أساس التخطيط.

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (المطففين: ٢٤ ـ ٢٦)

إن هذا الهدف وهذا التنافس يتطلبان الصبر والمثابرة. والصبر والمثابرة من قواعد الإيمان، وخصائص الممارسة الإيمانية والعمل الصالح. والمثابرة والمداومة كذلك صفة إيمانيّة تغذّي النموّ وتدفع التطّور إلى الخير والأصلح والأقوم. لذلك جاء حديث رسول الله ﷺ يبيِّن أن أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها حتى ولو كان عملاً قليلاً:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ**». (متفق عليه)[1]

هذا هو النهج الوحيد لدى الإنسان، النهج الوحيد الذي يدعو إلى النموّ والتطور، وإلى الموازنة والعدالة، وإلى صدق الحرّية وأمانتها، وإلى سلامة الأمن والأمان. إنه النهج الذي يدعو الإنسان إلى استخدام عقله وسائر ما وهبه الله من قدرات وطاقات، حين تتناسق كلها معاً، فيتعامل الإنسان حينئذ تعاملاً صادقاً مع الحياة وسنن الله في الكون، فينمو عطاؤه وجهده، ويتطور إنتاجه وواقعه، ليبلغ الجديد النافع والحديث الطاهر، وليسعد في دنياه وينجوَ في آخرته.

هذه القاعدة العظيمة تجمع خصائص التصوُّر الإيماني ليكون تصوّراً قرآنياً ربّانياً، وليصوغ للإنسان ممارسته الإيمانيّة، وليكون النمو والتطور من أهم خصائص الممارسة الإيمانية.

٦ ـ تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأمة :

إن تعارف شعوب الأرض ولقاءها في بناء حياة الإنسان على الأرض، لتحقيق معنى الاستخلاف و«الاستعمار» الذي أمر به الله كما سبق أن ذكرنا ولمحاربة الفساد بكل أشكاله، ومحاربة الظلم والعدوان والطغيان والاستكبار في الأرض، إن تعارف الشعوب

---

(١) صحيح مسلم. كتاب (٦) باب (٣٠). حديث (٢١٨/٧٨٣).

ولقاءها وتعاونها طاعة لله وعبادة له وتحقيقاً لواجب الاستخلاف وأداء الأمانة التي يحملها الإنسان في الحياة الدنيا، إن هذا التعارف هو ما يدعو إليه الإسلام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات: ١٣)

إن هذا التعاون بين شعوب الأرض على هذا النحو الكريم، يجمع الجهود البشرية لتنتقل الخبرات، وتتنافس الجهود وتتكامل، ويمضي النمو في حياة الإنسان صلاحاً، والتطور خيراً، والتغيير بناء وزيادة إيمان. ولقد تفرّد الإسلام في دعوته هذه، وأرسى جميع القواعد اللازمة للقاء الشعوب على هذه الأسس الربّانيّة لخير الإنسان على الأرض فمنع الظلم والعدوان فهما معطلان للنمو والتطور والخير، وأقر العدل والقسط بجميع تفصيلاته اللازمة للشعوب لتلتقي عليها، ورسم السبيل، وجاء منهاج الله مفصلاً بيّناً. وحدّد الإسلام الروابط الإيمانية الصادقة التي تربط الإنسان بالإنسان، والرحم بالرحم، والشعوب بالشعوب.

ولم يكتف الإسلام بذلك. لم يكتف بتعارف الشعوب وتعاونها في عصر واحد، وإنما دعا لاتصال الأجيال كلها، لتنتقل الخبرة من جيل إلى جيل، والأمانة من جيل إلى جيل، ودعوة الله من جيل إلى جيل، في أمة واحدة ضاربة في التاريخ، ممتدّة مع المستقبل، هي أمة الإسلام.

هكذا يبني الإسلامُ الأجيال: الابن يدعو لأبيه ويبرّ أصدقاءه ويصلهم، ويقضي دينه وحجه وبعض عباداته، ويستغفر له. وهذا إبراهيم عليه السلام يصل الأجيال كلها بدعائه:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

(إبراهيم: ٣٩ - ٤١)

ونوح عليه السلام يجمع أجيال المؤمنين بدعائه:

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (نوح: ٢٨)

وفي سورة الأنبياء يأتي عرض مسيرة بعض الأنبياء منذ نوح عليه السلام: إبراهيم، لوط، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذا الكفل، ذو النون، زكريا، يحيى، وعيسى بن مريم، على الأنبياء جميعهم السلام، ثم يُختم هذا العرض العظيم بهذه الآية العظمة:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

وفي سورة المؤمنون كذلك يأتي عرض مسيرة بعض الرسل والأنبياء، ثم يختم هذا العرض بالآيتين الكريميتين التاليتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المؤمنون ٥١، ٥٢)

وهكذا بين العبادة: ﴿ ... وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾، والتقوى: ﴿ ... وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾، تمتدُّ روابط المؤمنين كلها لتبني أمة الإسلام ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... ﴾، ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... ﴾.

وتتصل الأجيال المؤمنة لتدفع النموّ والتطور في حياة الإنسان، ولتضمَّ جهداً إلى جهد، وفكراً إلى فكر، وعزيمة إلى عزيمة، فتنهض بذلك حضارة الإيمان بناءً و«استخلافاً» و«استعماراً»، عدلاً وأمناً، قوة وعزةً، نموّاً ماضياً مع الدهر يحمل الخير والصلاح للإنسان.

هذا الاتصال بين الأجيال، وهذا التعارف بين الشعوب، وهذه القواعد التي يقوم عليها الاتصال، يريد أهل الحداثة قطعه، وفصله، وتحطيمه. أما سمعنا قول كمال أبوديب:

«الحداثة انقطاع معرفي. . .»، «. . . الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود. . .». ولو رجعنا إلى النصوص السابقة في التعريف للحداثة، لرأينا أكثر من شاهد على ذلك. وسنرى فيما يلي من فصُول شواهد أكثر.

وإذا كان تعارف الشعوب عاملاً من عوامل النموّ والتقدّم كما يقرّر الإسلام، وإذا كان اتصال الأجيال عاملاً هاماً كذلك في هذا الصدد، فإن بناء الأمة الواحدة وروابطها الإيمانية عامل هام كذلك في بناء النموّ والتطور، ودفع حياة الناس إلى التغيير إلى الأصلح وإلى الخير. ولقد رأينا في الآيات السابقة عظمة معنى الأمة المؤمنة الواحدة الممتدة في التاريخ، فهي كذلك أمة واحدة في كل عصر ترتبط بجميع الروابط الإيمانيّة.

نهجان متمايزان في سبيل النموّ والتطور والتغيير، ونهج الإيمان يبرز بقواعده وتناسقه وتكامله، بخيره وصلاحه، بقوته وعزّته.

ونوجز أهم خصائص النهج الإيماني في النموّ والتطوّر والتغيير، وفي السعي للتجديد وطلب «الحديث» النافع الطاهر، كما عرضنا ذلك في الصفحات السابقة، نوجز هذا بنقاط محدّدة للتثبيت والتذكير:

١ ـ الفطرة السوية السليمة :

الفطرة السوية السليمة وما تحمله من نوازع وطاقات أهمها الإيمان والتوحيد وما يرافقهما من «نيّة» يتفرّد بها الإسلام، وكذلك التأمل والتفكير وكذلك الرغبة في السعي، والبحث وطلب النموّ والتطور، وطلب «الجديد» النافع و«الحديث» الطاهر.

٢ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة :

إن ثبات هذه السنن الربانية أساس كل نمو وتطور، وبغيره لا يستطيع الإنسان أن ينمو ويتطور في سعيه وحياته، ولا أن يكتشف جديداً ولا يبلغ «حديثاً».

٣ ـ التفكر والتدبر والتأمل :

وهذه ميزة الإنسان، يحمل بسببها المسئولية والأمانة، ويحمل معها القدرة على البحث المستمر عن الجديد، وعن وسائل النمو والتطور، ويحمل بسببها مسئولية التمييز بين الطيب

والخبيث، والحق والباطل.

٤ ـ السعي المنهجي الدائب للإنسان المؤمن :

والسعي كذلك سمة من سمات الإنسان، سَهّل الله له سبيلها، وذلل الأرض له من أجلها، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لتكون الحياة ميدان سعي للإنسان وابتلاء، ولتدفع سعيه النيةُ الخالصة لله، على نهج إيماني وأهداف إيمانية، ووسائل وأساليب إيمانية كذلك، تحقق له مع سائر الخصائص السابقة إمكانية النمو والتطور، من خلال الممارسة الإيمانية بكل خصائصها.

٥ ـ قواعد الإيمان والتوحيد تصوغ الممارسة الإيمانية :

إن قواعد الإيمان والتوحيد، حين تصوغ الممارسة الإيمانية، تجعل النمو والتطور في الجهد البشري من خصائص الممارسة الإيمانية. ونورد هنا قبسات من هذه القواعد الإيمانية:

أ ـ النية مع العزيمة والتصميم.

ب ـ الإتقان والإحسان.

جـ ـ الرفق والأناءة.

د ـ التفكُّر والتدبّر والموازنة الأمينة.

هـ ـ التعاون.

و ـ انطلاق الحوافز الإيمانية والمبادرات الذاتية.

ز ـ النصيحة والتعاون من خلالها.

ح ـ الرأي والشورى.

ط ـ الإشراف والمراقبة والتوجيه.

ي ـ معالجة الأخطاء بالأساليب الإيمانية الصادقة النظيفة.

ك ـ التوبة إلى الله والاستغفار، والدعاء والذكر.

ل ـ العلم الصادق بمنهاج الله والواقع.

م ـ النهج والتخطيط، والإدارة والتنظيم.

ن - وضوح الدرب وجلاء الأهداف.

س - التنافس في العمل الصالح وطلب الآخرة، لا التنافس على الدنيا وشهواتها.

ع - إن تميّز نهج الإيمان بالنيّة الخالصة لله، وبجلاء الدرب والأهداف، والوسائل والأساليب، إن هذا التميّز يدفع إلى نموٍّ متميز وتطور طاهر نظيف.

ف - الإيمان والتوحيد هما مصدر الطاقة العظيمة التي تغذّي النشاط وتُنمّي طاقات الإنسان ومواهبه على صفة متوازنة عادلة، تسمح لكل طاقة أن تحقق أهدافها.

ص - هذه الخصائص الإيمانية كلها تجمع طاقات المؤمنين لتصبّ كلها في مجرى واحد من الخير والبركة للإنسان كله على الأرض، توفّر بذلك الفرصة الأكبر للنموّ الطاهر والجديد النافع.

٦ - تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأمة :

إن تعارف الشعوب واتصال الأجيال وبناء الأمة المسلمة الواحدة، إن هذا كله حين يتمّ على أساس من قواعد المنهاج الربّانيّ، تستقرّ قواعد الأمن الحق والسلام العادل في حياة الإنسان، في حياة الشعوب كلها، لتوفّر بذلك الجهود وتجمعها على أفضل درب وأكرم سبيل للنمو والتطور.

ومع يقيننا بأن النهج الإيماني يحتاج إلى دراسة أوسع، إلا أننا عرضناه هنا بالقدر الذي نشعر أنه يناسب موضوعنا ودراستنا.

بهذا التصور للنمو والتطور والتجديد يكون العمل والعطاء خاضعاً لقواعد ربّانية، ومن هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي.

الفصـل الخامـس

الماضي ، التراث ، الأسطورة
بين
الأدب الإسلامي والحداثة

يقول «إزرابوند Ezra Pound » في مقالة عن الشعر الفرنسي : «إن جميع الجهود التي تُبذل لتكون شاعرياً "Poetic" ، على هذا النحو أو ذاك لا تبلغ هدفها» . ويعلق «لويس ميناند» في كتابه «اكتشاف الحداثة Discovering Modernism » فيقول : «مع ما في هذا القول من وجاهة ، لكنه يترك السؤال الهام حائراً يبحث عن إجابة ، ألا وهو: كيف يمكن وصف النبضة التي تكون القصيدة بغير هذه الجهود»[1] ذلك لأن «الشاعرية Poetic » أصبحت تحمل معنى هائماً في اللاوعي ، وأصبحت الحداثة تدفعها بعيدة في عالم الغيبوبة والسكر، كما وصفه لنا أدونيس وغيره . وأصبحت كلمة «الأدب» موضع صراع شديد بين المذاهب، صراع فوضوي .

يقول «إزرابوند» في رسالته إلى «هارييت مونرو» : إن أيَّ جملة أدبية أو نشاط أدبي literaryism ، (وهي اشتقاق حداثي جديد)، أصبحت تُبدِّد جزءاً من صبر القارىء وتبدِّد جزءاً من إحساسه . . . »[2] .

ويقول «لويس ميناند» في كتابه المذكور أيضاً : «جرت العادة لدى بعضهم أن يصف

(١) Lou s Menamd Discovering Modernism . El ot and H s Context.- Oxford University Press- 1988.

(٢) المرجع السابق . (ص : ٥٥) .

«الحداثة Modernism » بأنها مذهب شكلي تظهر ملامحها على صورة ردود فعل للحياة العصرية أكثر مما هي انعكاس لها. ذلك أن بعض الناس اعتاد أن يصف الحياة بالفوضى وانعدام الشكل والقيم، مما لا نزال نسمعه حتى اليوم». ثم يقول: «ولكن يمكن أن نرى الحداثة من بعض الوجوه بأنها محاولة لتطبيق المصطلحات الأدبية ومعاييرها على الأساليب المختلفة لقياس القيم الاجتماعية وأعمالها المختلفة، دون أن يفقد الأدب ما تمتع به كميدان تقليدي للعطاء والمحاولة»[1].

لقد ظلت أسئلة كثيرة في عالم الأدب الحداثي وفكره قلقة حائرة تبحث عن إجابة. وظلت التصوُّرات للحداثة في صراع ممتد لا يزيدها الصراع إلا غموضاً واضطراباً. ومع ذلك فقد بقي لها من خلال هذا الصراع ملامح عامة مشتركة، كان الغموض والاضطراب أحدها، كما رأينا في النصوص التي سقناها أعلاه وفي الصفحات السابقة.

وحين تحدثنا عن جذور الحداثة مررنا بمراحل ثلاث: الأولى: «كانت» و«هيجل» و«ماركس» عند «رندل»، و«ماركس» و«دوركهايم» و«ويبر» عند «جيدنر». والثانية.. اليونان ووثنيتها. والثالثة عصور غابرة في التاريخ تعود إلى عهد الرسالة الأولى مع نوح عليه السلام. ومهما اختلفت وجهات النظر، فإن الجذور اليونانية لا يختلف عليها أحد.

ومن أهم هذه الجذور «الأسطورة» التي نبعت في الفكر اليوناني وأدبه، وامتدت في الحياة الأوروبية منذ تلك العصور حتى يومنا هذا، وحتى أصبحت سمة ملازمة لفكر الحداثة وأدبها. يقول «هنري سوسمان Henry Sussman في كتابه: «الصور البَعْدية للحداثة Afterimages of Modernity »: «... إن كُتَّاب الحداثة اليوم أحْيَوا الأوديسا والملاحم الأخرى لتكون دليلاً لهم في جولاتهم القصصية. وأصبحت كتب «هوميروس» تُكوِّن الإطار الحقيقي للقصة والقاعدة للنهج البنيوي، النهج الذي يُطعِّم به «أزرا بوند» السلسلة الحائرة من قصصه والمادة الثقافية التي يتناولها مع غيرها من حضارات الصين وإيطاليا وفرنسا.. الخ»[2] ويوضح «سوسمان» امتداد هذه الظاهرة إلى جذورها اليونانية فيقول:

---

(١) المرجع السابق. (ص: ٨).

(٢) الصور البعدية للحداثة (ص: ١). Henry Sussman (Afterimages Of Modernity)

«ويمكننا أن ندرك السبب الذي من أجله أصبحت الأساطير وصناعتها، وهي أداة ثقافية دائمة ومتغيرة، موضوعاً متميزاً في التحليل البنيوي. ذلك لأن أساطير الآثار الكلاسيكية احتلت دوراً، في الثقافة الغربية على الأقل، مماثلاً للدور الذي احتلت الأحماض النووية "nucleic acids" في علم الوراثة "genetics" في القرن العشرين»[1]. ويقول كذلك:
«. . . بالنسبة لليفي ستراوس "Claude Levi Shauss" فإن رجل علم الإنسان "an-thropologist" عنده يمثل الصورة الحديثة لأوديسوس، وبالنسبة لرولان بارت "Roland Barthes" فإن «الأسطورة» تمثل النموذج المتفوّق للغة ضد نفسها. والأسطورة عند بارت تمثل المجتلد في المسرح الروماني، أو حلبة المصارعة، حيث تُطلق الثقافة وتكشف عن علاقاتها»[2]والأسطورة تقيم علاقات قوية بين ما يسميه سوسير "Langue" ، وما يسميه "Parole" في تحليله الألسني، كما يوضح ذلك سوسيان.

أدلة كثيرة واضحة على أهمية دور الأسطورة والخُرافة في أدب الحداثة وعلومه من تحليل بنيوي وغيره. وهذا ما يرفضه الأدب الإسلامي.

الخرافة والأسطورة، كما جاءت بها الميثولوجيا اليونانية، تمثل في نظر الإسلام صورة من صور الانحراف عن الإيمان والتوحيد. ولا نشك في أن كل أمة في الأرض قد بلغتها رسالة الله، فذلك ما نصّ عليه القرآن الكريم. ونلمس بعض الآثار المنحرفة عن الإيمان والتوحيد عند اليونان كما نلمسها عند غيرهم من الشعوب التي انحرفت عن الإيمان والتوحيد، وبقي لديها شعارات وألقاب، وحركات وتمتمات، انقطعت عن نبعها الحق فجفّت وذبلتْ وفسدتْ. المؤمن يؤمن بالغيب الحق كما جاء من عند الله في منهاج الله وحياً على عبده ورسوله محمد ﷺ، حقاً مطلقاً لا ريب فيه. فذلك مصدر أساسي من العلم الحق.

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ (البقرة: ١ - ٣)

---

(١) المصدر السابق. (ص: ٣). (٢) المصدر السابق. (ص: ٧).

المؤمن يؤمن بالغيب الحق لا بالخرافات والأساطير. أما إذا انقطع الإنسان عن الغيب الحقّ وانقطع عن منابع الإيمان والتوحيد، ومصادر العلم الحق والتصوّر الأمين، تحوّل بسبب هذا الانقطاع إلى اللجوء إلى الخرافة والأساطير والآلهة التي يصنعها له هواه والشيطان، بدلاً من أن يلجأ إلى الله الواحد القهار، عالم الغيب والشهادة العزيز الغفار. وبتحوله هذا يندفع في سبل شتى كما مر معنا في حديث رسول الله ﷺ في فصل سابق. ويمضي الإنسان مع هذا الانحراف، إذا وقع فيه، ليُفرز بين عصر وآخر نماذج متنوعة من هذا الانحراف تطلقها الأساطير ويصوغها الهوى والعلم المضطرب المحدود. وتصبح الأساطير ملجأ الإنسان التائه، ومنهج السعي، ومنطلق الفهم للحياة والكون والإنسان، ومصدر خصائص العمل والسعي. فلا عجب إذن، وقد أخذت الأساطير هذه المكانة في فكر الحداثة وعلومها وأدبها، أن تمتد سائر خصائصها موسومة بالغموض والتناقض والاضطراب، بالحيرة والقلق والحمى. ولا عجب أن نجد أن حياة الإنسان، والإنسان الأوروبي خاصة، لم تعرف الطمأنينة والاستقرار في هذه الحداثة التي تظهر في تاريخه، بل ملأتها الحروب والمجازر والأطماع والظلم والعدوان، وانتشر فيها الفساد وظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

أما المؤمن فيلجأ إلى الحق الجليّ الصادق، لا إلى الأساطير والأوهام والظنون. إنه يلجأ إلى الغيب الحق الذي نبأنا به الله سبحانه وتعالى، في منهاج ربّاني متكامل متناسق، ليقدِّم للإنسان الخير والصلاح في الأرض، وليوفّر له الملجأ الأمين والحمى من عند الله، فيمضي على نور وهدى وطمأنينة. وتصبح كلمته كلمة خير وصدق، وأدبه أدب بناء وإصلاح على هدى من عند الله على صراط مستقيم، ينهل من مصدر غني بالعلم الحق اليقيني.

فالأدب الإسلامي ينهل من علم الغيب الحق كما جاء في منهاج الله، ليفتح له هذا العلم آفاق الدنيا والآخرة، وليجول الأدب الإسلامي جولات الحق في هذا الميدان الواسع، وليجول جولات الحق في حياة الإنسان والبشريّة، بعيداً عن الأساطير والأوهام والظنون.

الحداثة تتعامل مع الأساطير والأوهام والظنون لتحمل الخصائص التي عرضتها لنا

النصوص السابقة، ولتنحرف كذلك بهذا التعامل عن النهج الحق الذي يمضي عليه الأدب الإسلامي، ولتمثل الحداثة في ذلك القضية الرئيسة الرابعة التي تُحدِّد موقف الإسلام والأدب الإسلامي الواضح من الحداثة برفضه الأساطير والخرافة.

وتقدم الأساطير بهذا الدور في الحداثة صورة من صور التناقض التي تعيش فيها الحداثة. فحين تدعو الحداثة دعوة جماعية، كما مرَّ معنا في النصوص المختلفة، إلى الانقطاع عن الماضي كله، عن التراث كله، تعود هي فتتصل بالماضي متناقضة مع نفسها ومبادئها. ولكنها لا تتصل مع الماضي كله، وإنما تتصل مع أسوأ ما في الماضي وتراثه، الأساطير والأوهام، وتترك الخير والحقَّ الذي يمتدُّ في تاريخ الإنسان، تحمله النبوّة مع العصور كلها والأجيال كلها، الحقَّ الذي أكمله الله بالنبوة الخاتمة.

والأدب الإسلامي، وهو يرفض صبغة التناقض هذه، وصبغ الاضطراب والشك والوهم والأسطورة، يرفض كذلك الانقطاع عن الماضي، أو تجاهل الحاضر، أو السعي للمستقبل سعياً معزولاً عن الماضي والحاضر. وهذه هي القضية الخامسة.

والأدب الإسلامي يرى، كما يرى الإسلام، أن العصور متصلة والأجيال مترابطة يجمعها التصور الصادق الواحد والأهداف الواحدة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويمتد هذا الاتصال على نور وإشراق حتى يربط الدنيا بالآخرة، وليكون هذا الاتصال كله نبعاً غنياً للأدب الإسلامي، يقدِّم به النماذج الرائعة للإنسان في الأرض كلها، على إيمان وتوحيد ثابتين، وعلى أهداف واضحة ثابتة، وعلى نهج واحد وصراط مستقيم، ويدفع بذلك الجهد البشري لينمو ويتطور ويقوى ويشتد، ليساهم بدور عظيم في جهاد الإنسان لبناء الحياة الطاهرة النظيفة على الأرض، ولبلوغ الجنة في الدار الآخرة. واستمع إلى دعاء إبراهيم عليه السلام يربط الأجيال كلها في دعاء وميثاق وعروة وثقى:

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ (إبراهيم: ٤٠، ٤١)

وكذلك:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

(البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

وآيات وأحاديث كثيرة تربط أجيال المؤمنين في الأرض كلها لتكون أمة واحدة تعبد ربّاً واحداً ولها نهج ربّاني واحد هو الإسلام:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

(الأنبياء: ٩٢)

إنها نقطة فراق كبيرة بين الأدب الإسلامي والحداثة. إن تصوّر الأدب الإسلامي في هذه القضية وغيرها نابع من الإيمان والتوحيد ومن أسس المنهاج الرباني. وتصور الحداثة نابع من تصورها المختلف عن الحياة والكون والإنسان. إن جميع مذاهب الحداثة عبّرت عن هذا الانقطاع عن الماضي وأكدته. وأكثر من ذلك فإنها في الواقع الحالي تمزّق روابط الجيل الواحد، وتحطم الأسرة، وتغيّر من وظيفة المرأة في الحياة. يكتب «جورج هيم» من رجال الحركة التعبيرية في يومياته (٣ كانون الأول سنة ١٩١١م): «كان باستطاعتي أن أصبح واحداً من أعظم الشعراء لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»[١] هكذا أصبحت نظرة الابن لأبيه في مجتمع تقطعت فيه وشائج الأسرة.

والأدب الإسلامي يرى الأسرة نواة المجتمع البشري، ويرى أهمية علاقات الأبناء بالآباء كما رسمها منهاج الله، ويرى ترابط الأرحام على نحو لا تعرفه الحداثة الغربية أبداً، الحداثة التي تسلّلت إلى المجتمع الإسلامي، وأخذت تقطع هذه الروابط الإيمانية،

---

(١) مالكم برادبري وجيمس ماكفارلن، كتاب «الحداثة»، (ص: ٢٦٩).

وأصابت نجاحاً نرجو أن يكون أقل مما حققته في الغرب ونرجو أن لا يمتد.

إن انقطاع الحداثة عن سلامة التصور الإيماني للحياة والكون والإنسان وانقطاعها عن مصادر المعرفة الحقّة، واعتمادها الأساطير، وانقطاعها عن الماضي بما فيه من حق وخير، وتقطيع روابط الأجيال، هذا كله، مع ظروف المجتمع الأوروبي وتطوراته بالثورة الصناعية والفلسفات المادية والمثالية هذا كله دفع المرأة إلى ميدان غير ميدانها الذي خلقت له، فخلعت ستْرَتها وكشفت عورتها، وأصبحت لهيب شهوة تُخدِّر وتحرق وتفسد.

وتبنّى الأدب الحداثيُّ هذا الدور للمرأة، وأصبح الحبُّ في الأدب الحداثي لا يعني إلا المرأة والجنس والشهوة الملوّثة وطويت معاني الحبّ الصادق: حب العبد لربه وخالقه ولرسوله محمد ﷺ، ليكون أعظم حب في حياة الإنسان كما نص القرآن والسنة على ذلك. وغابت معاني حُبِّ الإنسان لوالديه وأرحامه، حُبَّ برٍّ وإيمان، وحب الإنسان للصلاح والخير والحق، وحُبُّ المؤمن للمؤمن، وحبُّك الإنسان في طريق الدعوة والبلاغ لرسالة الله لعباده، رسالة الإيمان والتوحيد، وحبُّ الرجل للمرأة في ظلال الزواج الطاهر، والسكن والحنان، والأمومة الغنية بالبر والعاطفة والإشراق، كل هذه المعاني الرائعة اختفت ليمثل الأدب الحداثيُّ الحبّ في قطاع كبير منه الشهوة الملوّثة المحرَّمة، أو ليستبدل بالحبّ كراهية وحقداً على البشرية كلّها. . غابت أعظم معاني الحُبّ في حياة الإنسان، وأصبح الحب كما تصوَّره الأساطير اليونانية آلهة تعشق رجلاً، وآلهة تغضب أو ترضى للشهوة. وامتد هذا التصور وتسلّل إلى مجتمعاتنا حتى كادت تنحرف كلمة «الحُبّ» عن نهجها القرآني وجلالة دوره في حياة الإنسان.

يختلف الأدب الإسلامي عن الحداثة في معالجة قضية المرأة ودورها. تصوُّران مختلفان. تصور ينبع من الإيمان والتوحيد، ومن مصادر المعرفة اليقينية لا الظنّية. وتصور ينبع من انقطاع عن ذلك كله، والتزام بالأساطير والوهم والظنون.

لقد أخذ بعضهم اليوم يدرك خطورة ما آلت إليه أوضاعهم حين دفعوا المرأة إلى العري والفجور، وإلى المصانع والوظائف العامّة. فهذا «جورباتشوف»، في كتابه «البيروسترويكا»، تحركت فطرته في لحظة من لحظات الوعي قبل أن تعود وتغيب ثانية

فيقـول: «ولكن في غمـرة مشكـلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المتميّزة المختلفة بدورها أمّاً وربّة أسرة. كما كدنا ننسى وظيفتها الأولى التي لا بديل عنها مربّية للأطفال. .»[1] وبهذا الاختلاف يختلف حجم كبير من الأدب، أدب المرأة ودورها في الحياة.

قضايا متعددة تختلف فيها الحداثة عن النهج الحق الذي يرسمه الإسلام ويتبعه الأدب الإسـلامي: الانقطاع بين الأجيال أو الروابط بينها، الأسرة والأرحام وروابطها، المرأة ودورهـا في الحياة، الحبُّ ودوره ومنـزلتـه. كل قضية من هذه القضـايا تستحق دراسة مستقلة. ولكننا في هذه العجالة نكتفي بهذه الإشارة وهذا الإيجاز.

وقضية أخرى هامة ترتبط بما سبق. ألا وهي الانقطاع عن التراث كله ومحاربته، كما بينت نصوص رجال الحداثة أنفسهم. وهذه قضية مُجْمَع عليها في الفكر الحداثي: رفض التراث ورفض التقليد. والمؤسف أن هذه الشعارات أصبح طنينها مألوفاً حتى عشقته آذان عدّة، وهـوتـه نفوس كانت نافرة منه قبل حين. ويبدو أن ذلك كان تحت تأثير الضغط الإعلامي الهائل في واقعنا اليوم، مع ما يشكو منه واقعنا الإسلامي من خلل واضطراب في التصور الإيماني في قطاع واسع، مهّد لقبول زينة وزخارف تحملها الحداثة وتطرحها في واقعنا، دون أن يجد الفرد المسلم فرصة للتمحيص والتدقيق. أصبحت كلمة «التقليد» منفِّرة للنفوس. والإسلام يُنكِر التقليد الأعمى دون وعي، ينكر التقليد الذي يمضي لمجرَّد التقليد، لكنه يأمر باتباع الحقّ ولو كان فيه تقليد، مادام يرافق التقليدَ وعيٌ وفهمٌ وتمحيص ومسئـولية. إن الإسلام يضع ميزاناً واحداً ثابتاً تُردُّ إليه الأمور كلها: منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ كما بلغنا إياه النبيُّ الخاتم محمد ﷺ لساناً عربياً مبيناً. فما وافق هذا الميزان قبلناه ولو كان من الماضي، وما خالفه رفضناه ولو كان في واقعنا اليوم. وردُّ الأمور إلى منهاج الله ليكون هو الميزان الوحيد للإنسان قضية أساسية في الإيمان، يضطرب الإيمان دونها ويختل. والإسـلام شدّد على الذين يأخذون دينهم عن آبائهم مقلدين دون وعي وتمحيص، ودون

---

(١) البيروسترويكا لجورباتشوف، (ص: ١٦٦).

تدبر ودراسة، ويظلّ الإنسان هو المسئول في جميع الحالات.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦)

وحين ينعى الإسلام على هؤلاء الذين يتبعون آباءهم دون وعي وتمحيص واتباع للحق وبحث عنه، فإنه يأمر بالنظر في الماضي والإيمان به وربطه بالحاضر مادام حقا بميزان منهاج الله:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٦)

التراث في نظر الإسلام قوة وضرورة مادام مرتبطاً بمنهاج الله، مادام يمثل مسيرة أمة الإسلام وهي تحمل رسالة الله إلى الناس على مرّ العصور، لتربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ولتربط الدنيا بالآخرة. كيف يرضى الإسلام لأحد من أبنائه أن يتبع على غير هدى أو يقلد تقليدًا أعمى دون وعي ومسئولية، مادام الإنسان محاسباً بين يدي الله:

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (مريم: ٩٥).

نظرتان مختلفتان، ونهجان مختلفان، وموقفان مختلفان من التراث والتقليد: منهج يشرق من الإيمان والتوحيد، ومنهج فيه عتمة الانحراف وظلمته، وستظلّ العتمة صفة من صفات الحداثة. يقول: «أنتوني جيدنيز» في كتابه: «نتائج الحداثة The Consequences of Modernity»: «... ولكن الحداثة تحمل جانباً مُعتِماً، جانباً أصبح شديد الوضوح بعتمته في القرن العشرين»[1]. ويقول: «إن القرن العشرين هو قرن الحروب. إن عدد الحروب التي

(١) (ص: ٧) Anthony Giddens: The Consequences Of Modernity.

رافقها خسارة كبيرة في الأرواح كانت أكثر بكثير مما حدث في أي من القرنين السابقين. ففي القرن الحالي حتى الآن (١٩٩٠م) كان قتلى الحرب أكثر من مائة مليون إنسان. وإذا وقع نزاع يستخدم أسلحة الدمار الشامل، فإن الإنسانية معرضة للاستئصال»[1] إنها نتيجة طبيعية للفكر والأدب الذي كان يقود الإنسان في دهاليز العتمة قروناً طويلة ابتلاء من الله سبحانه وتعالى. إن جميع المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية، وهي تحمل جذورها من الوثنية اليونانية كما عرضنا، مع ما أضافته لنفسها من العتمة مع العصور والأجيال، إن هذا كله كان لابد أن يؤدي إلى العتمة الحداثية والقلق والحيرة والشك. وإن جميع مذاهب الحداثة حملت معها هذه السمات: «الحركة الانحطاطية» ثم «الرمزية» و«الانطباعية»، «المستقبلية»، «التعبيرية»، «الدادائية»، «السيريالية» و«الأدب المهنة Pro-fessionalism »، «التصويرية»، «الذاتية egoism »، و«السميولوجية»، «البنيوية» و«مابعد البنيوية» و«التشريحية»، جميع هذه الحركات حملت معها العتمة والتناقض والقلق والاضطراب. جميع هذه الحركات كانت للبحث عن إله تعبده من دون الله. وكل حركة كانت تأخذ جزئية في الحياة تحاول أن تجعل منها حقاً مطلقاً تفسر به الحياة كلها، وعندما تكتشف فشلها تصاب بالصدمة فتنهار، فتظهر حركة جديدة هي ردّ فعل للحركة السابقة، تأخذ جزئية جديدة تحاول تعميمها فتصل إلى ما وصلت إليها سابقتها. اتخذوا العلم وثناً، وآخرون اتخذوا الفرد، وآخرون اتخذوا الجنس والحياة الجنسية، وهكذا في تناقض متوال ظاهر.

إن «ولتر بنجامين Walter Bengamin »[2]. يُصوِّر آثار الحداثة تحت عنوانين رئيسين: «معاناه الصدمة وفقدان العطر والهالة». .[3] ولقد ظلت حركات الحداثة، مهما اختلفت ومهما هاجمت التراث والماضي والقديم، ظلت تبحث عن جذور لها في القديم. فعندما تأسست «الجمعية الثيوصوفي» في أمريكا عام ١٨٧٥م حاولت الاستفادة من الوثنية الشرقية

---

(١) المصدر السابق، (ص: ٨).

(٢) ناقد ألماني له مقالات عن تاريخ الفلسفة، احداها The Angel Of History

(٣) (ص: ١٣) Afterimages Of Modernity

كالبوذية والفيداوية، وكذلك من الوثنية اليونانية. وظهر لذلك اتجاهات متناقضة من أجل الدعوة إلى حرية الفرد أو حرية الجماعة أو الفوضوية. . (١)

يقول «إليوت» في قصيدته الأرض اليباب سنة ١٩٢٢م: «أنا تايرسياس أعيش حياتين على الرغم من العمى. أنا رجل عجوز ذو ثديين أنثويين متعفنين، إلا أنني أستطيع أن أرى في اللحظة الحاسمة»(٢). . غموض وتناقض. نعم! إنه يستطيع أن يرى في اللحظة الحاسمة الحقيقية لا كما يحسبها هو. إنها لحظة الحساب بين يدي الله:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

(ق: ٢٢)

. . وفي رواية كتبها «إلياس كانيتي» سنة ١٩٣٥م، يحاول فيها بطل الرواية أن يتلمس الطريق بين رفوف مكتبته وهو مغمض العينين، حتى لا يشغله الأثاث الجميل. ثم يبدأ يختار كتبه كالأعمى ويرتكب أخطاء الأعمى. غموض وتناقض وعمى. . . (٣) ويقول بارثس: «إن الفكرة وليدة المصادفة وإن الحظ يساعدك على قطف الثمار». . (٤) لجوء إلى الحظ والمصادفة مثل اللجوء إلى الأساطير بعد أن غابت إشراقة التوحيد. إنه الغموض والتيه «والممرات المعقدة» «Labyrinth»، التي يدفعون بأنفسهم إليها مع عواصف الخوف والقلق والحمّى، تقول: «نازك الملائكة» في مقدمة المجلد الثاني لديوانها: «أما قصيدة «الأفعوان» فقد عبّرت فيها عن الإحساس الخفي الذي يعترينا أحياناً بأن قوة مجهولة جبّارة تطاردنا، تطاردنا مطاردة نفسية مُلحّة. .»(٥). . وتقول كذلك: «. . إن هذا الأفعوان يطاردنا باستمرار وسدى

---

(١) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٧٥ ـ ٧٩).
(٢) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٨٩).
(٣) مالكولم برادبري وزماؤه ـ الحداثة. (ص: ٩).
(٤) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة (٩١).
(٥) ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني ـ دار العودة ببروت ـ الطبعة الثانية (١٩٨١م). (ص: ٢٦).

نتهرب منه، حتى إذا لُذنا باللابرنث Labyrinth ، وهو تيه معقّد المسالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتواء طرقه . . . »[1]. . نعم هذا شعور من لا يلجأ إلى الله ولا يلوذ بحماه، بل يلوذ، كما تقول «نازك»: « . . حتى إذا لذنا باللابرنث. . » ولقد صوّر القرآن الكريم هذه النفسيات كلها في جميع أحوالها من الظلمة والخوف والقلق. ونأخذ قبسات هنا فقط:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(البقرة: ١٧، ١٨)

﴿ . . . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ . . . ﴾

(النور: ٤٠)

امتدت الثورة الحداثية بصورتها المهووسة حتى طالت الطبيعة كما يفهمونها. فهذا «ماياكوفسكي» رجل الحركة المستقبلية الحداثية في روسيا، في قصيدة له أسماها: «مغامرة خارقة قام بها ماياكوفسكي في كوخ صيفي» فإنه يدعو الشمس إلى قدح شاي لكي يعوق شروقها وغروبها الأبديين المملّين له. فهو يحاول أن يعبّر عن ثورته على الطبيعة وعلى سنن الله الثابتة في الكون، السنن التي لا يؤمن بها هو ولا فكره ولا أدبه[2]. ولكن الشمس بقيت تشرق وتغيب على سنة لله ثابتة، وأما «ماياكوفسكي» فقد مات منتحراً. القلق والصدمة والتناقض قد يؤدي كله إلى الانتحار. و«هيوكوبول» متصوف دادائي أخرج صحيفة أسماها: «الهروب من الزمن» و«هانزآرب» دادائي آخر يقول: «نحن نفتش عن فنّ قائم على أسس ثابتة من أجل معالجة جنون هذا العصر»[3]، ولقد أصدرت الحركة المستقبلية

(١) المرجع السابق. (ص: ٢٦).

(٢) الحداثة. (ص: ٢٥٨).

(٣) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٨٧).

الروسية بياناً أسمته: «صفعة في وجه الذوق العام»[1] وأصدرت الحركة التعبيرية مجلة قال فيها صاحبها: «إن المجلة جاءت لتقوّض المجتمع القائم. . »[2].

وحين يريد «ماريتيتي»، رجل الحركة المستقبلية الإيطالية، أن يصف الإبداع فإنه يقول: «يبدو أن اليد التي تكتب تنفصل عن الجسد وتأخذ بالابتعاد المستقل عن الدماغ»[3] ويعبِّر مارينيتي عن حركة ناقل السيارة بإشارات «+-+-++×» وتذكرنا هذه بقصيدة لأحد الحداثيين جاء فيها: «سيتزن سيتزن سيتزن». وينص مارينيتي في كتابه «زانك تم تم» ويقول: «سي سي سي سي سي سي» أهي قصيدة؟! أهي أدب؟! أهي لغة؟! اشتد القلق والاضطراب والحيرة والشك حتى أصدر «مارينيتي» كتاباً أسماه: «الحرب هي العلاج الوحيد للعالم». وأصدر «أبولينر» كتاباً أسماه «العداء المستقبلي للتراث»[4].

لقد تسللت هذه الحركات الصوتية، وهذه الرموز الرياضية، وهذا العداء للتراث والقلق والتناقص إلى ميدان الأدب في عالمنا العربي والإسلامي، وبرز في النثر والشعر والفكر.

الأدب الإسلامي لا يعيش حياة القلق الذي رأيناه، ولا حياة التناقض والغموض والاضطراب، ولا حياة اليأس. إنه أدب الوضوح والاطمئنان، والثقة والقوة والجهاد في سبيل الله. إنه أدب يخرج من مؤمن يحمل رسالة في الحياة، يعرف أهدافه ودربه، ويعرف نهجه وغايته، أدب يتجه بكل كلمة يقولها إلى الجنة، لتكون هي الهدف الأكبر والأسمى، ولتهبه العزّة والقوة والثقة.

إن هذا النهج الإيماني والأهداف الربّانية هي التي تصوغ الأدب الإسلامي ليأخذ من نهجه وأهدافه أعظم بعد إنساني وكوني.

---

(١) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٥٦).

(٢) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٦٨).

(٣) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٣٦ ـ ٢٣٨).

(٤) المرجع السابق. (ص: ٢٣٢ ـ ٢٤٩).

«الهيام من المحـدود إلى المطلق» «الانعتاق من كل القيود»، «اللاحقيقة»، «اللاواقع»، هذه هي بعض مصطلحات الحداثة[1]، أفرزتها الأسطورة والخرافة وما يتبعهما من اضطراب وغموض، ومن ابتعاد عن حقيقة الإنسان وجوهره وحقيقة الكون وامتداده. ويقابل ذلك كله التعبير الأمين الدقيق، الحق الصادق في الفكر والتصوّر والممارسة، والارتباط بالحقائق الكونية من المشهد والغيب، مما يمثل سمة الأدب الإسلامي.

هذا القلق والاضطراب في فكر الحداثة وأدبها لم يأت من فراغ، لقد دفع هذا القلق عدداً من رجال الحداثة مثل «ماياكوفسكي» إلى الانتحار، وعدداً من رجال «السريالية» إلى الهوس والهستيرية والتهريج.

إذا أخذنا بوجهة النظر القائلة إن حداثة اليوم ولدت في القرن التاسع عشر، فقد رافق ولادتها أحداث هامة في واقع الإنسان الأوربي. زحمة هائلة في العلوم والاكتشافات في مختلف الميادين، حتى قال أحدهم واهماً: لم يعد للإنسان شيء جديد يخترعه أو يكتشفه. وقد أورثته زحمة هذه العلوم غروراً حتى كاد الناس يؤلّهون العلم أو ألّهوه فعلاً. وأورث الغرور اضطراباً في الرؤية وتفلّتاً في الشهوات ونقمة على الدين المسيحي ورجاله، حتى عزلوا الدين في الكنائس وأعلنوا قيام المجتمع اللاديني «العلماني» والدولة اللادينية، "sec-ularism"، ولكن بقي للدين في واقع المجتمع آثار هامة:

أولاً: الأثر النفسي العاطفي لدى الناس، الأثر الذي يقوى ويضعف على فترات تختلف بين مكان ومكان وأحداث وأحداث.

ثانياً: استغلال السلطة وأرباب المصالح لهذه العواطف لدى الجماهير لتسويغ عدوان ظالم على الشعوب، ولنهب خيراتها وثرواتها.

ثالثاً: دفع الحركة التنصيرية إلى خارج بلادهم، بعد أن حجزوا الدين في الكنائس في بلادهم، لتكون هذه الحركات ممهّدة للغزو والعدوان.

اجتمعت هذه الصورة في ظل النظام الاقتصادي الرأسمالي، الذي صاغ النظام

---

(١) بين الأصالة والحداثة. أحمد فرح عقيلان. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ نادي الطائف الأدبي. (ص: ٣٢).

السياسي الديمقراطي ليوفّر لنفسه الحماية ولسلطته النفوذ، وليوفّر للناس من خلال الحرية المتفلّته خدر الشهوات الجنسية والخمور والإباحية في فجور يزداد مع الأيام، ليكون هذا الفجور أبرز مظاهر الحداثة الأوروبية. ولقد ساعد علىّ هذا كله الثورة الصناعية التي دفعت المرأة إلى قلب المصانع لتنشر لهيب الفتنة والشهوة باسم النظام والقانون.

وكان من أبرز ردود الفعل للنظام الرأسمالي وللديمقراطية ظهور الاشتراكية وديكتاتورية الطبقة العاملة.

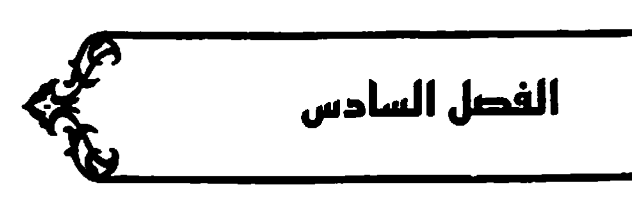
وكذلك ظهرت الحركة الصهيونية لتستفيد من مختلف التناقضات القائمة في معظم ميادين الحياة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإعلامية ولتمدّ نفوذاً يتزايد أو ينقص هنا وهناك، بين أوروبا وأمريكا، حتى أصبحت الحركة الصهيونية جزءاً من مصالح القوى الظالمة المعتدية هنا وهناك. هذه التناقضات كان من أبرز آثارها في القرن العشرين امتداد الحروب كما ذكرنا، وارتفاع عدد الضحايا بشكل مريع، ونزول القنابل النووية على اليابان، على هيروشيما ونجازاكي، في أفظع جريمة في تاريخ البشر يرتكبها النظام الديمقراطي وهو يبحث عن حقوق الإنسان بين الأرائك والمؤتمرات، ثم يفني الناس غير المقاتلين بالملايين، ويفنيهم بالجوع والقتل والإبادة.

ثم انتشار الجريمة وانعدام الأمن، حتى أصبح المجتمع الغربي مجتمع الجريمة. وانتشار الأمراض الجنسية والعصبية وغيرها. فشلت الديمقراطية في معالجة مشكلات الإنسان فشلاً ذريعاً، عالجت الحروب بالعدوان والحروب وامتداد الظلم. عالجت الأمراض في جسم الإنسان ولم تعالج مستنقع الجراثيم في مجتمعه. عالجت مرض الإيدز محاولة البحث عن دواء يعالج الجسم، وتركت مستنقع الزنا واللواط يتسع ويمتدّ وتنمو فيه الجراثيم ليمتدّ الإيدز نفسه، ولتشجعه الديمقراطية والديكتاتورية.

فلا عجب إذن إذا دفع هذا المجتمع ذلك القلق والاضطراب، ليدفع أدب القلق والاضطراب، والحيرة والشك، لينتحر هذا ويجنّ هذا وينهار ذاك، ويقع الكثيرون فريسة الأمراض الفتاكة.

غرورٌ في زحمة العلوم والاكتشافات وعزل للدين، واستغلال قبيح له، وطمع وعدوان

وظلم ممتدّ في الأرض، لا تهدأ نار حتى تشتعل نار أخرى فجور مريع وزنا ولواط، وانفكاك الأسرة والأرحام وروابطها، اشتراكية ودكتاتورية، رأسمالية وديمقراطية، ظهور الحركة الصهيونية لتشعل النار والفتنة في الأرض متعاونة مع سائر قوى الفتنة والفساد في الأرض، في الديمقراطية أو الدكتاتورية، في الرأسمالية أو الاشتراكية، بين دوي آلات الثورة الصناعية، وهدير أمواج الأطماع الاقتصادية، وجنون الشهوة التي لم تهدأ. من قلب هذا الظلام الهائج جاء القلق والاضطراب «الصدمة وفقدان العطر والهالة»، الحيرة والشك، التناقض بين اللامعقول واللاحقيقة واللافن، ليكون هذا كله من معالم الأدب الحداثي الرئيسة.



الفصل السادس

اللغة
بين الأدب الإسلامي والحداثة

اللغة في نظر الإسلام، وبذلك في نظر الأدب الإسلامي، آية من آيات الله، دالة على وجود الخالق وعظمته. إنها ترتبط مع سائر آيات الكون في قلب المؤمن في موكب من الجمال والجلال. ومن هنا تنطلق نظرية الأدب الإسلامي في فهم اللغة، لتصبح جزءاً من تصوره الإيماني. وبهذا يختلف الأدب الإسلامي مع الحداثة ونظرياتها في اللغة، حيث انقطعت صلة هذه النظريات بقضية التوحيد:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الروم: ٢٢)

فارتبط اختلاف اللغات والألسنة مع خلق السموات والأرض، مع اختلاف الألوان، مع سائر الآيات التي تعرضها سورة الروم في جولة رائعة بين الإنسان والكون، بين الدنيا والآخرة، مع البعث والنشور في مشهد حافل غني يموج به الجمال.

وهذا المفهوم للغة هو الذي يجب أن يطلق الدراسات اللغوية لمعرفة أصولها وسنن الله الثابتة فيها، ولمعرفة فقهها وتاريخها، لتظل هذه الدراسات مرتبطة بالتوحيد، مرتبطة بجذور ثابتة.

ومن هذا المفهوم نرى أن اللغة جعلها الله آية تقوم في حياة الإنسان، ليتفاهم الناس فيما بينهم، وليحققوا المنهاج الرباني في واقعهم، بالتفاهم والتعارف والتعاون على الحق، وبكل وسيلة شرعها الله للمؤمنين.

فإذا فقدت اللغة معانيها وتاريخها، فقدت بذلك الأجيال صلتها مع بعضها بعضاً، وفقدت الشعوب أهم وسيلة لتعارفها، وتعطلت سبل تحقيق معاني العبودية لله رب العالمين، وتعطلت سبل العبادة.

إذا أفرغت الكلمات من معانيها، كما أراد «أدونيس» وإذا ألغينا علم المعاني، وطرحنا المعاجم والنحو، فماذا بقي من اللغة إذاً؟! إذا فعلنا ذلك وأخذنا بنظرية الشاعرية Poetics ، فما هي فائدة اللغة عندئذ في حياة الإنسان؟! ومن هنا يتبين خطورة الخلاف الجذري بين نظرية الأدب الإسلامي ونظرة الحداثة.

واللغة العربية لغة الوحي، لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، لغة العبادة في الإسلام. منذ أن نزل الوحي لم تعد اللغة العربية لغة العرب وحدهم، ولا لغة قوم بعينهم. إنها أصبحت لغة الأمة المسلمة، لغة الإنسان. وما نزل الوحي الكريم بها، ولا اختارها الله سبحانه وتعالى إلا لأسباب مخزونة فيها وإعجاز تحمله في بيانها. لقد بلغت اللغة العربية ذروة النمو والنضج حين نزل بها القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه، وبذلك تعهد بحفظ لغته وبيانه. وما عرفت لغة في الأرض عدواناً وحرباً كما عرفت اللغة العربية في تاريخها الطويل الذي هو تاريخ الإسلام. ومع ذلك فقد ردّت بقدر من الله كلّ عوادي الطغيان، وظلت عزيزة قوية غنية تَمدُّ الإنسان بالمدد الوفير مع الزمن كله. فاللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى. وإذا مر المسلمون بلحظات ضعف في التاريخ كالتي نمر بها اليوم على فرقة وشتات، وإذا برزت اللغات القومية نتيجة ذلك لتقدم أدباً كريماً يعتز به الإسلام والأدب الإسلامي، فإنما هي مرحلة عابرة إن شاء الله، يستيقظ فيها المسلمون ليعوا أن الله سبحانه وتعالى أمرهم أن يكونوا أمة واحدة، ويجعل من أكرم أهداف المسلم ومن أجلّ أبواب العبادة السعي الدائب لتحقيق هذا الهدف، مع سائر الأهداف الربانية المحددة في منهاج الله. ولذلك يكون من مسئوليات الأدب الإسلامي حماية اللغة العربية، والمساهمة في سبيل بناء أمة الإسلام. الأدب الإسلامي له لغة أساسية يعتز بها كل مسلم مهما كان جنسه، لأنها لغة قرآنه وصلاته وعبادته، ولأنها لغة تدبره ووعيه لمنهاج الله. فلا يرضى الأدب الإسلامي بالهوان الذي تريده بعض مذاهب الحداثة للغاتها.

أستطيع أن أقول باطمئنان بعد استعراض الثروة الغنية في الفكر والأدب في اللغة العربية، وبعض اللغات الرئيسة، أستطيع أن أقول إن أجمل لغات الأرض وأغناها هي اللغة العربية، وحسبنا برهاناً على ذلك أنها لغة الوحي، وأنها اللغة التي اختارها الله رب العالمين.

لقد شنت الحداثة حرباً شديدة على اللغة، هربت مذاهب الحداثة إلى الرمز عسى أن تجد فيه نجاة من التناقض والاضطراب. فزاد الرمز أدبهم غموضاً واضطراباً. وهربوا إلى هيام الخيال، عادوا إلى الواقع، هربوا من الواقع، حتى ظنوا أن اللغات لم تعد تشفي غليلهم فأعلنوا حربهم على اللغة، وهبطت التعبيرات والأفكار لدى بعض الأدباء بشكل غريب مزرٍ.

لقد جعل «مارينيتي» عنواناً لمقدمة كتابه على النحو التالي: «تحطيم النحو ـ خيال لا سلكي ـ كلمات حرة»، وانتشرت لفظة «كلمات حرة». يريدون من حرية الكلمات أن تكون وثيقة مرور لكل تيه وضياع وتحطيم للغة. كان «كوستاف كان» أول من ابتكر تعبير «الشعر الحر» فتلقّف «مارينيتي» اللفظ والفكرة، وأخذ المستقبليون في إيطاليا يقولون: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا كلمات حرة». وكما ذكرنا قبل قليل أصبحت الكلمات عند «مارينيتي» أصواتاً مثل سي سي، ورموزاً رياضية مثل: «+--+--+×». والحركة المستقبلية الروسية حاولت اعتماد الأصوات بدل الكلمات تمثلها أبيات شعرية لـ«كروجونيخ» في قصيدة حداثية روسية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية لتقدم أصواتاً تبحث عن معنى. يقول: «دربل إشكل، أبشكر، سكم، في سوبو، رل ينر»[1] ولقد طالب أحد بيانات المستقبلين «بإعطاء الشعراء الحق في رفد مفردات الناس بكلمات مبتكرة لا أصل لها باللغة، وأعلنوا الكراهية اللامحدودة للغة التي ورثوها»[2] وجاء «أدونيس» لينقل مع غيره من الحداثيين الحرب على اللغة، ولقد سبق أن ذكرنا بعض النصوص من «أدونيس» ونذكّر هنا ببعضها:

(١) مالكولم برادبري الحداثة. (ص: ٢٥٧).

(٢) مالكولم برادبري الحداثة. (٢٥٦).

« إن تحرير اللغة من مقاييس نظامها البراني والاستسلام لمدها الجُوّاني يتضمنان الاستسلام بلا حدود إلى العالم . . . وهذا يؤدي إلى القضاء على علم المعاني»[1] وجاء «تزارا» في الحركة «الدادائية» ليتابع الحرب على اللغة، وليكتب بلغة غير مترابطة، ضارباً عرض الحائط بقواعد النحو والعقل، مغرقاً بالفوضى والتناقض. وكان يرى أن على الحركة «الدادائية» أن تبقى شاردة غير قابلة للتدقيق. إنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة[2].

ويسعى «السرياليون» بعد ذلك إلى محاولة اختراع لغة جديدة للناس. وطرحت من جميع حركات الحداثة، مع تناقضها فيما بينها، تعبيرات ومصطلحات عائمة كثيرة واشتقاقات جديدة محيّرة، يصعب سردها هنا. وجاءت الحركة البنيوية وما بعد البنيوية والتشريحية لتحول تلك الحرب التي امتدت مع الحركات الحداثية إلى نظريات وقواعد. المدرسة الشكلية واتجاه النقد الألسني والسيميولوجية، وما تبنته من نظرية الدلالة والإشارة، دفع الغموض إلى مجالات أوسع. من الصعب أن نناقش هذه النظريات كلها هنا، ولكننا نقدم بعض التعريفات منها لنرى مدى ارتباط التصوّر فيها مع ما عرضناه سابقاً.

«النصّ إشارة حرّة تمثل دالاً عائماً يتوجه دائماً نحو مدلول غير محدود . . . »[3] وكذلك: «وبمقدار ما تستطيع إشارات النصّ على الانعتاق من قيد المعنى المحدد تكون طاقتها على الإبداع وعلى التنوع حسب أبنيتها الكلية داخل أعراق جنسها وسياقاتها. وهنا يتحول القارىء من مستهلك للنصّ إلى منتج له»[4] وفي صدد الحديث عن العلاقة بين النصّ والمؤلف يقول الحداثيون: «هل نعلن إلغاء المؤلف إذن ونعزل النصّ عنه؟!» سؤال هام للحداثة. ولكن الرحمة تتحرك في قلب الحداثة فيشفقون على إلغاء المؤلف، ويقولون إجابة على السؤال: «الجواب لا! بكل تأكيد! ولكننا فقط نعلن موت المؤلف كما فعل «رولان

---

(١) أدونيس ـ مقدمة للشعر العربي ـ (ص: ١٣٨).

(٢) مالكولم برادبري الحداثة. (ص: ٢٩٢).

(٣) د. عبدالله محمد الغذامي ـ الموقف من الحداثة ومسائل أخرى. الطبعة الأولى ١٩٨٧م مطابع دار الميلاد جدة (ص: ١٠٩).

(٤) المرجع السابق (ص: ١١).

بارت»، فموت الرجل لا يعني إلغاء اسم الوالد من شجرة النسب»[1]! تناقض ومراءٌ.

ولنوضح خطورة التحليل البنيوي في الأدب نضرب مثلين عمليين للحداثة في هذا المجال. يحلل الدكتور كمال أبوديب في كتاب «جدلية الخفاء والتجلي» أبياتاً رائعة لابن الرومي:

حيَّتك عنا شمالٌ طاف طائفها	بجنة نَفَحتْ رِيحاً وريحانا
وهبَّتْ سُحَيْراً فناجى الغصنُ صاحبه	موسوسا وتداعى الطير إعلاناً
وُرْقٌ تغني على خضر مهدلة	تسمو بها وتمس الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب	والغصن من هَزِّه عطفيه نشوانا

يقول أبوديب في تحليله: «تبدأ القصيدة بتشكل ثنائية أساسية هي الأنا والأنت، تسود بين طرفيها علاقة بعد مكاني تشير إليه التحية التي تُحمل للريح. عدا البعد المكاني ليس للعلاقة بين الأنا والأنت من طبيعة محدودة...» ثم يمضي بهذا الأسلوب حتى ننسى الأبيات والشعر وموسيقاه ومعناه، ويعطي لهذه حرف "A" ولتلك حرف "B" خلال تسع صفحات ننسى معها ابن الرومي والنصّ كله والشعر والأدب في متاهة طويلة. ثم يهبط بنا فجأة في هذا الظلام إلى وحل الجنس الملوث. فيقول: «أخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان يجسد تلاقيهما النهائي توحد التصورات. هاتان الحركتان هما الحركة الشاقولية ثم الحركة الأفقية، تنضحان بشهوة جنسية تنبع من حركة الاتصال الأفقية، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط»[2].

هذا نموذج واحد من التحليل البنيوي للأدب. إنه مرض متفشٍّ حين يرى بعضهم أن الجنس الهابط الملوث هو محور كل شيء. ألم يفعل «فرويد» الشيء ذاته في دراسته النفسية، حين أدخلنا في ظلام كظلام كمال أبوديب. كان «فرويد» مريضاً يحتاج إلى طبيب نفسي ليعالجه. واجتمع المرضى النفسيون في تاريخ طويل ليرسموا مسيرة مظلمة للانحراف عن

---

(١) المرجع السابق، (ص: ٨٧).

(٢) كمال أبو ديب جدلية الخفاء والتجلي (ص: ٦٩). د. عدنان علي رضا النحوي الحداثة في منظور ايماني ـ الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م دار النحوي للنشر والتوزيع. (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

التوحيد، في الفلسفة والفكر والأدب.

في كتابي «الحداثة في منظور إيماني» قدمت نماذج أخرى تبيّن هذا الاضطراب والتيه والظلام، مما لا يتسع له المجال هنا. ولكن أسوق مثلاً آخر لنبيّن كيف تحوّل النبيوية والحداثة المفهوم الواضح للأحاديث الشريفة والآيات الكريمة. الحداثة بجميع مذاهبها تعلن الحرب على الماضي والتراث كله كما رأينا. ولكنها تعود متناقضة مع نفسها إلى التراث لتحاول أن تبحث لها عن هوية «انتساب» لهذه الأمة، فتؤول الآيات والأحاديث من ناحية، وتتناقض مع نفسها من ناحية أخرى. لقد بيّنا سابقاً جذورها الممتدة في أوربا. والحداثة في بلادنا تعلن الحرب نفسها، كما رأينا، على الماضي كله، وعلى التراث كله، ثم تعود لتناقض نفسها، فتبحث عن هوية لها في ماضي أمتنا، وفي تراثنا، ومن خلال هذه العودة تُشوّه الماضي والتراث. يعود بعضهم إلى ابن سينا ليرووا عنه أنه قال إن «الكلمة حرّة...»[1] أو إلى الغزالي، أو إلى عبدالقاهر الجرجاني، أو إلى غيرهم. ولا ننكر أن كل مصادر اللغة عندنا تشير إلى أن للكلمة معاني وظلالاً غير المعنى المحدد في المعجم. ولكن هذا المعانى والظلال لا تفرغ الكلمات من معانيها كما أراد «أدونيس» وغيره، ولا تتحوّل إلى إشارات في عالم الهيام والتخييل، متفلّتة من جذورها وتاريخها في المعجم أبداً. ولو سمحنا بهذا التفلّت في اللغة لضاعت معاني القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ من أيدي الناس لو أخذوا بذلك. لقد ذكرت في كتابي «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته» أن الكلمة في اللغة العربية وهبها الله سبحانه وتعالى من خلال تاريخها الذي نَمَتْ فيه حتى نضحت أربع خصائص: المعنى المحدد في المعاجم، والظلال الممتدة منه ومن تاريخها، النغمة والجرس، قوة الارتباط مع غيرها[2]. وبهذه الخصائص الأربع تتحرك الكلمة بين يدي الأدب، حتى لا نقع في تأويل يفسد المعنى ويضيع الوضوح، ويبعد عن الهدف. والأدب الإسلامي هو أدب الصدق والوضوح. ويأخذ بالرمز والتخييل في الحدود البيانيّة التي يسمح بها تاريخ

---

(١) الموقف من الحداثة: (ص: ٦٥)، د. عبدالله الغذامي. الخطيئة والتكفير الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م النادي الأدبي الثقافي ـ جدة (ص: ٤٨).

(٢) د. عدنان علي رضا النحوي ـ الأدب الإسلامي، إنسانيته وعالميته، (ص: ٥٠ ـ ٥٣).

اللغـة وبنـاؤها وقوانينها المستقرة، ولذلك كانت الكناية والاستعارة والمجاز وسائر قواعد البلاغة والبيان، مما قدّم نموذجاً فنياً رائعاً في تاريخ الإنسان لا تكاد تجد له مثيلاً يضاهيه في أي لغة أخرى.

ولنبينّ خطورة هذه القضية وأهميتها الكبيرة في الأدب الإسلامي من ناحية وفي الفكر الإسـلامي من ناحية أخـرى، نقدم مثلاً ونموذجاً لانحراف الحداثة عن ذلك انحرافاً شديداً في تأويل نصوص الإسلام.

يحاول بعض الحـداثيين أن يثبت نظرية «الشاعرية» التي يدعون لها بتأويل خاطىء منحـرف لآيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ، فيقول بعضهم سواء في كتاب «الخطيئة والتكفير»، أو «الموقف من الحداثة»: «الشعر تحرر للغة والإنسان وانعتاق من كل القيود. والشاعر ليس إلا هائماً منطلقاً خارج نفسه وخارج واقعه». ثم يستشهد على ذلك بالآية الكريمة:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

(الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٥).

ويتابع حديثه فيقول: «وكل محاولة لتقييد الشعر فهي تآمر ضده وهي مخالفه.. لأصوله.. ولذلك فإن حالة الوعي تصبح أسوأ حالات التلقي للشعر»[1].

إنه لعجب كبير أن يتحوّل المعنى القرآني الكريم الجليُّ إلى هذا الانحراف المؤذي، وأن تؤكـد هذه النصـوص الحـداثية ما سبق أن أوردنـاه عن «أدونيس» بخصـوص «الشعر والشاعرية». فالآيات في سورة الشعراء تعرض نوعين من الشعر: نوع يُحرمه الله سبحانه وتعالى ولا يقبله ويَذُمُّه. ولذلك يرفضه الأدب الإسلامي ويرفض أسسه وفكره ونظرياته. وشعـر كريم عبّرت عنه الآيات الكريمة من سورة الشعراء:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) الخطيئة والتكفير ـ (ص: ٢٦٢) الموقف من الحداثة. (ص: ٦١).

مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

تحاول الحداثة ونظريتها «الشاعرية» أن تدعم وجهة نظرها بالآيات الأولى التي تتحدث عن الشعر الذي يرفضه الإسلام ويرفضه الأدب الإسلامي. وتتجاهل الآية (٢٢٧) الأخيرة من سورة الشعراء. إن النوع الفاسد من الشعر تنكره السورة وتوضح أنه من الشياطين. وأنه قول كُلِّ أفاك أثيم. ولنقرأ الآيات الكريمة كلَّها:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٧).

ذاك هو شعر الحداثة كما وصفته الآيات (٢٢١، ٢٢٦). وهذا هو شعر الإيمان، شعر الأدب الإسلامي، كما تصفه الآية (٢٢٧) وتحدد رجاله ونهجه وأهدافه.

نهجان مختلفان. نهج ينبع من جذوره التي عرضناها في سياق هذه الدراسة، جذور مرتبطة بالوثنية فكراً وعاطفة وجهداً وموقفاً، ونهج ينبع من الإيمان والتوحيد ويتغذى من القرآن الكريم والسنة النبوية.

أدب الحداثة وشعرها وصفوه هم، رجالها ودعاتها، وربطوه بالشياطين والإفك والهيام في كل واد. هم قالوا ذلك لا نفتري عليهم وأما الأدب الإسلامي فهو:

شرف القـول من هدى الحقِّ ... وسحـر البيـان بالتـوحيـد
أدب يرتـوي البيـان لديـه ... من حديث من الكتـاب المجيد
رفَّ بالطيـب عودهُ فتمنـى ... كل روض نداوة من عود
هو في الكـون آيـة حوّم المجـد ... عليها فعادت روائعاً من نشيد[1]

(١) كتاب الأدب الإسلامي انسانيته وعالميته - (ص: ٣٣٤ - ٣٣٦). من قصيدة - مهرجان القصيد.

ومثل آخر: يقول: «فاللغة إذن هي مفتاح الحقيقة وهي ما يميز الإنسان عن الحيوان فهي إذاً (الأمانة)، كما ورد في الآية الكريمة. . .»[1] إن الأمانة التي عرضتها الآية الكريمة في آخر سورة الأحزاب أكبر من ذلك. إنها الأمانة في كل شيء، وعلى رأس ذلك الأمانة في ممارسة منهاج الله في الواقع البشري، والأمانة في عدم تحريف كتاب الله أو تأويله على غير وجهه. وبهذا التأويل الخاطىء تنقل الحداثة لنا أفكار السابقين من الماضي القديم، من الأوروبيين. فإن «هيجل» «كان يعتبر اللغة أهم محدّد لديه، إنها النموذج الذي يحمل الانعكاس الذاتي للعقل في أعلى صوره العملية، وبهذا تمكن الجنس البشري من أن يعكس نفسه على علاقته مع العقل»[2].

لانزال نجد الدليل بعد الدليل على شدّة التناقض في فكر الحداثة وأدبها. تعلن الحرب على الماضي والتراث والتقليد، ثم تعود إلى التراث والنقل والتقليد بطريقتين: بطريقة مباشرة ولكنها غير معلنة كالنقل عن اليونان وأوروبا. أو بطريقة تحمل تأويل الماضي وتشوّهه، كما يُبيِّنُ لنا المثل السابق نفسه عن تأويل الآيات الكريمة.

تريد الحداثة أن تجعل من الشاعر نبيّاً، حاملاً لروح البشرية. . . الخ. فتأخذ من الحديث الذي لم تثبت صحته: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري. . . الخ» لتجعل منه شعراً، حيث تقول «الحداثة»: «وهكذا تتحول الفلسفة إلى شعر»[3].

ومن حديث الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحرا»، تجعل الحداثة مخرجاً لتسويغ نظرية التيه والغياب. يقول المؤلف: «إن الشاعر يحرِّر الكلمة من معانيها، مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها ويطلقها حرة تحلِّق. . . فالشاعر حامل روح البشرية، وهو بحساسيته المفرطة يرتقي فوق كل قيود الواقع. . . ومع تسبيح الكلمات. . لتصبح هي

---

(١) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٦).

(٢) Origins of Modernity (ص: ٨).

(٣) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٠٥).

وجوده وهي حريته من كل قيود المادة. . . وهذا هو سحر البيان»[1].

سحر البيان لدى الحداثة هو تطهير الكلمة من غبار السنين وغسلها وتحليقها في الفضاء الواسع محرَّرة من كل القيود، غامضة مبهمة متناقضة. والإسلام يرى سحر البيان وضوحاً وجلاءً. فالبيان: «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى»، كما يقول الجاحظ[2]. ويقول ثمامة بن أشرس يصف بيان جعفر بن يحيى: «. . . ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[3]. هذا بعينه هو سحر البيان، لا ضبابية الحداثة وشرورها.

إن تحرير الكلمة وتطهيرها من الماضي لم يأت بها حداثيّو العالم العربي إنهم نقلوها نقلاً عن حداثيّ أوروبا. يقول (ج. م. هايد) في حديثه عن المستقبلية الروسية: «إن القضية المركزية لجماليات المستقبلية هي السعي لتطهير الكلمة نفسها من طلاء التراث الأدبي»[4].

يقول الحداثيون: «ولذا فإن الشاعرية انتهاك لقوانين العادة، ينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاسات للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه، إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر ربما بديلاً عن ذلك العالم، فهي إذاً (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف. وما السحر إلا تحويل الواقع وانتهاكه وقلبه إلى (لا واقع). أو هو تخييل على لغة القرطاجني أي تحويل العالم إلى خيال»[5].

هذه الغيبوبة والخروج من هذا العالم إلى عالم آخر تصوره الأوهام والأحلام، ليس هو سحر البيان. ومن العجب أن يختلط المعنى على أحد يعرف اللغة العربية وأساليبها، فيجعل معنى «سحر» هنا، ويجعل أن المقصود منها ليس السحر العادي. ولقد جاء هذا النص «إن من البيان لسحراً» في قصّة الزبرقان وعمرو بن الأهتم وهما عند رسول الله

---

(١) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٧).

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الطبعة ١٩٦٨م ـ دار الفكر للجميع. (ص: ٥٥).

(٣) البيان والتبيين. (ص: ٧٩).

(٤) الحداثة. (ص: ٢٥٤) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦٩).

(٥) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦).

ﷺ[1]. والذي عناه رسول الله ﷺ قوة الحجة المقنعة وسلامة المنطق وبيان المعنى وبلوغ الغاية.

والأدب الإسلامي يرفض الغيبوبة والخدر والسكر في عالم الأوهام والظنون. ذلك أن الأدب الإسلامي يوجهه كتاب الله وسنة رسوله. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً» (رواه أبوداود)[2].

فحدّد رسول الله ﷺ نهج الأدب وغايته، ودربه وأسلوبه. ونهى عما يصرف الناس عن الوعي والوضوح والبيان.

«الشاعرية» كما تقصدها الحداثة هي ترجمة لكلمة "Poetics" بالإنجليزية. ومع أن كلمة "Poetics" غير موفقة في لغتها، فكانت ترجمتها أبعد عن التوفيق. الكلمة الأجنبية صفة يطلقونها على الكلام إذا اتصف بالغيبوبة التي عرضناها أعلاه. فهي لا تتعلق بالتفرقة بين النثر والشعر. وفي الأدب الإسلامي نفّرق بين النثر والشعر، ولكل جمالهُ وخصائصه. ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في هذا الموضوع، ولقد فصلت فيه في كتابي «الحداثة في منظور إيماني».

ولكن لابد هنا من الإشارة السريعة إلى أن الاستعمال الخاطيء هذا لكلمة «الشاعرية» اتخذه بعضهم حجة لقيام الشعر الحر أو المنثور. أما إذا كان يقصد جمال الخيال، فذلك يمكن أن يُعبِّر عنه النثر أو الشعر في الأدب الإسلامي، ولكل جماله الخاص وأسلوبه الخاص. ويظل الشعر يحمل الحقائق المميزة له. فكلمة «شَعَر» تعني في المعاجم: علم به وفطن له وعقله. وفي قاموس المحيط: «والشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية». فالشعر إذاً يرتبط بالوعي والعقل وشرف الوزن والقافية. ولم يقل أحد في تاريخ هذه الأمة إن الوزن والقافية كانا عيبين في الشعر إلا الحداثيون اليوم. ففي اللغة العربية

---

(١) سنن أبي داود. كتاب الأدب (٣٥). باب (٩٤). حديث (٥٠٠٧). البيان والتبيين (ج: ١). (ص: ٤٤).

(٢) أبو داود. (٣٥) باب (٩٤) حديث (٥٠٠٦).

لا يصبح الكلام أدباً لأنه حمل الوزن والقافية فحسب، ولابد أن تتوافر فيه أولاً عناصر الجمال الفنّي الذي تجعله يستحقّ أن يدخل دائرة الأدب، سواء أكان نثراً أم شعراً. فإذا ارتقى الكلام بصياغته وشكله ومعناه وأسلوبه وبسائر خصائص الجمال الفنّي حتى أصبح أدباً، عندئذ نفرّق بين النثر والشعر. والنثر والشعر في الأدب الإسلامي لا يكون تائهاً في عالم الغيبوبة والغموض المفسد ولكنه أدب الصدق والوعي يستمدّ جماله من صدقه ووعيه، دون أن يمنـع ذلـك من استخدام الرمز الذكي أو الاستعارة النبيهة أو المجاز الأمين، ليضيف جمالاً إلى جمال. والوزن والقافية في الشعر ليسا من عند الخليل بن أحمد، ولا هو وضعهـما. إنهما من خصـائص اللغة العربية وتاريخها وفقهها، نمت ونموا معها من خلال قرون طويلة.

وهنا يثور السؤال: إذا خلا الكلامُ من الأوزان والقافية كما نشأت ونمت مع اللغة. فلماذا الإصرار على تسمية الكلام شعراً؟! ما هو المسوّغ لذلك من علم أو منطق أو أدب أو تاريخ أو إيمان؟! إذا ارتقى الكلام بشروطه الفنيّة فأصبح أدباً فلنسمّه نثراً. وإذا سمينا كل كلام يحمل جمالاً فنياً شعراً، فماذا يبقى للنثر في ميدان الأدب عندئذ، وماذا نقول عن كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ؟! وهل هنالك نية مبيّتة ضد الأمة ودينها؟!.

إن نظرية «الشاعرية Poeticcs» التي تدعو لها الحداثة كما عبّر عنها أدونيس وكمال أبوديب وغيرهما نقلاً عن الغرب، وكما أشرنا إليها قبل قليل، هي نظرية الانتقال من عالم إلى عالم، هي نظرية الغيبوبة والسّكر كما سمّوها هم. إن هذه النظرية بهذه الخصائص مرفوضة من الأدب الإسلامي.

واقتحمت الحـداثـة عالم الكلمة، وأخذت تشتق كلمات جديدة تزيد من «اللاوعي و«الـلاحقيقـة»، وتخـترق قواعد اللغة. فأضافوا في اللغة الإنجليزية "Ism" لكل كلمة يريدونها، واشتقوا كلمات قد لا نجدها في قواميس اللغة. أما في اللغة العربية فنضرب أمثلة على ذلك: الممرئية، التموضع الزمكاني، النحن، اعتباطية الإشارة، اللاحقيقة، بالإضافة إلى ما ذكرناه في فصول سابقة.

إن الوزن والقافية في الشعر العربي شرف وقوة. هكذا كانا مع التاريخ كله. هكذا رآه

أصحاب اللغة أنفسهم أبناؤها وهكذا أرادوه أن يكون. وليس لأحد اليوم، وخاصة من رجال الحداثة، وقد عجمت ألسنة الكثيرين وجهلت قلوبهم، وقلّ زادهم، حتى كادوا يصبحون غرباء عن اللغة، وكادت اللغة العربية تصبح غريبة عنهم. ليس لأحد أن يدّعي أن له حقّاً بإلغاء الوزن والقافية، وقد أبى ذلك أصحاب اللغة وأهلوها الحقيقيون، واعتبروهما شرفاً وعزاً.

الوزن والقافية، عند الشاعر المتمكن من اللغة، هاديان مرشدان لجواهر اللغة ولآلئها. إنهما يفردان اللغة كلّها للشاعر ويفتحان له أبوابها، وينثران أمامه أغلى جواهرها ودررها، ثم يرشدانه إلى الأعلى، والأصفى، ليأخذ الشعر جماله الفنّي المتميّز: الوزن والقافية عون للشاعر الحقّ لا عقبة أمامه ولا قيد له.

على شاعر العربية اليوم أن يعرف أولاً لغته فلا يكون غريباً عنها. على الشاعر اليوم أن يعيد انتسابه إلى لغة القرآن فيقطع غربته، قبل أن يغوص في الشعر فيؤذي ويسيء. عليه أن يجدِّد هويته وأصالته. عندئذ ينساب منه الشعر انسياباً ويهديه الوزن والقافية إلى أجمل أسرار اللغة.

إن الأدب الإسلامي، ومثله الأعلى الذي لا يوازى أبداً هو القرآن الكريم والسنة النبوية، يرفض كل هذه التصوّرات من جذورها وفروعها وثمارها. إن الأدب الإسلامي لا ينقل التصوّرات الفكرية الأوروبية، كما نقلتها الحداثة، ليغرسها في تربة غير تربتها. إن ا لأدب الإسلامي ينهل من أعظم وأغنى تصور فكري عرفته البشرية كلها، ألا وهو الوحي المنزّل على النبوة المتماسكة في تاريخها الطويل، النبوة التي ختمت بمحمد ﷺ، والمنهاج الرباني ـ قرآناً وسنة ـ جاء لساناً عربياً مبيناً. والنبوة متماسكة كلها في التاريخ البشري تدعو لدين واحد هو الإسلام.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل النّاس يطوفون بالبنيان

ويعجبون منه ويقولون لو تمَّ موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة»
(رواه أحمد والترمذي وغيرهما)[1].

فهذه ناحية هامّة من جملة النواحي التي يتميز بها الأدب الإسلامي، مادام متمسّكاً بها عاضّاً عليها بنواجذه. والناحية الأخرى هي اللغة العربية نفسها، أجمل لغات الأرض وأغناها وأقواها، وقد ارتبطت هاتان القضيتان معاً حتى لم يعد فصلهما عن بعضهما ممكناً أبـداً، وليقـدما النبع الرائق الطاهر الصافي للبشريّة كلها على مدى العصور والأجيال، ليخرج الأدب الحق للإنسان في أجمل صوره وأروع عطائه. إنه المنهاج الرباني ـ قرآناً وسنة.

إن الكلمة في اللغة العربية حرّة بطهارتها وغناها وقوتها، فلا حاجة بها لتتفلت فتفرغ من معانيها وظلالها في المعاجم كما طلب أدونيس، ولا حاجة لأن تغيب في الوهم وتتفلّت في فضاء الضياع والضباب كما يريد آخرون. إنها غنيّة تُغني الزمن كله بطاقتها التي أودعها الله فيها وخصّها بها. فلا نستطيع أن نطبّق على لغتنا ما يريد الغرب أن يطبقه على لغاته، ولا حاجة بنا لأن نحذو حذوهم. الأولى أن يتعلموا هم منا ويأخذوا عنا، لو كنا نحن الأقوياء. فزادنا أعظم ونهجنا أقوم.

والعجب كل العجب أن لا يجد بعض الناس عندنا نموذجاً للنمو والتطور إلا في تهديم اللغة، وآخرون في تهديم الفكر، وآخرون في نشر الفاحشة والخمر. عجباً كل العجب، فياليتهم تركوا هذا كله وحملوا الآلة والسيارة والطائرة وجمعوا لأمتهم من أسباب القوة والمنعة ما يحمي ويصون، وما نحن بحاجة لأن ننمو ونطوّر فيه، ولأن يكون هو صورة «الحداثة» حقاً.

إن الكلمـة من روابط الأمة في جميع ميادينها ومستوياتها بوضوحها وجلائها، وغناها وقوتها. فإذا تاهت الكلمة وأفرغت فإن الأمة، لا الكلمة أو اللغة وحدها، تستسلم إلى

---

(١) أحمد عبدالرحمن البنا ـ الفتح الرباني ـ ترتيب مسند الإمام أحمد دار الشهاب ـ القاهرة. (ج: ٢١) (ص:٢٨٣) محمـد ناصر الـدين الألبـاني ـ صحيح الجـامـع الصغـير وزيادتـه الـطبعـة الثالثة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. (ج:٥) (ص: ٢٠٤) حديث (٥٦٣٣).

العالم، كما رغب في ذلك أدونيس. هل كان يريد «أدونيس» استسلام اللغة أم استسلام اللغة والأدب والأمة؟!

الكلمة والتعبير واللغة كلها في الأدب الإسلامي مرتبطة بالوعي لا بالخدر، مرتبطة بالإيمان والتوحيد لا بالانحراف، بالعقل والعلم لا بالغفوة والجهل. يقول الحداثيون: «... لأن الشعر حالة غير عقلية»[1]. ويقولون أيضاً: «... ولذلك فإن حالة الوعي أسوأ حالات التلقي للشعر»[2]. وفي الأدب الإسلامي الكلمة حالة العقل والوعي أرقى حالات التلقّي.

ويقول سوسير: «إن الكلمة في البنية لا تكتسب قيمتها إلّا من بروزها كمعارض لكل ما هو سابق لها أو لاحق بها أو لمعارضتهما معاً. وهذا يلغي الوجود الجوهري للكلمة ويؤسس العلاقة كقيمة أولى لنشوء وظيفة لها»[3] وفي اللغة العربية وفي الأدب الإسلامي الكلمة مرتبطة متناسقة لا معارضة لتاريخها وحاضرها ومستقبلها. ولها وجودها الجوهري النابع من اللغة وتاريخها وفقهها، وجودها الجوهري يؤسس علاقاتها ووظيفتها على الزمن كله. وسيظل للكلمة خصائصها الأربع التي ذكرناها قبل قليل، حتى نستطيع أن نفهم كتاب الله وسنة نبيه، وحتى نستطيع أن نحمل رسالة الله إلى الناس كافّة في الأرض فيفهموا كلامنا وخطابنا ودعوتنا، وحتى يصبح الأدب الإسلامي قوة حقيقية في الأمة، لا تُفرغُ فيها الكلمات من معانيها، ولا نهبط إلى الاستسلام الذي أراده أدونيس، وأشرنا إليه في صفحات سابقة.

فلابد، بعد هذا العرض، من أن نسوق بعض الأمثلة من أدب الحداثة في الشعر، لنبين حقيقة ما يرفضه الأدب الإسلامي، ثم نسوق أمثلة من الأدب الإسلامي، لنوضح كذلك ما نقبله:

---

(١) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٠٣).
(٢) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦٢).
(٣) الخطيئة والتكفير. (ص: ٣٩).

يقول عبدالعزيز المقالح:

«كان الله ـ قديماً ـ حبا كان سحابه

كان نهاراً في الليل، وأغنية تتمدّد فوق جبال الحزن»

ثم يقول:

«صار الله رماداً صمتاً رعباً في كف الجلادين. . . »[1].

هنا استخدم الشاعر اسم الجلالة الله سبحانه وتعالى، بأسلوب مرفوض ومعنى مرفوض وتعبير مرفوض. الأدب الإسلامي يلتزم التقديس لاسم الجلالة. ويلتزم ذكره بما هو مفروض على العبد المخلوق تجاه ربه وسيده وخالقه الله، والذين لا يعتبرون الله سيدهم وربهم وخالقهم، ولا يخشعون بذكره خشوع إجلال وتقديس، سيبحثون عن إله آخر يخشعون عنده. واختار عبدالعزيز المقالح، بعد أن تصور أن الله أصبح رماداً تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً، اختار الثورة ليخشع عندها.

ويقول صلاح عبدالصبور:

«هذا زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين إليتي رجل سأم[2]» ويقول: «وأن الله قد خلق الأنام ونام، وأن الله في مفتاح باب البيت»[3].

هبوط في اللفظة والتعبير والصورة. لا موسيقى ولا صورة! أين الأدب في هذه الصورة والتعبير. إنه شيء آخر. إنه خروج عن العلم والأدب والإيمان والتوحيد.

وينقل لنا كمال أبوديب قصيدة لـ«لوركا» من أغاني الفجر:

في وسط الخافق الصخري، خناجر البسيط، جميلة من بدم المتنافسين، تلتمع وترهج مثل الأسماك، ضوء قاس كورقة اللعب، ويقطع عبر الخضرة الهشة، خيول ثائرة وخطوط

---

(١) اضاءات نقدية لعدد من الكتاب عن عبدالعزيز المقالح الطبعة (١) (١٩٧٨م) ـ دار العودة بيروت. (ص: ١١).

(٢) صلاح عبد الصبور ديوان أقول لكم الطبعة الخامسة (١٩٨٢م). دار الشروق ـ بيروت، القاهرة (ص: ٦٥).

(٣) المرجع السابق. (ص: ٨٦).

إطارية لراكبين، وفي كأس شجرة زيتون، ثمة امرأتان هرمتان تبكيان ثور العراك. . . »[1].

الذين علّقوا على هذا «الشعر» كادوا يجمعون على أنه إذا أردنا أن نفهم ونتابع المعنى فلن نجد حاجتنا، ولكن إذا اعتبرنا الشعر، كما يقولون، خلقاً شعرياً مُكْتَنِهاً في عالم آخر لا نعرفه ولا نفهمه، فعندئذ يقال إن هذا شعر. أما الأدب الإسلامي فله مهمة في الحياة، ومسؤلية كبيرة، وأمانة تحملها الأجيال، لذلك يريد الأدب الإسلامي أن يفهمه الناس، يفهمه الأدباء! يريد أن يكون أدباً واعياً.

يقول شاعر آخر خاطب وطنه:

لك وحدك أملك أن أرخص نفسي، لك وحدك أحني رأسي، لجلالك وحدك أرفع مخموراً رأسي. . . ياذا الملكوت باسمك نبدأ واسمك آخر ما ننطق حتى نموت»[2]. ثم يذكر وطنه.

وعند محمود درويش تموت الكلمة والتعبير والنحو والصرف واللغة ويموت الفكر والأدب:

«كلُّ الرواية في (دمِّي) مفاصلها: تفضل الحقد كبريتاً على شفتي»[3].

ويقول: «عسل شفاهك، واليدان كأسا خمور. . . للآخرين. . . الروح مروحة وحرش السنديان مشط صغير للآخرين. . . »[4].

لا أعتقد أن هذا الانحراف الصريح يحتاج إلى تعليق، ولكننا نرى بوضوح قوة الارتباط بجذور الوثنية في تاريخ الإنسان، وبالعصبية الجاهلية التي أفسدت حياة الإنسان على الأرض، والتي يأتي الأدب الإسلامي لينقضها ببعده الإنساني وساحته العالمية.

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ٥١).

(٢) الشعر في جرش المهرجان ١٩٨٦م: شقير وعكشة للطباعة والنشر والتوزيع. سنة ١٩٨٨م. (ص: ٦٥).

(٣) محمود درويش ديوان ـ دار العودة بيروت الطبعة (١٣). ١٩٨٩م. (ص: ٩).

(٤) المرجع السابق. (ص: ١٠).

وإذا قدّمت الحداثة نصّاً تريد أن تسميه شعراً، فإننا ننظر إليه أولاً، هل يحمل خصائصه الجمالية التي يرتقي بها إلى مستوى الأدب أم لا؟ فإذا حمل شيئاً من ذلك ندرس بعد ذلك أين نضعه: أفي الشعر أم النثر؟!

أما الأدب الإسلامي فهو أدب غنيٌّ يملأ التاريخ عطراً وعبقاً، ويزينه بأروع الجواهر واللآلىء، فريدة في التاريخ البشري.

وأول أمثلة نسوقها هي من النثر وليست من الشعر أبداً، نسوقها قبسات من كتاب الله، ذروة الأدب والبيان، والأدب المعجز للإنسان، لنرى آية الجمال وموكب الجلال يملأ الكون نوراً وهدى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝٣٥ ﴾ (النور: ٣٥)

ومن حديث الرسول ﷺ: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعةالله الجنة» (رواه الترمذي)[1].

هذه قبسات من منهاج الله تظل أبد الدهر نوراً يتعلّم منه الإنسان اللغة والأدب والفكر والنهج، يصوغه الحق المطلق من عند الله.

ونموذج آخر، نموذج من الصحابة، من عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أيها الناس! إنه لم يبلغ ذو حقٍّ في حقّه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق ويعطى بالحق ويمنع من الباطل. وإنما أنا ومالكم كوليِّ اليتيم، إن استغنيت استعففتُ وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف...».

جمال في اللغة والجرس والنغمة، تنساب الكلمات مترابطة سهلة بيّنة، وجلاء في المعنى،

---

(١) سنن الترمذي: أبواب صفة القيامة (٣٨). باب (١٨). حديث (٢٤٥٠).

وقوة في الفكر، وغنى في الصدق والعاطفة.

ومن ميدان الجهاد تخرج أبيات الشعر فوّاحة بالشذى من قلب مؤمن مقبل على الموت في سبيل الله، في أروح لحظات يمرُّ بها الإنسان، يسجل بها خلجات نفسه، عاطفته وفكره، طاقتان تتوقّدان معاً في لحظة غامرة من اليقين، فتنطلق الومضة الغنية منهما، تطلقها الموهبة من وهج الإيمان:

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلاَّ التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد   وكل زاد عرضة النَّفاد
غير التقى والبرِّ والرَّشاد

لا غيبوبة ولا خدر. كلمات مؤمنة واعية مسئولة، تحمل الخير للإنسان، تحمل الصلاحَ والصدق، لتعطي له الأمان الذي يبحث عنه، فلا يجده في عالم الغيبوبة وأمواج التيه.

هذا هو أدب الإسلام: «ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد»!

وذلك هو أدب الحداثة: «دبيب فخذي امرأة بين إليتي رجل».



الفصـل السابـع

الجمـال الفـني
وولادة النص الأدبي وانطلاقته

كيف يتـولد النص الأدبي وما هي سمات الجمال فيه؟! قضية تحتل ساحة واسعة من الدراسات الأدبية والنقدية. رد أفلاطون الجمال إلى مثل أزلي وثني، واعتبر الفن من بقايا ذكريات الروح وأقام نظرية المحاكاة. نقض أرسطو فكر أفلاطون ليركز على الواقع ووظيفة اللغة. وامتدت آثار هذه التصورات في أوروبا. واعتبر بومجارتن في القرن الثامن عشر أن الجمال مرتبط بالحس والشعور. أما ديدرو في القرن الثامن عشر أيضاً فقد ركز على الإدراك للعلاقات بين الأشياء والأجزاء. واعتبر «كانت» «أن الفن غاية في ذاته». وتأثر به «مدام دي ستـايل» و«فكتور كوزان» و«توفيل جوتييه». و«جوتييه» هو القائل: (لا وجود لشيء جميل حقاً إلا إذا كان لا فائدة منه. وكل ما هو نافع فهو قبيح). وتوالت نظريات الجمال مع «فيتشـه» و«شـوبنهـور» و«هيجل» و«بندتوكروتشيه» لتتضارب التصورات وتتناقض. ويقول إليوت: «إن الجمال في العمل الأدبي غير ذاتي وهو مستقل عن مؤلفه»[1].

وظهرت أفكار الجمال النسبي والجمال الحسي وغير الحسي، وأفكار متضاربة كثيرة تحملها المذاهب الأدبية المختلفة، كأن كل مذهب كان رد فعل للمذهب السابق، وكل مذهب يأخذ جزئية بنى عليها حكماً عاماً. يقول أدونيس: «والجمال لا نهائي، وهو يرتبط بالإنسان

(١) محمد غنيمي هلال ـ النقد الأدبي الحديث ـ دار الثقافة بيروت ـ ودار العودة بيروت ـ (١٩٧٣م). (ص: ٣١٢ ـ ٣١٦).

لا بالغيب. إن الجمال الحقيقي هو المرئي لا العيني»[1] وآخر يقول: «الشعر حالة غير عقلية. . .»[2].

وجاءت الدراسات اللغوية لتبرز معاني أخرى للجمال، ولتبرز عوامل متعددة تدفع النص الفني، ولتحدّد العلاقة بين النص وصاحبه والمتلقي، مما عرضنا أطرافاً منه في الصفحات السابقة، ومما بينا جذوره العميقة في تاريخ أوروبا وبالوثنية اليونانية وغيرها، حتى تبين لنا من ذلك الاستعراض السريع أن أهم العوامل المؤكدة للنبضة الفنية، حسب ما دارت عليه المذاهب الفكرية والأدبية، كانت ترتبط بالنظرية المادية للحياة "Materialism" أو المثالية "Idealism"، وكلاهما بعيد عن نظرة الإيمان والتوحيد كما جاء في منهاج الله حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكانت تلك النظريات تأخذ في معظم الأحيان جزئية أو أكثر تبنى عليها حكماً عاماً.

فحملت الحداثة في مذاهبها المختلفة نظريات في الجمال متناقضة مختلفة. يرى بعضهم أن الحداثة أتت بتجديد جمال واقتحام وعدم تواصل[3]. ويرى آخرون أن الحداثة أتت بأدب غير واقعي خالٍ من المضامين الإنسانية، ويركز على القضايا الأسلوبية والتقنية والشكلية. ويقول «فلوبير»: «كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتاباً جميلاً حول لا شيء وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية. .»[4] وتعتقد «فرجينيا وولف» بأن «الأسلوبية الجديدة جاءت نتيجة التغيير الذي حصل في العلاقات الإنسانية»[5] وطلع علينا القرن العشرون بإنتاج عدد من الأدباء الحداثيين: الروائي النمساوي (فرانزكافكا Franz Kafka ١٨٨٣ - ١٩٢٤م» يصور القلق الإنساني، والروائي الإيرلندي «جيمس جويس James Joyce ١٨٨٢م - ١٩٤١م» مع الرواية النفسية، والشاعر الأمريكي «إزرا بوند Ezra

---

(١) مقدمة للشعر العربي. (ص: ٥٩).

(٢) الخطيئة والتكفير (ص: ١٠٣).

(٣) مالكولم برادبري وزملاؤه الحداثة. (ص: ٢٥).

(٤) المرجع السابق: (ص: ٢٥).

(٥) المرجع السابق: (ص: ٢٥).

Pound ١٨٨٥م ـ ١٩٧٢م» شاعر الغموض، والشاعر الناقد الإنكليزي «توماس ستيرنس إليوت Thomes Sterns Eliot ١٨٨٨م ـ ١٩٦٥م»، وهو من أبرز ممثلي الشعر الحر وصاحب نظريات نقدية، يربط بها الأدب بالدين المسيحي. وانطلقت علوم اللغة مع «فرديناند دوسوسير Ferdinand de Saussure » وغيره، وطلع كذلك فلاسفة متعددون، مثل «مارتنت هيدجار ١٨٨٩م ـ ١٩٧٦م» الفيلسوف الوجودي الألماني. وحشد كبير من الكتاب والروائيين والشعراء والفلاسفة اضطربت بهم النظرية الجمالية وتناقضت إلى حد بعيد، بين الفكر والعاطفة والواقع وغير ذلك.

أما في الدراسات الأدبية عند المسلمين فقد احتلت دراسة الجمال مساحة حسنة. إلا أنها كانت تختلف في منحاها عن الدراسات عند اليونانيين خاصة والأوربيين عامة، إلا عند من تأثر بدراساتهم. إن معظم القضايا النقدية التي كانت موضع دراسة عند المسلمين يمكن إيجازها بما يلي: اللفظ والمعنى، المصنوع والمطبوع، وحدة القصيدة، الصدق والكذب، العلاقة بين الشعر والدين، المفاضلة بين الشعراء، والسرقات، وعمود الشعر. وقضايا أخرى هامة برزت في دراسة الجمال الفني في الأدب مثل: الاعتدال، والموازنة، البديهة، والإيمان بالله سبحانه وتعالى. ويتحدد للشعر عمود من ست نقاط تكون هي محور الجمال الفني فيه، وهي: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، إصابة الوصف، المقاربة في التشبيه، الغزارة في البديهة، كثرة الأمثال السائدة والأبيات الشاردة[1].

ما موقف الأدب الإسلامي من هذه النظريات كلها؟ كيف يرى الأدب الإسلامي النبضة الفنية التي تدفع النص الفني؟ ما هي العوامل التي تهبه الجمال؟ ما علاقة النص بصاحبه وبالمتلقي والواقع؟ هل النص ثمرة عاطفة وتجربة شعورية فحسب؟ أم ثمرة فكر فقط؟!

لابد أن يكون للأدب الإسلامي موقفه ورأيه من قضايا الأدب هذه. إن الرأي الذي

---

(١) د. إحسان عباس ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ الطبعة (٤) ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م. دار الثقافة بيروت.

أقدمه هنا عن هذه القضية أبنيه على أساس من طبيعة الإنسان وتعامله مع الواقع كما يعرض ذلك منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ فإليهما أرد الأمر كله، وكذلك على أساس فهمي للأدب ومهمته في الحياة وفي واقعنا من خلال منهاج الله، ومن خلال دراسة الواقع، وكذلك المعاناة والتجربة الشخصية في ميدان الأدب.

الكون كله مفتوح أمام الأدب الإسلامي، وحياة الإنسان كذلك، وأحداث التاريخ والواقع. الكون كله، بما فيه الدنيا والآخرة، تمد الأدب الإسلامي بالموضوعات الحية الفنية، يتخير الأديب المسلم منها ما يستطيع أن يصوغه صياغة تتوافر فيها عناصر الجمال الفني، حتى يصبح الموضوع بصياغته الفنية أدباً يستحق الدراسة والتقدير.

الأدب عطاء الأديب المسلم. يخرج منه، من طاقته، من كيانه وطبيعته حيث تعمل قوى وطاقات، وغرائز وميول، وأهواء وشهوات. يتفاعل الأديب المسلم مع الحياة، مع الواقع، مع الكون، فتتحرك فيه الطاقات، وتتولد النبضة التي تدفع النص الأدبي. ولكن كيف يتم هذا التفاعل؟! إنها عملية معقدة في خلق الإنسان لا نستطيع أن ندرك دقائقها. ولكننا نتلمس أهم معالمها وآثارها وحركاتها.

حسب المذاهب الأدبية المختلفة التي أشرنا إليها فإن أهم العوامل المؤثرة في إطلاق هذه النبضة حسب ما دارت حولها الدارسات أو تناولتها الأبحاث والمذاهب هي: العاطفة والشعور، الفكر، الواقع، التجارب وغيرها. وكل مذهب اختص بعامل واحد أو عاملين، كما رأينا في العرض الموجز قبل قليل. «بومجارتن» يرى العاطفة هي التي تولد النص الأدبي، و«بندتوكروتشيه» يرى الفكر، وغيرهما يرى الواقع، فتتولد الواقعية بأشكالها المختلفة. ولكننا نعتقدُ أن الإسلام يرى غير ذلك.

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على الفطرة، وأودع في فطرة الإنسان ما شاء من أسرار كشف لنا سبحانه وتعالى بعضها، وأخفى عنا بعضها، وهو علام الغيوب.

إن أول هذه القوى التي غرسها الله في كل إنسان هي الإيمان والتوحيد، جعلهما الله عهداً وميثاقاً، حين أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم. فشهدوا وأقروا بأن الله واحد لا إله إلا هو، كما نصت سورة الأعراف على ذلك. وكما نصت

سورة الـروم:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

(الروم: ٣٠)،

وكما جاءت الأحاديث الشريفة بذلك أيضاً. وجعل الله في فطرة الإنسان ميولاً وشهوات، كل واحدة لها مهمة محددة تؤديها في حياة الإنسان على نحو محدد ولتحقّق غاية محددة. وتعمل هذه الميول والرغبات متناسقة متوازنة مادامت الفطرة سليمة لم تتشوه، ومادامت تعمل في رعاية الإيمان والتوحيد، فمنهما تتغذى كل واحدة من هذه الميول، ومنهما ترتوي. ويظل الإيمان والتوحيد القوّة التي تحفظ التوازن والتناسق بينها كلها. وتؤدي كل قوة من هذه القوى وظيفتها التي خلقت من أجلها ما لم تنحرف الفطرة ويضطرب الإيمان ويختل. في هذه الحالة، حين لا تنحرف الفطرة ولا يضطرب الإيمان، تكون هذه الميول والقوى في الإنسان قوى إيمان وميول تقوى. فإذا انحرفت الفطرة واختل الإيمان، فإن هذه القـوة أو تلك تصبـح قوى فجور، وتنحرف إلى الفساد على قدر خلل الإيمان وانقطاعه:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾. (الشمس: ٨).

وجعـل الله الإيمان والتـوحيد علماً حقـاً غرسه في الإنسان، فعلمه حقائقها، وعلمه الأسـماء، وعلمه كذلك ما لم يعلم:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾. (البقرة: ٣١).

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾. (العلق: ٥).

فهنـالك علم علمه الله للإنسان، جعله في فطرته وطبيعته، عرفنا منه طرفاً.

وجعل الله كذلك في فطرة الإنسان القدرة على التعلم والاكتساب آية منه سبحانه وتعالى، وجعل الله السمع والأبصار والأفئدة منافذ للتعلم وللاتصال مع الكون، ليرى الإنسان آيات الله فيتعلمها، فينمو إيمانه ويزداد.

من بين هذه القوى العاملة في الإنسان قوتان واضحتان لنا، ثابتتان فيما نحس به ونشعره ونمارسه، وفيما نتعلمه من منهاج الله. هاتان القوتان هما: أولاً العقل والفكر، وثانياً: العاطفة والشعور. فالأولى هي قدرة الإنسان على التأمل والتدبر، والتحليل والدراسة، والنظر والاستكشاف، والفهم والاستيعاب. ونسمي هذه القوة وما يتصل بها لأداء مهمتها اصطلاحاً بالفكر. والثانية هي العاطفة والشعور والإحساس، ونسميها اصطلاحاً بالعاطفة. إنها القوة التي تهيء العين فتدمع، وتدفع القلب فيخفق، وتشد النظرة فتتحدد. إنها القوة التي تحرك الحنان أو القسوة، الرحمة أو الغلظة. والقوتان تعملان معاً في كيان الإنسان وطبيعته وفطرته. وقد تختلف قوة هذه أو تلك حسب المواقف والقضايا والواقع، وحسب ما يحمله الإنسان من زاد، وما وهبه الله من طاقة لهذه أو تلك على حكمة لله غالبة. ولكن الفكر والعاطفة قوتان تعملان معاً مهما اختلفت نسبتهما، ويتعذر على واحدة منهما أن تعمل في حياة الإنسان أو أن تدفع عطاءه دون مشاركة من الأخرى، مهما قلَّتْ هذه المشاركة. فكل عطاء يخرج من الإنسان سواءً أكان فنياً أم علمياً أم عملياً، فلابد أن تساهم هاتان القوَّتان على الأقل في إخراجه ودفعه. والفكر يوجه العاطفة ويضبطها، والعاطفة تغذي الفكر وتنميه، ويظل بينهما تفاعل قائم في حياة الإنسان لا يتوقف، والإيمان يرعى هذا التفاعل ويرويه ويغذيه، كما يروي ويغذي سائر الطاقات والميول والشهوات، لتعمل على توازن وتناسق، وعلى حكمة لله غالبة، لا نعلم عنها إلا القليل، ولتظل ميدان بحث للإنسان يكتشف من خلاله آيات بينات لله.

ومع مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا يمر بتجارب أو يتلقى علماً، وذلك عن طريق السمع والبصر والفؤاد. وكل حادثة، أو معاناة من فرح أو حزن، أو علم يكتسبه الإنسان وطبيعته وفطرته لينمي فكره من ناحية وعاطفته من ناحية أخرى، ويتفاعل هذا كله في كيان الإنسان ليولد ما نسميه اصطلاحاً بالإدراك. «فالإدراك»، وكما نصطلح عليه، هو ثمرة

العاملين، الفكر والعاطفة معاً، وهو عملية الوعي لا الغيبوبة، عملية الوعي الكامل من الفكر والشعور معاً، لتنشأ عندئذ المسئولية، مسئولية الإنسان عن حركته وكلمته وعمله ونيته.

إن جميع الدراسات والعلوم التي استعرضناها في الفكر الغربي، في الأدب وفي سواه، أهملت دور الإيمان والتوحيد، والنية، والمسئولية، وأهملت امتداد العمل بين الدنيا والآخرة. والإسلام يفصل في كل قضية من هذه القضايا تفصيلاً واسعاً، نحن نحاول إيجازه هنا. ولذلك يتميز الأدب الإسلامي الذي يلتزم التصور الإيماني، بهذه النظرة الصادقة العميقة للإنسان، لجوهره وفطرته وطبيعته، لعلاقته مع الكون والحياة، لمهمته في الحياة، لآماله وعواطفه ورغباته. تصور فريد يجب أن ينتج أدباً فريداً. إنه تصور فريد يعرضه منهاج الله بكل تفاصيله آيات بينات وحقاً مطلقاً. ومن هذا التصور ومن هذه التفصيلات تنطلق نظرية الأدب الإسلامي بكلّ عناصرها.

وحين يريد الإنسان أن يعمل، أو يتحرك ليعمل، أو يفكر، فعندئذ تتحرك فيه طاقة هامة وقدرة مسئولة هي «النية». وهي قدرة الإنسان على القصد والتوجه والعزم. فإذا كانت فطرته سليمة يعمل فيها الإيمان بصورة صحيحة، فإن «النية» تتوجه مع كل عمل أو فكر أو كلمة إلى الله سبحانه وتعالى. وفي هذه الحالة تفتح النية نبع الإيمان والتوحيد ليصب من فيضه، فيروي طاقات الإنسان العاملة مع تلك اللحظة رياً يتناسب مع حاجة الجهد المطلوب، ويحفظ التوازن والتناسق أثناء العمل والسعي والتفكير والإحساس، كما كان يرويها ويحفظ توازنها على قدر لازم قبل الحركة والعمل. ويمضي العمل عندئذ في طريق التقوى والخير والصلاح في حياة الإنسان وحياة البشرية كلها. أما إذا اختل الإيمان بسبب فساد الفطرة وانحرافها، أو تعطل الإيمان، فإن «النية» عندئذ تتجه لغير الله سبحانه وتعالى، وتغيب في أمواج الأهواء والشهوات، ويتوقف الريّ من الإيمان والتوحيد، فتنحرف الشهوات والميول إلى طريق الفجور والفتنة والفساد، وينحرف بذلك السعي والعمل والكلمة، وينحرف عطاء الإنسان كله ويفسد. إنه يفسد حتى لا يقبله الله:

«إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امريء من عمله مانوى. . .» (رواه الشيخان)[1].

أما الحداثة فإنها تلغي النية وتمحوها. لقد ألغت معاني الكلمات وأفرغتها، وألغت علم المعاني، وقتلت صاحب النص بدلاً من إلغائه، ثم جاءت الآن لتلغي النية وتقول: «. . . ومن هنا نلمس مدى استطاعة النص على الاستقلال في وجوده. وهذا ما يقضي على مفهوم (نية المؤلف) لأن نية المؤلف قيمة ثانوية لا تقوى على ملاحقة النص إذا ما أراد النص الشرود عنها. . .»[2].

الرسول محمد ﷺ يجعل العمل كله، صغيره وكبيره، أدباً أو غير أدب، متعلقاً بالنية «إنما الأعمال بالنية. . .» تعبير جامع حاسم. والحداثة تقول: «. . . لأن نية المؤلف قيمة ثانوية. . .».

وكان أحرى أن يقول أحدهم إنه لا يستطيع أن يدرك هو بنفسه أثر النية، بدلاً من أن يجعل قيمتها ثانوية، ثم يقول: ولكن الله أعلم.

إن أثر النية في النص الأدبي ليس أثراً مباشراً نلمسه بإحدى حواسّنا، إنه أثر نفسي معنوي، يدخل في دقائق التفاعل في داخل الإنسان. ولولا أن أعلمنا الله ورسوله بأثر النية في كل عمل الإنسان ما علمنا أهمية النية في الحياة.

والناقد قد لا يستطيع أن يدخل النية في ميزان نقده. لأن النية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى فهو العليم بذات الصدور. ولكن الناقد يستطيع أن يلمس أثر الصدق أو الكذب، الشرف أو الخيانة، الافتراء أو العدل، إلى غير ذلك من الدلالات التي قد يشير إليها النص وارتباطه بالواقع والأحداث. إلا أن أثر النية الهام هو عند صاحب النص، المسئول عن النص، حيث تمتد مسئوليته في الدنيا والآخرة، وحيث تكون النية هي مدار قبول العمل عند الله، حين يكون العمل كذلك مطابقاً لمنهاج الله، فينعكس أثر النيّة عندئذ، كما أوضحنا سابقاً، على النصّ الفني وجماله.

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان (٢). باب (٤١). مسلم: كتاب الإمارة (٣٣). باب (٤٥). رقم (١٩٠٧).

(٢) الموقف من الحداثة (ص: ٨٧).

حين يمر الإنسان بتجارب أو معاناة، أو حين يتلقى زاداً من علم، فإن هذا كله كما ذكرنا، يدخل كيانه ليتفاعل فيه مع الفكر والعاطفة في آن واحد بطريقة ربانية يعلمها الله. ولذلك نؤثر أن نسمي هذه الأحداث كلها «تجارب» دون أن نحددها بتجارب شعورية أو فكرية. لأننا نؤمن أن الفكر والعاطفة يعملان معاً، ولا يكون الفرق بين حالة وأخرى إلا باختلاف نسبة هذا أو ذاك، أو بانحرافه، لا بزوال أي منهما، كما ذكرنا قبل قليل.

ولنوضح هذا التفاعل مع الأحداث والتجارب، نشبه الفكر والعاطفة في الإنسان بقطبين، يستقر على كل واحد منهما قدر محدد من الشحنات المماثلة لهذا القطب أو ذاك، مع كل تجربة وحدث، وتنمو هذه الشحنات مع نمو التجارب والأحداث والزاد، ويكون من بين هذا الزاد علم باللغة وعلم بالأدب وعلم بهذا وذاك، مما يدرسه الإنسان ويتزود به في مسيرة حياته. وتمر هذه التجارب كلها على مصفاة الإيمان والتوحيد إذا كان الإيمان لم يضطرب أو يتعطل، وإذا كانت الفطرة سليمة لم تنحرف. أما إذا جف الإيمان أو اختل أو انحرفت الفطرة، فإن التجارب تدخل مع ما فيها من أخلاط وشوائب دون تصفية، ثم تموج مع الفكر، وتموج مع العاطفة، ليضطرب هذا كله في كيان الإنسان، وليفقد التوازن والتناسق، فتطغى نواح على حساب أخرى، وتجف خصائص وتنمو خصائص، على حكمة لله ماضية وقدر لله غالب عادل لا يظلم.

إن توافر هذه الشحنات النامية على الفكر والعاطفة، يغذي التفاعل بين الفكر والعاطفة وينميه. ويضع الله سبحانه وتعالى في بعض خلقه قدرة متميزة في ناحية من نواحي الحياة. نسمي هذه الطاقة المتميزة والقدرة الخاصة بالموهبة. ولا نستطيع أن نعرف الموهبة بأكثر من أنها حالة غنية من حالات تفاعل الفكر والعاطفة، وهي طاقة من الطاقات الداخلة في كيان الإنسان، وهي نعمة من نعم الله يهبها لمن يشاء من عباده، وابتلاء منه سبحانه وتعالى. وترعى الموهبة التفاعل بين الفكر والعاطفة على قدرين متميزين، وعلى صورة تحفظ هذه الطاقات من أن تتبدد وتضيع. ويجعل الله بحكمته وعلمه مواهب شتى في خلقه فهذه موهبة في العلوم، وهذه موهبة في الشعر، وتلك في القصة، وأخرى في هذا الباب أو ذاك. إنها الموهبة في أي ميدان من ميادين النشاط والعطاء، ترعى التفاعل بين

الفكر والعاطفة وتدفع منهما العطاء.

ربما ينطلق العطاء من الإنسان نتيجة تفاعل عادي بين الفكر والعاطفة. وربما تقع حادثة أو تجربة فتترك شحنة أقوى على العاطفة، أو شحنة أقوى على الفكر، وربما تهز التجربة العاطفة والفكر حتى تدمع العين دون أن تقدم عطاء فنياً. ذلك لأن العطاء الفني ليس نتيجة تجربة واحدة، ولكنه نتيجة تجارب، وليست التجارب هي العامل الوحيد للعطاء، وإنما عامل من العوامل. وهذه التجارب بامتداد معناها تمثل أثر الواقع في عطاء الإنسان، وأثر الماضي كله، وأثر آمال المستقبل.

ولنقرّب الصورة فإننا نمثل التجارب بالشحنات الكهربائية التي تتجمع على هذا القطب وذاك، كما شرحنا أعلاه. والموهبة ترعى التفاعل بين القطبين، وتوفر الظروف المناسبة للتفاعل الغني المتميز، وتوفر نمو الشحنات هنا وهناك، حتى تحين لحظة معينة، تطلق الموهبة عندها الشرارة الكهربائية بين القطبين، فتطلق الومضة الغنية التي تدفع العمل الفني في لحظة الإبداع، نصاً من الشعر أو النثر، أو العلم، أو غير ذلك، حسب نوع الموهبة التي أنعم الله بها على عبده هذا أو ذاك، تنطلق الومضة الغنية من التفاعل الغني بين الفكر والعاطفة عندما تتوافر كافة الظروف الضرورية للانطلاق، ولا تنطلق الومضة إذا غاب عامل من عوامل إطلاقها.

والومضة الغنية التي تنطلق في لحظة الإبداع هذه، تكون في أعظم حالاتها الإنسانية وأعمقها وأغناها إذا كانت منطلقة في رعاية الإيمان والتوحيد، وصدق النية والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى. إنها تنطلق وهي تحمل كل عناصر الجمال المؤثر الموحي. إنها تحمل نور الإيمان وإشراقة النية وغنى التجربة وجمال الفكر والعاطفة. إنها تحمل الجمال المتصل بالكون، بالحياة الدنيا وبالآخرة. إنها أعظم لحظات الإنسان.

إن هذه الومضة قد تدفع جولة عبقرية في ميدان الجهاد في سبيل الله، أو عملاً رائعاً مؤثراً في واقع الإنسان في أي ميدان من ميادين نشاطه، أو نصاً فنياً من شعر أو نثر، في جمال أدبي فني متميز.

إن الإيمان والتوحيد حين يروي طاقات الإنسان، وحين يصب ريّه على الطاقات العاملة

لحظة عملها، وحين ينقي التجارب والأحداث، وحين تفتح النية الصادقة نبعه وفيضه، عندئذ يهب الإيمان والنية عمل الإنسان أجمل ألوانه وأزهاها، غنية قوية. إن عمل الإنسان عندئذ خفقة الحياة الطاهرة، ونبضة الروح المؤمنة، وقوة الحركة وزهوة الصورة. والموهبة تدفع هذا العطاء العظيم وتطلق ومضته في رعاية الإيمان والتوحيد[1].

الموهبة لا تموت مادام صاحبها حياً. إنها تكمن حتى تجد الغذاء والريّ لتعمل. إنها تظل مدفونة في صاحبها حتى تنزل معه القبر، إذا لم تجد الفرصة للنمو والتفتح والإزهار. وإن أعظم ما تفقده الأمة مواهبها، حين تدفن المواهب قبل أن تتفتح، وتهيل عليها التراب قبل أن تحرك الطاقة وقبل أن تزهر.

هكذا ينطلق النص الفني، يشترك في إطلاقه وصياغته وأسلوبه وألوانه، وصورته وحركته: الإيمان والتوحيد، النية، الفكر والعاطفة وغيرهما من القوى العاملة في الإنسان مما نجهله، التجارب والأحداث والعلوم، يمد بها الواقع والكون والحياة، الموهبة، كل هذه العوامل تشترك في إطلاق النص الأدبي في لحظة من لحظات الإبداع، على النحو الذي عرضناه، على حكمة الله غالبة وقدر الله ماض. فإليه ترجع ا لأمور وبيده مقاليد كل شيء.

ومن هذا التصور لا ينحصر الموضوع الفني في باب دون باب. فالموعظة والخطبة باب عظيم من أبواب الأدب الإسلامي مادام يحمل هذه الخصائص الفنية، ويحمل معها الجمال المؤثر. والموضوع السياسي كذلك يمكن أن يكون موضوعاً فنياً. وهكذا سائر الموضوعات التي تمد بها الحياة وميادينها، والكون وآفاقه.

من هنا ندرك الومضة الفنّية الغنية في شعراء الدعوة الإسلامية، حسان بن ثابت، عبدالله بن رواحة، كعب بن مالك، جعفر بن أبي طالب، كعب بن زهير بعد أن أسلم، حيث ترتفع الكلمة والتعبير والنص، يرتفع هذا كله غنياً بالإيمان والتوحيد، طاهراً نقياً، يحمل معه تاريخ أمة الإسلام كلها، وجماله وعزته.

---

(١) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته: العناصر الفنية (ص: ٤٢ ـ ٤٥) الموضوع الفني الأدبي (ص: ٦١ ـ ٧٧). الإسلام والجمال (ص: ٢٤٣ ـ ٣٠١).

لا حاجة إذن إلى غسل الكلمة من الماضي وتطهيرها، كما تريد الحداثة، فإن كلمة الإسلام غنية طاهرة بماضيها وحاضرها ومستقبلها، لا تحتاج إلى تطهير.

ومن هنا، وبعد هذاالعرض، نستطيع أن نقدم تعريفاً للأدب والفن على الأسس التي قدمناها، لنبين عمق البعد الإنساني في الأدب الإسلامي وامتداد ميدانه.

«الأدب الإسلامي هو ومضة التفاعل بين الفكر والعاطفة في فطرة الإنسان، تمدها الأحداث والتجارب والعلوم، وآفاق الحياة الدنيا والآخرة والكون كله بالزاد والشحنات، حين تطلق الموهبة ومضة التفاعل هذا، وحين يروي الإيمان والتوحيد وصدق النية طاقات الإنسان العاملة في فطرته وكيانه، لتحمل الومضة معها عناصر الجمال الفني، وليشارك الأدب الأمة المسلمة في تحقيق أهدافها الإيمانية الثابتة والمرحلية، وليساهم من خلال ذلك في عمارة الأرض، وبناء حضارة إيمانية طاهرة، وحياة إنسانية نظيفة، وهو يخضع في ذلك كله لمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ المنهاج الذي جاء لساناً عربياً مبيناً».

والنص الفني مرتبط بصاحبه، لا يمكن إلغاؤه ولا قتله، كما يريد «رولان بارت» وكما يريد الحداثيون. ويمكن أن نحصر العناصر المؤثرة في النص الفني الأدبي بمجموعتين. مجموعة ترتبط بالنص ذاته، ومجموعة ترتبط بصاحب النص وواقعه وعالمه، وجميع هذه العناصر تزيد من ارتباط النص بصاحبه.

أما المجموعة الأولى فتشمل: الصياغة الفنية وما تحمله من اختيار اللفظة وبناء التعبير وربطه حتى يتكون النص كله. وكذلك الموضوع الفني أو القضية التي يدور حولها النص، ومدى مواءمة الصياغة للموضوع والقضية. ثم الشكل الفني أو الأجناس من شعر أو نثر، قصة ورواية أو ملحمة، وغير ذلك. ثم الأسلوب الفني.

أما المجموعة الثانية فتشمل: الإنسان صاحب النص وما يحمله من فطرة وقدرات ومواهب وعلم، ثم واقعه الممتد امتداد الكون على قدر ما يتصل به الإنسان، وما يحمل من تاريخ يساهم في تكوين زاده وواقعه، ثم العقيدة التي يرتبط بها.

ولقد أخذت معظم المذاهب الأدبية، على ضوء ما عرضناه، عنصراً من هذه العناصر واعتبرته أساس الجمال ومحور النقد وعنصر الفن، فغالت به وارتبطت به، حتى عرفت

به. كالأسلوبية والشكلية والواقعية والإنسانية وغيرها. ففقدت بذلك سمة العدل وسلامة الموازنة والتقدير، مع اختلاف ما تحمل هذه الكلمات عندنا وعندهم.

وكل عنصر من هذه العناصر في المجموعتين يساهم في حالة نجاحه بإضافة جمال فني إلى جمال فني، على النحو الذي عرضناه. ويزيد كذلك من وضوح المسئولية في الأدب، بمسئولية صاحب النص عن نصه الذي دفعه، مسئولية في الدنيا، ومسئولية في الآخرة، وحساب بين يدي الله شديد، حتى يتعذر أبداً فصل النص عن صاحبه كما تطلب الحداثة.

ونظرية الجمال في الإسلام واضحة جلية، تنبع كلها من الإيمان والتوحيد على النحو الذي عرضناه. فإذا ذهب الإيمان والتوحيد غاب الجمال وطوي: فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال» (رواه مسلم)[1].

والجمال ممتد في الكون آيات بينات، في السماء والأرض، وفي أنفسنا. ولكن المؤمن يرى من الجمال ما لا يراه سواه. والجمال ممتد في الكون كله، في عالم الغيب والمشهد:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ (النور: ٣٥).

والجمال صفة من صفات الجنة ونعمة من نعم الله الكبرى. والجمال في الإنسان نفسه:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (التين: ٤).

الجمال في فطرته وفي نفسه وهي على الإيمان، والجمال في عمل المؤمن وكلمته: صبر جميل، وسراح جميل، وصفح جميل، وهجر جميل. فليس الجمال في الإسلام غيبوبة كما هي عند الحداثيين، ولا هو إلغاءً للإرادة وإغراقاً في التأمل الخالص، كما هو عند شوبنهور، ولكنه في الإسلام جمال الوعي واليقظة، وجمال السعي والجهاد. ولا هو عالم أشباح وأساطير. إنه جمال الحقيقة الصادقة الواعية الأمينة. إنه جمال اتصال الإنسان بالكون والحياة اتصال وعي وإدراك لهذا الحق، وبذلك فهو جمال عبادة حقيقية لله نؤديها كما أمر الله.

---

(١) صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب الكبر وبيانه (حديث: ١٩).

أما الجمال في العمل الفني، فقد سبق أن عرضنا جذوته وينبوعه وعناصره. وذكرنا كيف يتولد، حيث تجتمع العناصر كلها والطاقات كلها. إن ينبوعه الإيمان والتوحيد، ومادته الصدق والشرف، وغذاءه الحق والمروءة، ونهجه الاستقامة والعدل.

ولكن كثيراً من المذاهب الأدبية والفنية حولت الجمال إلى جمال جسد المرأة، كما حولت الحُب إلى لهيب الشهوة. لقد قتلوا جوهر الجمال بالتناقض والاضطراب، والحرب والطغيان، والعدوان والأثرة، حتى قُلبت الموازين واختلطت المعايير. ولقد عرضنا أبياتاً رائعة الجمال لابن الرومي، جاء التحليل البنيوي فقتلها وأذهب جمالها وهبط بها إلى وحول الشهوة الملوّثة. ألم يقل أحدهم: «كل ما هو نافع قبيح»؟! فالإيمان يروي العمل ويغذيه، والنية هي القوة الدافعة، والموهبة هي التي تصوغ التفاعل بين الفكر والعاطفة، وما يحملان من شحنات صافية غنية، والموازنة هي العامل المنظم لعناصر الجمال في العمل الفني.

أديب ناثر أو شاعر يصف روضاً أو زهرة أو لوحة في الحياة، فلا يرى فيها إلا اللون والورق والرائحة، لا يتجاوز ذلك. تظل متعته آية محدودة. وآخر يرى ما رآه الأول، ولكن رأى أيضاً من آيات الله تتجدد أمامه في هذا الكون، ونعمة تستحق الحمد والشكر، فأخبت لخالقه وخشع وأناب، فكان جمالاً ممتداً ومتعة دائمة. وآخر عميت أبصاره وعلتها غشاوة من الفتنة والكفر، فغاب عنه الجمال الحق مهما حمل من زخرف وزينة.

في القرآن الكريم لكلمة الجمال ظل خاص وجو من الشذا والعطر، ليس لغيرها من الكلمات. كلمة الجمال لا تأتي في منهاج الله إلا مع الإيمان والحق، والصلاح والخير والطهارة.

المظهر الخارجي لمايسميه الناس جمالاً، يسميه القرآن الكريم زُخرفاً وزينة. فإذا عملت الزينة في الخير أصبحت جمالاً، وإن عملت في الشر أصبحت فتنة. الكلمة العامة هي زخرف وزينة ثم تتحول إلى جمال أو إلى فتنة.

وللجمال متعة دائمة يعيش معها المؤمن. وللفتنة لذة عابرة ثم لهيب وحريق وشر. الزواج سكن وجمال ومتعة دائمة. والزنا لذة عابرة وشقاء وأمراض. الجمال والمتعة في الأدب الإسلامي ينهلان من نبع واحد.

الأدب الإسلامي بجماله الحق قوة تساهم في بناء الإنسان وصلاحه وسعادته، يحمله المؤمنون الصادقون، تحمله الأمة المسلمة في الأرض، لتنشر النور والحق على هدى منهاج الله.

الأدب الإسلامي هو أدب الجمال وجمال الأدب. كلمته جمال، تعبيره جمال، ومعناه جمال. وقبل ذلك كله الأدب نفسه جمال. وأنى للأدب أن يكون جميلاً إذا فقد الأديب الجمال في نفسه ووعيه، في سعيه وممارسته، في كلمته، في سره وعلانيته.

لابد أن يتوافر الجمال أولاً في الإنسان ذاته، في جوهره وحقيقته، في فطرته. ولذلك خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، خلقه على الفطرة، لتحمل معها كل عناصر الجمال. فإذا فسدت الفطرة وانحرفت، واختل الإيمان واضطرب بما كسبت يدا الإنسان، ارتد الإنسان أسفل سافلين، كما نص القرآن الكريم، وفقد بذلك كل عناصر الجمال في نفسه، ثم في وعيه وسعيه، ثم في كلمته وأدبه. وبذلك يكون للجمال معنى محدد واضح في الإسلام، حددته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

حتى يتحقق معنى الجمال في ذات الإنسان وداخله ونفسه وفطرته، فلابد أن تتحقق عناصر الإيمان والتوحيد، ونوجزها بما يلي:

١ - أن يعي الإنسان أن الإيمان والتوحيد هما أخطر قضية في حياته، لا تعلو عليهما قضية أخرى أبداً، وأن الحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة للإنسان لتصحيح مسيرته، ولا رجعة بعد الموت لتصحيح أي انحراف عنها. وكذلك أن يعي الإنسان أن الإيمان والتوحيد هما القضية الكبرى في الكون كله، عليهما يقوم كل نظام الحياة والكون، وبهما تتصل الدنيا بالآخرة.

٢ - أن يعي حقيقة معنى الألوهية والربوبية كما يعرضها منهاج الله، وأن يعي حقيقة العبودية كذلك، وحقيقة العلاقة بين العبد المخلوق، والله الخالق الذي له الأسماء الحسنى كلها. ذلك كله كما يعرضه منهاج الله عرضاً كاملاً متناسقاً بيناً.

٣ - أن يعي حقيقة عهده مع الله، عهده الذي أخذه الله من بني آدم كلهم في عالم الغيب. فما من مخلوق إلا وهو على عهد ثابت مع الله، نسيه الإنسان أم لم ينسه. وكذلك أن

يعي أنه مسئول عن أن يكون أي عهد يقيمه في الدنيا نابعاً مرتبطاً مع عهده مع الله.

٤ ـ أن يكون ولاؤه الأول لله، ومن ولائه هذا يجب أن ينبع كل ولاء له في الحياة الدنيا.

٥ ـ أن يكون حبه الأكبر لله ولرسوله، كما أمر الله بذلك ورسوله. وبذلك يكون تضرعه وخشوعه ولجوؤه إلى الله سبحانه وتعالى.

٦ ـ أن يعيش مع منهاج الله ليظل يرتوي من هذا المنهل الغني الصافي، يروي به فطرته وطاقاته.

بهذه الخصائص الإيمانية يرتبط الإنسان مع ربه وخالقه الله الذي لا إله إلا هو، فيرتبط بذلك مع الكون كله ونظامه، ويتناسق في عبودية خاشعة لله، كما يخشع كل ما في الكون لله، ويرتبط جمال مع جمال، في موكب من الجلال، فيخرج الأدب غنياً يحمل الحق من نفس الأديب ومن الحياة ومن الكون.

ولا يختص الجمال الفني في النص وحده أو الأديب وحده، ولكنه يمتد للأمة المسلمة في الأرض، المنطلقة فيها تحمل رسالة الله إلى الناس كافة، ولتكون خير أمة أخرجت للناس، ولتكون أمة وسطاً، وليكون جنودها وأبناؤها شهداء على الناس، يحملون الكلمة الحلوة الطيبة الغنية للبشرية كلها، يحملون الأمانة في جميع صورها، أمانة الوعي، أمانة السعي، أمانة الكلمة والأدب، ليكون في هذا كله دفقة جمال مع دفقة جمال، من ميدان الجهاد أو ميدان الأدب والكلمة. فتدفع الأمة كلها، عزة الجمال الفني في تاريخ مشرق في حياة البشرية، ليأخذ الأدب الإسلامي بعده العالمي وعمقه الإنساني.

وحتى يتحقق ذلك في واقع الأمة المسلمة وهي تحمل رسالة الله، فلابد أن تقوم دعوتها على أسس أربعة متماسكة لا يغني بعضها عن بعض:

أولاً: الدعوة إلى الإيمان والتوحيد كما يعرضها منهاج الله.

ثانياً: المنهاج الرباني ـ قرآناً وسنة، كما جاء لساناً عربياً مبيناً.

ثالثاً: الواقع من خلال منهاج الله.

رابعاً: ممارسة منهاج الله في الواقع البشري.

عندئذ تستقر أسس الفكر والوعي، وأسس الجهد والسعي، وأسس الأدب وأبوابه،

جمالاً رائعاً في موكب إنساني ماض حتى تقوم الساعة.

أمام الأدب الإسلامي اليوم تحديات كثيرة. الأدب الإسلامي يبحث اليوم عن الساحة التي يتنفس فيها هواءه النقي، ويبحث عن الإعلام الذي يحمل كلمته، وعن الرعاية الحانية التي تحوطه، ليقدم النظرية والنص، ليقدم الشعر والنثر، ليقدم الفكر والعاطفة، وليخوض معركة الأمة متضامناً مع سائر أسلحتها.

إن أول المعركة هي في ذات الأديب صاحب النص والأديب الناقد، حتى يتحرر من جميع العصبيات التي أمره الله أن يتحرر منها، حتى يستطيع أن يعطي وينصح ويجاهد، ويصدق في ذلك كله، بعيداً عن التحاسد والتناجش والفتنة.

على الأدب والأديب أن يتحررا من ضغوط الفكر الأوروبي وأدبه، ومن ضغوط الوثنية اليونانية وآثارها الممتدة في حياة الناس وأدبهم.

على الأدب الإسلامي، بعد ذلك، أن يقدم نظريات جديدة في الأدب والنقد، في النهج والأسلوب، تصوغها الموهبة المؤمنة التي يرعاها المجتمع المؤمن فلا يقتلها. عليه أن يقدم نظرياته على الأسس الأربعة التي عرضناها: الإيمان والتوحيد، المنهاج الرباني، الواقع، ممارسة منهاج الله في الواقع.

الإسلام غني بثروته. إنه نبع غني ثر، يغني البشرية كلها إذا حملته المواهب المؤمنة في الأرض، لتدفع إلى الناس أصدق النظريات والمناهج.

الحداثة قطعت الماضي، وقتلت الحاضر، وأظلمت المستقبل. الأدب الإسلامي يصل الماضي ويطلق الحاضر ويضيء المستقبل.

مسئولية الأدب الإسلامي مسئولية إنسانية، تحتاج إلى عزائم وإيمان وعلم ومواهب.

وأقدم مع نهاية هذا البحث قصيدة مهرجان القصيد نموذجاً للأدب الإسلامي كما أتصوره وكما عرضته في هذه الدراسة.

والحمد لله رب العالمين

مهرجان القصيد

أو

الأدب الإسلامي

«مَهْرَجَانَ القَصيد» غَنّ قَصِيْدِي　　بَيْنَ زُهْرِ المُنَى وحُلْوِ النَّشِيْدِ
فالمَعَاني انْتَقَيْتُها مِنْ جِنَانٍ　　والهَوَى صُغْتُه مَآثِرَ صيدِ
والقَوَافِي كَأَنّها عَبَقُ الرَّوْ　　ضِ وَنفْحُ الوُرُودِ بَيْنَ الوُرُودِ

* * *

هَاهَنا نَفْحَة مِنَ الأَمَلِ الحُلْـ　　ـو وفَيْضٌ من خيره المَمدُودِ
وَلقَاءٌ يَمُوجُ بالنُّورِ يَجْلو　　مَكرُمَاتِ البَيَانِ دَفْقَ الجُودِ
إِيْهِ «لَكْنُو» فَكَمْ ضَمَمْتِ نَديًّا　　مِنْ شُيُوخٍ وَمِنْ شَبابٍ نَجيْدِ
يَا حَنانَ الهَوَى وصَفْوَ ودادٍ　　غَرِّدي مِنْ قَصِيدِكِ المَعْهُودِ
زَيِّني دَارَكِ الغَنِيَّةَ بالشَّوْ　　قِ، بِمَجْدٍ بِمَلحَمَاتِ الجُدُودِ

* * *

كَمْ دَعَوْتُ القَصِيدَ من دَمْعَة الذُّلْـ　　ـلِ فَأَلْوَى إلى مَكَانٍ بَعيدِ
كَمْ تَلَفَّتُّ في دُرُوب هَوَانٍ　　وَحَوالَيَّ ألفُ خَطْوٍ شريدِ
وَبقَـايَـا قَـوَافِـل مَزَّقَتْها　　عَضَّةُ الرِّيح والتطامُ النُّجُودِ
زَحَمَتْها عَلَى الدُّرُوب زَوَايا　　وَرَمَتْها في غَيْهَبٍ وسُدُودِ
أَفْلَتَتْ مِنْ يَدَيَّ زُهْرُ القَوافي　　وَنَأى اللحْنُ في بطونِ البِيْدِ

وَالمَعَاني تَنَاثَرَتْ في فَضَاء واخْتَفَتْ خَلْفَ أُفْقِهِ المسْدُودِ
كِبْرِياءُ القَصِيدِ يَشْمُسُ عَنْ ذُلْـ ـلٍ ويَنْأى عَنِ الهَوَى والجُحودِ
عِزَّةٌ فِيه، إنَّهُ أدَبُ الإسْـ ـلَامِ غَرْسُ الإيمانِ، رَيُّ العُهودِ

* * *

يَا إبَاءَ القَصِيدِ يَرْفَعُهُ الصِّدْ قُ فَيَرْقَى إلى مَطَافِ خُلُودِ
لَا يَسِفُّ الهَوَى وَلَا يَهْبِطُ الحِسْـ ـسُ وَلَا ينحني لعَضِّ قُيودِ
شَرَفُ القَوْلِ مِنْ هُدَى الحقْـ ـقِ وسِحْرُ البَيَانِ بالتَّوْحِيدِ
أَدَبٌ يَرْتَوِي البَيَانُ لَدَيه مِنْ حَدِيث، مِنَ الكِتاب المَجِيدِ
رَفَّ بالطِّيبِ عُودُهُ فَتَمنَّى كُلُّ رَوْضٍ نَدَاوَةً مِنْ عُودِ
يَنْشُرَ الجَوْهَرَ الكَرِيمَ عَلَى الدَّهْـ ـرِ غَنِيّاً باللُّؤلؤ المنْضُودِ
فَأتَى الشَّاعِرُ المُدِلُّ عَلَيْهِ صَاغَهُ مِنْ أَسَاوِرٍ وَعُقُودِ
فَتَمَنَّتْ مُهَفْهَفَاتُ الغَوَاني حِلْيَةً حَوْلَ مِعْصَمٍ أوْجِيدِ

* * *

هُوَ رَفُّ النَّدَى عَلَى الوَرَقِ اليَا بِسِ يَهْتَزُّ في رَبِيعٍ جَدِيدِ
هُوَ خَفْقُ الأوْتَارِ بالنَّغَمِ الحَا نِي عَلَى بَهْجَةٍ وَفَرْحَةِ عِيدِ
هَوَ زَهْوُ الصِّبَا التَّقِيِّ وَشَوْقٌ مِنْ عَفافٍ وَزِينَةٌ في بُرُودِ
هُوَ في الكَوْنِ آيَةٌ حَوَّمَ المَجْـ ـدُ عَلَيْهَا فَعَادَتْ رَوائِعاً مِنْ نشيْدِ

* * *

يَا حَنَانَ القَصيدِ، يَا لَمْسَةَ الإسْـ ـلَامِ سَلْوَى الحَزِين مَأوى الطَّرِيدِ
يَارِحَابَ الأمَانِ يَمْسَحُ ذُلّاً عَنْ جُفُونٍ وَدَمْعَةً عَنْ خُدُودِ
يَاحِمىً يَفْزَعُ الضَّعِيفُ إلَيْهِ فإذَا فيه قُوَّةٌ مِنْ أُسُودِ
ياغَنَاءَ الفَقِير في مَنْهَجِ الحقْـ ـقِ وَفي دَرْبِهِ الأمِين الرَّشِيدِ

يالنُعْمى الإنْسَانِ يَحْمِلُ مِنْهُ		مِشْعَلاً شَقَّ مِنْ لَيَالٍ سُوْدِ

* * *

رَفْرَفَ الشَّوْقُ، فانْتَقَى أدَبُ الإسـ		ـلاَمِ مِنْهُ قُمْرِيَّةَ التَغْرِيدِ
وَهَبَ الحُبُّ عِنْدَه الآيَةَ الكُبْـ		ـرى وأغْنَى قُدْسِيَّةَ التَرْدِيدِ
فَهُـوَ الله لاَ إلـه سِـوَاهُ		هِيَ أعْلَى هَوًى وأحْلى نَشِيدِ
رَجِّعي يَادُنا جَلاَلَ هَوَانا		واسْجُدي وانْعَمي بهذا السُجودِ
أنا عَبْدٌ لله مَا أعظَمَ الحُبْـ		ـب وَأَغْنَاهُ باليقَين الشَّديد
يَا أهازِيجُ يَا نَشيدَ اللَّيَالي		رَجِّعي اللحْنَ أو أعيدي قَصِيدي
أنا بالحبِّ نَشْوَةٌ في فَمِ الدَهْـ		ـرِ ولَحنٌ مِنَ الهَوَى المنْشُودِ

* * *

يَا عَطَاءَ الإسْلاَم يَا نَفْحَةَ الإيـ		ـمَان يَادُرَّةَ العَطَاءِ الفَرِيدِ
أَدَبٌ شَعَّ في اللّيَالي مَعَ العَزْ		مِ زَكَا عِطْرُهُ دَماً مِنْ شهيدِ
كَمْ جَلاهُ عَلَى المَيادين فُرْسَا		نُ وَغَنَّتْهُ وَثْبَةٌ مِنْ صِيدِ
فانْهَضِي يَارَوَائعَ الشِّعْرِ هذي		سَاحَةٌ زَغْردي لَهَا وَأعيدي
أنْتِ في ذِرْوَةِ البَيَانِ عَطَاءٌ		زَاخِرٌ بالهُدَى وأبْحُرُ جُودِ

* * *

يَادِيَارَ الإسْلاَمِ جُنَّتْ رُبَاهَا		بَيْنَ عَادٍ مُرَوِّعٍ وَحَسُودِ
أطْلقي دُونَهُ البَرَاكِينَ، صُبّي		حِمماً، زَلْزلي القَوَاعِدَ، مِيدي
وَاعصِفي غَضْبَةَ الأعَاصِير، وارْمي		فَوْقَهُ مِنْ قَنابِلٍ وحَديدِ
لسْتُ بِالشَّاعِرِ المُدِلِّ إذا لَمْ		يَكُ شِعْري قَذَائِفاً مِنْ وَقُودِ
وَإذا مَا انْطَوى عَلَى الغِمد سَيْفٌ		أو خَلاَ السَّاح من هَوَى صِنديدِ

سَوفَ يَمْضي عَلَى الطَّرِيقِ قَصِيدِي		كالنَّدَى رَفَّ في رَبِيعٍ جَدِيد

* * *

يا أديبَ الإسْلامِ أيْنَ السَّرَايا		نَزَعَتْ عن مَضَاجِعِ وَمُهُودِ
أيْقَظَتْهَا صَوَاعِقٌ مِنْ نِدَاءٍ		خاطِفَاتٌ بَقِيَّةً مِنْ كُبُودِ
دَفَعَتْهَا إلى النِّزَالِ أهَازِيـ		ـجُ فَمَاجَتْ عَلى لهيبِ النَّشيدِ
وَجَلتْهَا عَلَى بِطَاحِ «فِلَسْطِيـ		ـنَ» دَوِيًّا في يَوْمِهَا المَشْهُودِ
وَعَلَى «كَابُلٍ»، وَزَمْزَمَتِ الأرْ		ضُ لَهِيبًا وَأرْعَدَتْ بالجُنُودِ

* * *

أدَبُ التَّائِهينَ لَيْلٌ وَخَمْرٌ		بَيْنَ كَأسٍ مُحطَّمٍ أوْ غيدِ
حِينَ يَغْفُو القَصِيدُ في خَدَرِ السُّكْـ		ـرِ لَخَصْرٍ مُهَفْهَفٍ وَنُهُودِ
أدَبٌ ذَلَّ في الفُجُورِ وَنَامَتْ		بَيْنَ أحْضَانِهِ جُفُونُ العَبِيدِ
يَتَوَارَوْنَ خَلْفَ سِحْرِ شِعَارٍ		كاذِبٍ أوْ زَخَارِفٍ ووُعُودِ
سَمِّ مَا شِئْتَ مِنْ مِثَالٍ فَهَذا		أدَبُ الضَّائِعِ الشَّقِيِّ الجَحُودِ
سَوفَ يَفنَى مَعَ الزَّمَانِ. وَيَبْقَى		أدَبُ الحَقِّ شُعْلَةً في الوُجُودِ




أهم مراجع كتاب

تقويم نظرية الحداثة
وموقف الأدب الإسلامي منها

١ ـ القرآن الكريم :

ـ ابن كثير ـ الحافظ عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن كثير ـ تفسير القرآن العظيم ـ الطبعة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٢ ـ الأحاديث النبوية :

ـ أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ـ صحيح البخاري ـ الطبعة ١٩٧٩م ـ «المكتبة الإسلامية» ـ استانبول ـ تركيا .

ـ أبـوالحسن مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري ـ صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ الطبعة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ رئاسة البحوث ـ الرياض .

ـ أبوعبدالله محمد بن عيسى الترمذي ـ الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

ـ أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني ـ سنن أبي داود ـ إعداد وتعليق : عزت عبيد الدّعاس وعادل السيد ـ الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م ـ دار الحديث ـ حمص ـ سوريا .

ـ أحمد بن حنبل الشيباني ـ الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ـ ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا ـ دار الشهاب ـ القاهرة .

- محمد ناصر الدين الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - الطبعة الثالثة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - المكتب الإسلامي - بيروت.

٣ - الكتب الفكرية:

- كيللي، م. كومالزون - المادية التاريخية - ترجمة أحمد داود - تدقيق د. بدر الدين السباعي - الطبعة ١٩٨٣م - دار الجماهير - دمشق.
- ف. كونستانتينوف وعشرة آخرون من أساتذة الجامعات السوفيتية - الماديّة الديالكتيكية (الجدلية) - ترجمة فؤاد مرعي وزميلاه - تدقيق عدنان جاموس - دار الجماهير - دمشق.
- محمد البهي (دكتور) الفكر الحديث وصلته بالاستعمار الغربي - الطبعة التاسعة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - مكتبة وهبه - القاهرة.
- محمد قطب - مذاهب فكرية معاصرة - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - دار الشروق - بيروت - القاهرة.
- ميخائيل غورباتشوف - البيروسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع - الطبعة الرابعة ١٩٨٨م - ترجمة د. محمد أحمد شومان وثلاثة زملاء - دار الفارابي - بيروت.

٤ - النقد الأدبي:

- أبوعثمان عمرو بن الجاحظ - البيان والتبيين - الطبعة ١٩٦٨م - دار الفكر للجميع.
- إحسان عباس (دكتور) - تاريخ النقد الأدبي عند العربي - الطبعة الرابعة - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م - دار الثقافة - بيروت.
- عبدالرحمن رأفت باشا (دكتور) - نحو مذهب إسلامي في النقد - الطبعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- عبدالباسط بدر (دكتور) - مقدّمة لنظرية الأدب الإسلامي - الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - دار المنارة - جدة - السعودية.
- عدنان علي رضا النحوي (دكتور) - الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - دار النحوي للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية.

- محمد غنيمي هلال (دكتور) - النقد الأدبي الحديث - الطبعة ١٩٧٣م - دار الثقافة ودار العودة - بيروت.
- محمد مصطفى هدّارة (دكتور) - دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق - الطبعة ١٩٨٩م - الدار الأندلسية للأوفست.

٥ - الحداثة من خلال النظرة الإيمانية:

- أحمد فرح عقيلان - بين الأصالة والحداثة - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ نادي الطائف الأدبي - السعودية.
- عدنـان علي رضا النحوي (دكتور) - الحداثة في منظور إيماني - الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م - دار النحوي - الرياض.
- عوض بن محمد القرني - الحداثة في ميزان الإسلام - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م - دار هَجَر - القاهرة.

٦ - الحداثة من مصادرها:

- أدونيس (علي أحمد سعيد - دكتور) - مقدمة للشعر العربي - الطبعة الرابعة - ١٩٨٣م - دار العودة - بيروت.
- عبدالله محمد الغذامي (دكتور) - الخطيئة والتكفير - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - النادي الأدبي الثقافي - جدة - السعودية.
- عبدالله محمد الغذامي (دكتور) الموقف من الحداثة ومسائل أخرى - الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - مطابع دار الميلاد - جدة.
- عابد خزندار - حديث الحداثة - الطبعة الأولى - ١٩٩٠م - المكتب المصري الحديث - القاهرة.
- كمال أبوديب (دكتور) - جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر - الطبعة الثالثة ١٩٨٤م - دار العلم للملايين - بيروت.
- مالكولم برادبري وجيمس ماكفرلن وتسعة آخرون من أساتذة الجامعات - الحداثة (١٨٩٠ - ١٩٣٠م) - الطبعة ١٩٧٨م - دار المأمون للترجمة والنشر.

٧ـ الدواوين الشعرية:

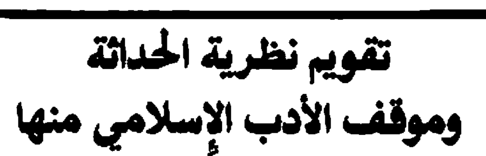
- أبوبكر السقاف وخمسة عشر كاتباً آخرون ـ عبدالعزيز المقالح، إضاءات نقدية ـ الطبعة الأولى ١٩٧٨م ـ دار العودة ـ بيروت.
- شقير وعكشه للطباعة والنشر والتوزيع ـ عمان ـ الشعر في جرش، مهرجان للثقافة والفنون الخامس لسنة ١٩٨٦م ـ الطبعة ١٩٨٨م.
- صلاح عبدالصبور ـ ديوان أقول لكم ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٢ ـ دار الشروق ـ القاهرة.
- محمود درويش ـ ديوان محمود درويش ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٩م ـ دار العودة ـ بيروت.
- نازك الملائكة ـ ديوان نازك الملائكة ـ المجلد الثاني ـ الطبعة ١٩٧٩م ـ دار العودة ـ بيروت.

٨ـ المراجع باللغة الإنجليزية:

- Anthony Giddens - The Consequences of Modernity - stanford University Press - stanford - California - 1990
- Henry Sussman - Afterimages of Modernity - structure and indifference in twentieth century literature. The Johns Hopkins University Press. Baltimore and London - 1990
- John F. Rundell - Origins of Modernity, the origins of Modern Social theory from Kant to Hegel to Marx - Polity Press - Cambridge - 1989.
- Louis Menand - Discovering Modernism, T.S. Eliot and his Context - Oxford University Press - New York - Oxford - 1987.

٩ـ الدوريات:

- الحرس الوطني ـ العدد (٨٦) ـ ربيع الآخر ١٤١٠هـ ـ نوفمبر ١٩٨٩م ـ السنة العاشرة.
- فصول (مجلة النقد الأدبي) ـ الحداثة في اللغة والأدب ـ الجزء الأول ـ المجلد الرابع ـ العدد الثالث ـ إبريل ـ مايو ـ يونية ١٩٨٤م ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.
- فصول (مجلة النقد الأدبي) ـ الحداثة في اللغة والأدب ـ الجزء الثاني ـ المجلد الرابع ـ العدد الرابع ـ يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر ١٩٨٤م ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة.
- القافلة ـ المجلد (٣٧) ـ العدد (٩) رمضان ١٤٠٩هـ ـ مايو ١٩٨٩م.



فهرس كتاب

تقويم نظرية الحداثة
وموقف الأدب الإسلامي منها

الباب الثالث

موقف الأدب الإسلامي من الحداثة

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة السادسة.
- الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة.
- الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الرابعة.
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة.
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الرابعة.
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة.
- التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثانية.
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثالثة.
- النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الرابعة.
- النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ـ الطبعة الأولى.
- الولاء بين منهاج الله والواقع ـ الطبعة الثانية.
- الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام ـ الطبعة الثانية.
- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء ـ الطبعة الأولى.
- منهج لقاء المؤمنين ـ الطبعة الأولى.
- «خطة الداعية The Caller's Plan» (باللغة الإنجليزية)ـ الطبعة الأولى.
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ (مترجم إلى اللغة التركية).
- أضواء على طريق النجاة ـ الطبعة الأولى.

- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية.
- الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة.
- تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها ـ الطبعة الثانية.

- **ديوان الأرض المباركة** ـ الطبعة السادسة.
- **ديوان موكب النور** ـ الطبعة الرابعة.
- **ديوان جراح على الدرب** ـ الطبعة الثالثة.
- **ديوان مهرجان القصيد** ـ الطبعة الأولى.

- **ملحمة الغرباء** ـ الطبعة الثالثة.
- **ملحمة القسطنطينية (فتحان)** ـ الطبعة الثانية.
- **ملحمة الجهاد الأفغاني** ـ الطبعة الثالثة.
- **ملحمة فلسطين** ـ الطبعة الخامسة.
- **ملحمة الأقصى** ـ الطبعة الثانية.
- **ملحمة الإسلام في الهند** ـ الطبعة الأولى.
- **ملحمة البوسنة والهرسك ـ الجريمة الكبرى** ـ الطبعة الثانية.

- **على أبواب القدس** ـ الطبعة الثانية.
- **فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع** ـ الطبعة الرابعة.
- **الصحوة الإسلامية إلى أين؟**ـ الطبعة الثالثة.
- **فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع** ـ (مترجم باللغة التركية).
- **عبد الله عزام، أحداث ومواقف** ـ الطبعة الأولى.

- **دراسة انتشار الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية)** ـ الطبعة الأولى.



دار النحوي للنشر والتوزيع
هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧
ص. ب ١٨٩١ ـ الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

ردمك ٠ ـ ٠٩ ـ ٦٨٧ ـ ٩٩٦٠